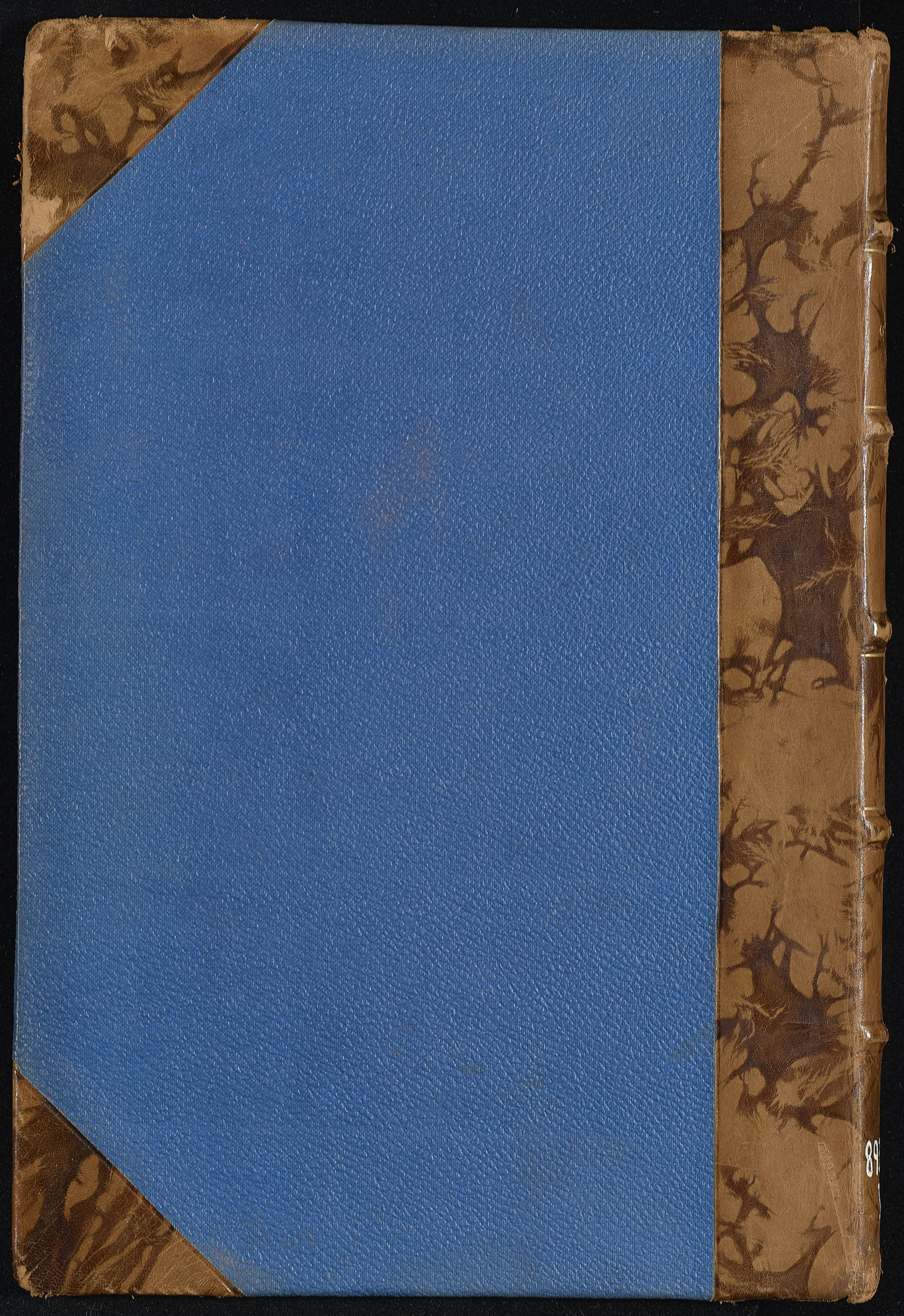
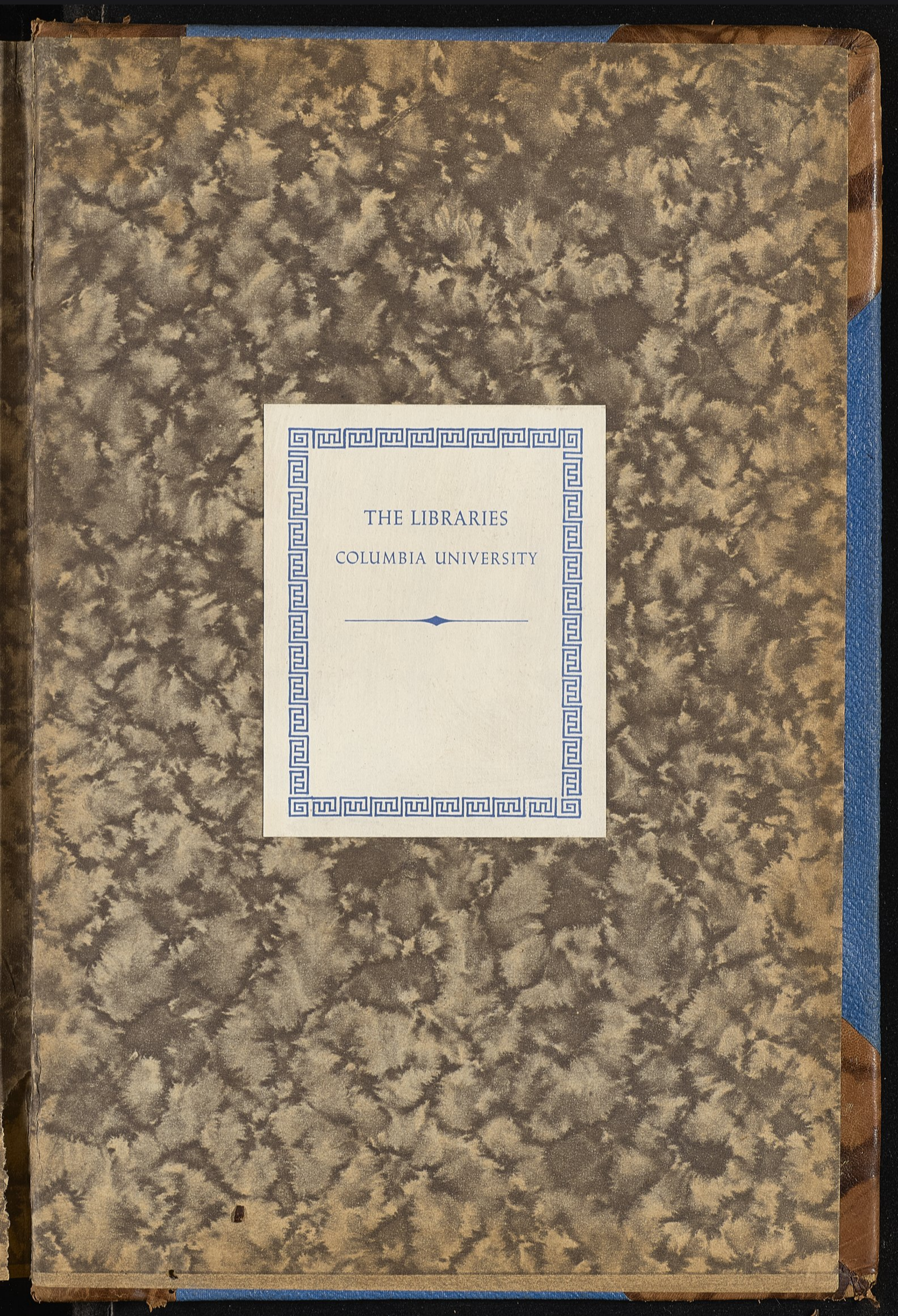






الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

فهرس الجزء السادس عشر

سـورة الشـورى

صفحة

صفحة

سورة الدخان

سورة الجاثية

*

سورة الأحقاف

صفحة

صفحة

سورة القتال

سورة الفتح

صفحة

سورة الحجرات

إصلاح خطأ

جزء	ص	س	خطأ	صواب
١	٤٩	٢١	طِرْزان	طِرَّان
١	٢٠٨	٢٢	الإهلالة	الإهالة
١	٢٣٥	١٦	عن مسعود	عن ابن مسعود
١	٣٦٧	٢	لا تنهى عن	لا تنه عن
١	٣٩٧	١٨	كى تشكرون	كى تشكروا
٢	١٢١	١٤	الحُليمى	الحَليمى
٢	١٢٤	١٧	وارتق	وارتق
٢	٢٦٧	٧	ما انهى النبي	ما نهى النبي
٢	٢٩٩	١٢	عُبَيدة السّلمانى	عَبِيدة السّلمانى
٢	٣١١	١٢	بألا قادر	بأن لا قادر
٤	٣٢٦	١٨	« مدح »	« ح »
٥	٣٠١	١١	عليك سلام الله من	عليك سلام من
٥	٣٧٧	٦	عن عَضُدِ	عن عَضْدِ

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء فى الأجزاء الماضية أثبتناها هنا للفائدة .

هذا و إنا لانزال نذكر بالحمد والثناء تلك اليد التى أسداها إلينا حضرة الأستاذ أحمد خيرى نجل المرحوم خيرى باشا بإعارته لنا نسخته الخطية ، التى كانت عونا لنا فى المراجعة والتصحيح م

أحمد عبد العليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى

بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشّورَى

مكيّة فى قول الحسن وعِكْرِمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى »[1] إلى آخرها . وهى ثلاث وخمسون آية .

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن : سألت الحسين بن الفضل : لم قطع «حمٓ» من «عٓسٓقٓ» ولم تقطع « كهيعص» و « المٓرٓ» و «المٓصٓ» ؟ فقال : لأن « حم . عسق » بين سُوَرٍ أوّلها « حم » فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ؛ فكأن « حم » مبتدأ و « عسق » خبره . ولأنها عدّت آيتين ، وعدّت أخواتها اللواتى كتبت جملة آية واحدة . وقيل : إن الحروف المعجمة كلها فى المعنى واحد ، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام ؛ ذكره الجُرْجَانِىّ . وكتبت « حم . عسق » منفصلا و « كهيعص » متصلا لأنه قيل : حمٓ ؛ أى حمّ ما هو كائن ، ففصّلوا بين ما يقدّر فيه فعل و بين ما لا يقدّر . ثم لو فُصِل هذا ووُصِل ذا لجاز ؛ حكاه القُشيرىّ . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس « حم . سق » قال ابن عباس:

---

(١) آية ٢٣ .

وكان عليّ رضى الله عنه يعرف الفتن بها . وقال أرطاة بن المنذر : قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرنى عن تفسير قوله تعالى : « حم . عسق »؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثا فأعرض عنه . فقال حذيفة بن اليمان : أنا أنبئك بها، قد عرفت لِمَ تركها؛ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبنى عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداءَ مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها، فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها و بهم جميعا؛ فذلك قوله : «حم . عسق» . أى عزمة[1] من عزمات الله وفتنة وقضاء حُمّ : حمّ . « ع » : عدلًا منه ، « س » : سيكون ، « ق » : واقع فى هاتين المدينتين .

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تُبنى مدينة بين دجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل[2] والصَّراة يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها — وفى رواية بأهلها — فَلَهِىَ أسرع ذهابا فى الأرض من الوَتِد الجيد فى الأرض الرِّخوة" . وقرأ ابن عباس «حمَ . سَقَ» بغير عين . وكذلك هو فى مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبرى . وروى نافع عن ابن عباس : « الحاء » حلمه[3] ، و « الميم » مجده ، و « العين » علمه ، و « السين » سَنَاه ، و « القاف » قدرته؛ أقسم الله بها . وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومَجْده وعلوّه وسَنَاه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إلٰه إلا الله مخلصا من قلبه . وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : « الحاء » من الرحمن ، و « الميم » من المجيد ، و «العين» من العليم ، و «السين» من القدّوس ، و «القاف» من القاهر . وقال مجاهد : فواتح السور . وقال عبدالله بن بُريدة : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا . وذكر القشيرى واللفظ للثعلبى : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمّا نزلت هذه الآية عُرفت الكآبة فى وجهه؛

(١) أى حق من حقوقه . (٢) وروى بفتح أوله وطائه . (٣) فى بعض النسخ . «حكمه» بالكاف .

فقيل له : يا رسول الله ، ما أحزنك ؟ قال : "أخبرت ببلايا تنزل بأمتي من خسف وقذف ونار تحشرهم وريح تقذفهم في البحر وآيات متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال". والله أعلم . وقيل : هذا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فـ « الحاء » حوضه المورود، و « الميم » ملكه الممدود، و « العين » عزه الموجود ، و « السين » سناه المشهود ، و « القاف » قيامه في المقام المحمود، وقربه في الكرامة[1] من الملك المعبود . وقال ابن عباس : ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه : «حم . عسق» ؛ فلذلك قال : « يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » . المهدوي : وقد جاء في الخبر أن "« حم . عسق » معناه أوحيت إلى الأنبياء المتقدمين". وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد «يوحَى» (بفتح الحاء) على ما لم يسم فاعله ؛ وروى عن ابن عمر . فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون اسم ما لم يسم فاعله مضمرا ؛ أي يوحى إليك القرآن الذي تضمنته هذه السورة، ويكون اسم الله مرفوعا بإضمار فعل، التقدير : يوحيه الله إليك ؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ » أي يسبحه رجال . وأنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة * وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح[2]

فقال : لِيُبْكَ يزيدُ ، ثم بين من ينبغي أن يبكيه ، فالمعنى يبكيه ضارع . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ؛ كأنه قال : الله يوحيه . أو على تقدير إضمار مبتدأ أي الموحي الله . أو يكون مبتدأ والخبر « العزيزُ الحكيمُ » . وقرأ الباقون « يوحِي إليك » بكسر الحاء ، ورفع الاسم على أنه الفاعل . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ تقدم في غير موضع[3] .

---

(١) في نسخة من الأصل : « وقربه يوم القيامة من الملك ... » .

(٢) رواية البيت كما في كتاب سيبويه وخزانة الأدب :

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

وهذا البيت نسبه سيبويه للحارث بن نهيك . ونسبه صاحب خزانة الأدب لنهشل بن حري في مرثية يزيد . (راجع الشاهد الخامس والأربعين) .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . وجـ ٣ ص ٢٧٨ .

قوله تعالى : تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة بالتاء . وقرأ نافع وابن وثّاب والكسائى بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد فى الطاء، وهى قراءة العامة . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد « ينفطرن » من الانفطار؛ كقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقد مضى فى سورة « مريم » بيان هذا[1] . وقال ابن عباس : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ » أى تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التى تليها ؛ من قول المشركين : « اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا[2] » . وقال الضّحاك والسُّدّى : «يتفطرن» أى يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن . وقيل : «فوقهن» ، فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل .

قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أى ينزّهونه عما لا يجوز فى وصفه وما لا يليق بجلاله . وقيل : يتعجّبون من جرأة المشركين؛ فيُذكر التسبيح فى موضع التعجّب . وعن علىّ رضى الله عنه : أن تسبيحهم تعجّب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» بأمر ربهم؛ قاله السُّدّى . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال الضحاك : لمن فى الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدى . بيانه فى سورة المؤمن : «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا[3]» . وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش . وقيل : جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبىّ . وقال وهب ابن منبّه : هو منسوخ بقوله : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا » . قال المهدوى : والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للؤمنين . وقال أبو الحسن الماوردىّ عن الكلبىّ : ان الملائكة لما رأت الملكين اللّذين اختُبِرا وبُعِثا إلى الأرض ليحكما بينهم ، فافتتنا بالزّهرة

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٦ . (٢) آية ١١٦ سورة البقرة . (٣) آية ٧

وهربا إلى إدريس — وهو جَدّ أبى نوح عليهما السلام — وسألاه أن يدعُوَ لهما ، سبّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبنى آدم . قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوخة بالآية التى فى المؤمن ، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للؤمنين خاصة ، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن فى الأرض . الماوردىّ : وفى استغفارهم لهم قولان : أحدهما — من الذنوب والخطايا ؛ وهو ظاهر قول مقاتل . الثانى — أنه طلب الرزق لهم والسّعة عليهم ؛ قاله الكلبىّ .

قلت : وهو أظهر ، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر . وقد رُوى فى هذا الباب خبر رواه عاصم الأحول عن أبى عثمان عن سَلْمان قال : إن العبد إذا كان يذكر الله فى السّراء فنزلت به الضّراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدمىّ ضعيف ، كان يذكر الله تعالى فى السراء فنزلت به الضراء ؛ فيستغفرون له . فإذا كان لا يذكر الله فى السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت منكر من آدمىّ كان لا يذكر الله فى السراء فنزلت به الضراء ؛ فلا يستغفرون . وهذا يدلّ على أن الآية فى الذاكر لله تعالى فى السراء والضراء ، فهى خاصّة ببعض مَن فى الأرض من المؤمنين . والله أعلم . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران فى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا[1] — إلى أن قال — إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ[2] » . والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاما ؛ قاله الزّمخشرىّ . وقال مُطرِّف : وجدنا أنصح عبادِ الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين . وقد تقدّم[3] . ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ قال بعض العلماء : هَيّب وعَظّم جلّ وعزّ فى الابتداء ، وألطف وبشّر فى الانتهاء .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

(١) آية ٤١ سورة فاطر . (٢) آية ٦ سورة الرعد . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٥

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما يعبدونها . ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها . ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف . وفى الخبر : " أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط " أى صوّتت من ثقل سكانها لكثرتهم ، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله ؛ وهؤلاء الكفار يشركون به .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعانى فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًّا بيّناه بلغة العرب . وقيل : أى أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك ؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه . والمعنى واحد . ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعنى مكة . وقيل لمكة أم القُرَى لأن الأرض دُحيت من تحتها . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من سائر الخلق . ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى بيوم الجمع ، وهو يوم القيامة . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ابتداء وخبر . وأجاز الكسائى النصب على تقدير : لتنذر فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى . ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : فى الإسلام . ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ رفع على الابتداء ، والخبر ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ عطف على اللفظ . ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع على الموضع و « مِن » زائدة .

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا ﴾ أى بل اتخذوا . ﴿ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما . ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ أى وليّك يا محمد وولىّ من آتبعك ، لا ولىّ سواه . ﴿ وَهُوَ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ يريد عند البعث . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شىء .

قوله تعالى : وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين ؛ أى وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين ، فقولوا لهم حكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدّين هو الإسـلام لا غيره ، وأمور الشرائع إنمـا تُتَلَقَّى من بيـان الله . ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ أى الموصوف بهـذه الصفات هو ربى وحده ؛ وفيه إضمار : أى قل لهم يا محمد ذلكم الله الذى يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّى . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع .

قوله تعالى : فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بالرفع على النعت لآسم الله ، أو على تقدير هو فاطر . ويجوز النصب على النـداء ، والجرّ على البدل من الهاء فى « عليه » . والفاطر : المبدع والخالق . وقد تقدّم[1] . ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قيـل معناه إناثا . وإنمـا

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٧ ، جـ ٩ ص ٢٧٠ و ٣٤٦ ، جـ ١٤ ص ٢٤ وما بعدها و ٣١٩

قال : « مِن أنفسكم » لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم . وقال مجاهـد : نَسْلاً بعد نسـل . ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى الثمـانية التى ذكرها فى « الأنعام »(١) ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها . ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أى يخلقكم و ينشئكم «فيه» أى فى الرحم . وقيل : فى البطن. وقال الفرّاء وٱبن كَيْسان : « فيه » بمعنى به . وكذلك قال الزجاج : معنى « يذرؤكم فيه » يكثّركم به ؛ أى يكثّركم بجعلكم أزواجا ، أى حلائل ؛ لأنهن سبب النسل . وقيـل : إن الهـاء فى « فيه » للجعل ، ودلّ عليـه « جَعَل » ؛ فكأنه قال : يخلقكم و يكثّركم فى الجعل . آبن قُتيبة : « يذرؤكم فِيهِ » أى فى الزوج؛ أى يخلقكم فى بطون الإناث . وقال : ويكون « فيه » فى الرحم ، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لهـا ذكر . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ قيل : إن الكاف زائدة للتوكيد؛ أى ليس مثله شىء . قال :

* وصالياتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ(٢) *

فأدخل على الكاف كافاً تأكيدا للتشبيه . وقيـل : المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب : ليس كهو شىء؛ نحو قوله تعـالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا »(٣) . وفى حرف ابن مسعود « فإن آمنوا بمـا آمنتم به فقد اهتدوا » قال أَوْس بن حَجَر :

وقَتْلَى كمثل جذوع النخـ ... ـل يغشاهم مطـر منهمر

أى كجذوع . والذى يُعتقد فى هذا الباب أن الله جل آسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمـائه وعليّ صـفاته ، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشـبَّه به، و إنمـا جاء ممـا أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق ، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ؛ إذ صفات القـديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض ، وهو تعالى منزه عن ذلك ؛ بل لم يزل بأسمـائه و بصفاته على ما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الصاليات : الأثافى ، وهى الأحجار التى ينصب عليها القـدر . ومعنى يؤثفين : ينصبن للقدر . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الخامس والثلاثين بعد المـائة وكتاب سيبويه) . (٣) آية ١٣٧ سورة البقرة .

أسماء الله الحسنى) ، وكفى فى هذا قوله الحق : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطّلة من الصفات . وزاد الواسطي رحمه الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كآسمه آسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة . رضى الله عنهم !

قوله تعالى : لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم فى « الزُّمَر »[1] بيانه . النحاس : والذى يملك المفاتيح يملك الخزائن ؛ يقال للمفتاح : إقليد ، وجمعه على غير قياس ؛ كمحاسن والواحد حسن . ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدم أيضا فى غير موضع[2] .

قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٤ .	(٢) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٩ ص ٣١٤

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ أى الذى له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما . ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ؛ قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » وقد تقدّم القول فيه (١) . ومعنى « شرع » أى نهج وأوضح وبيّن المسالك . وقد شَرَع لهم يَشْرَع شَرْعًا أى سنّ . والشارع : الطريق الأعظم . وقد شَرَع المنزلُ اذا كان على طريق نافذ . وشرعت الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة . وشرعت الأديم إذا سلخته . وقال يعقوب : إذا شققت مابين الرجلين ، قال : وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِية . وشرعت فى هذا الأمر شروعا أى خضت . ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ « أنْ » فى محل رفع ، على تقدير والذى وصّى به نوحا أن اقيموا الدّين ، ويوقف على هذا الوجه على « عيسى » . وقيل : هو نصب ، أى شرع لكم إقامة الدين . وقيل : هو جرّ بدلا من الهاء فى « به » ؛ كأنه قال : به أقيموا الدين . ولا يوقف على « عيسى » على هذين الوجهين . ويجوز أن تكون « أن » مفسرة ؛ مثل أن آمشوا ، فلا يكون لها محل من الإعراب .

الثانية — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى حديث الشفاعة الكبير المشهور : ” ولكن ائتوا نوحا فإنه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقولون له أنت أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ... “ وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أوّل نبىّ (٢) بغير إشكال ؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نُبوّة ، ولم تُفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم ، وإنما كان تنبيها على بعض

---

(١) راجع ج ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى نسخ الأصل : « كما أن آدم أوّل رسول نبى بغير إشكال ، إلا أن آدم » والتصويب عن ابن العربى .

الأمور واقتصارا على ضرورات المعاش ، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء ؛ واستقر المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظّف عليه الواجبات وأوضح له الآداب فى الديانات، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل ويتناصر(١) بالأنبياء — صلوات الله عليهم — واحدا بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكان المعنى أوصيناك يامحمد ونوحا دينا واحدا؛ يعنى فى الأصول التى لا تختلف فيها الشريعة، وهى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزُّلَف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذاية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كله مشروع دينًا واحدا وملة متحدّة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى اجعلوه قائما؛ يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب ؛ فمن الخلق مَن وفى بذلك ومنهم من نَكَث؛ ومن نكث فانما ينكث على نفسه . واختلفت الشرائع وراء هذا فى معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه فى الأزمنة على الأمم » . والله أعلم . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيًّا قطُّ إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذى شرع لهم؛ وقاله الوالِبِيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ . وقال قتادة : يعنى تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات . وما ذكره القاضى يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها . وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع .

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عَظُم عليهم . ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة : كَبُر على المشركين فاشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويُعليها ويظهرها على من

(١) فى ابن العربى : « ويتناشر » .

ناوأها . ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يختار . والاجتباء الاختيار ؛ أى يختار للتوحيد من يشاء . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى يستخلص لدينه من رجع إليه . ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال ابن عباس : يعنى قريشا . ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكانوا يتمنّون أن يبعث إليهم نبىّ؛ دليله قوله تعالى فى سورة فاطر : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ (١) » يريد نبيًّا . وقال فى سورة البقرة : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » على ما تقدّم بيانه هناك (٢) . وقيل : أمم الأنبياء المتقدّمين ؛ فإنهم فيما بينهم آختلفوا لما طال بهم المَدَى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال آبن عباس أيضا : يعنى أهل الكتاب ؛ دليله فى سورة المُنفكّين « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » . فالمشركون قالوا : لم خُصّ بالنبوّة! واليهود حسدوه لما بُعث؛ وكذا النصارى . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى بغيًا من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فى تأخير العقاب عن هؤلاء . ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ (٣) » . وقيل : إلى الأجل الذى قضى فيه بعذابهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين من آمن وبين من كفر بنزول العذاب . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد المختلفين فى الحق . ﴿ لَفِي شَكٍّ ﴾ من الذى أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : «إن الذين أورثوا الكتاب» قريش . «من بعدهم» من بعد اليهود والنصارى . « لفى شك » من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى « من بعدهم » من قبلهم؛ يعنى من قبل مشركى مكة، وهم اليهود والنصارى .

---

(١) آية ٤٢ راجع جـ ١٤ ص ٣٥٧

(٢) آية ٨٩ راجع جـ ٢ ص ٢٧ طبعة ثانية .

(٣) آية ٤٦ سورة القمر .

قوله تعالى : فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ . لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى أو لقريش قيل له : ﴿ فَلِذَلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أى فتبينت شكهم فادع إلى الله؛ أى إلى ذلك الدين الذى شرعه الله للأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » أى إليها . و « ذلك » بمعنى هذا . وقد تقدم أول « البقرة »[1] . والمعنى فلهذا القرآن فادع . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . وقيل : إن اللام على بابها؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذى تقدم ذكره فادع واستقم . قال ابن عباس : أى إلى القرآن فادع الخلق . ﴿ وَٱسْتَقِمْ ﴾ خطاب له عليه السلام . قال قتادة : أى استقم على أمر الله . وقال سفيان : أى استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنظر إلى خلاف من خالفك . ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى أن أعدل؛ كقوله تعالى : « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[2] . وقيل : هى لام كى، أى لكى أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوى بينكم فى الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل فى جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل فى الأحكام . وقيل فى التبليغ . ﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود؛ أى لنا ديننا ولكم دينكم . قال : ثم نُسخت بقوله « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »[3] الآية . قال مجاهد : ومعنى « لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل : ليس بمنسوخ؛

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٦٦ سورة غافر . (٣) آية ٢٩ سورة التوبة .

لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، و بعد العناد لاحجة ولاجدال. قال النحاس : ويجوز أن يكون معنى « لا حُجَّةَ بيننا و بينكم » على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتجّ عليكم ويقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلا لو قال من قبل أن تحوّل القبلة : لا تصلّ الى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال نسخ ذلك . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى فهو يحكم بيننا اذا صرنا إليه، ويجازى كُلًّا بما كان عليه . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه الى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوّجه شيبةُ بآبنته .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ رجع الى المشركين . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال : وهؤلاء قد توهّموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : الذين يحاجون فى الله اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء . وكان المشركون يقولون : « أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا »[1] فقال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى لاثبات لها كالشيء الذى يزلّ عن موضعه . والهاء فى « له » يجوز أن يكون لله عز وجل؛ أى من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية . ويجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى من بعد ما استجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين . يقال : دَحَضت حجّته دُحوضًا بطلت . وأدحضها الله . والإدحاض : الإزلاق . ومكان دَحْض ودَحَض أيضا

---

(١) آية ٧٣ سورة مريم .

(بالتحريك) أى زَلِق . ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت . ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت . ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ يريد فى الدنيا . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يريد فى الآخرة عذاب دائم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن وسائر الكتب المنزلة . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يسمى ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بين فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه . وهذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » [(١)] . قال مجاهد : هو الذى يوزن به . ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به] . وقيل : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم ، يقضى بينكم بكتاب الله . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فلم يخبره بها . يحضّه على العمل بالكتاب والعدل والسوية ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئ اليوم الذى يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال ، فيوفى لمن أوفى ويطفّف لمن طفف . فـ « لعلّ الساعة قريب » أى منك وأنت لا تدرى . وقال : « قريب » ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيقى لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج . والمعنى : لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب . وقال الكسائى : « قريب » نعت يُنعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » [(٢)] . قال الشاعر :

وكنا قريبا والديار بعيدة * فلما وصلنا نُصْبَ أعينهم غبنا

---

(١) آية ٢٥ سورة الحديد .   (٢) آية ٥٦ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ .

قوله تعالى : يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعنى على طريق الاستهزاء ، ظنًّا منهم أنها غير آتيـة ، أو إيهاما للضَّعفة أنها لا تكون . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد فى الطاعة؛ كما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون »(١) . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى التى لا شك فيها . ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى يشكّون ويخاصمون فى قيام الساعة . ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا، قادر على أن يبعثهم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : حَفِيّ بهم . وقال عكرمة : بارٌّ بهم . وقال السُّدّىّ : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطيف بالبرّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . وقال القُرَظىّ : لطيف بهم فى العرض والمحاسبة . قال :

غدًا عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفُ * يسائلهم فيـه الجليـل و يلاطف

وقال جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين : يلطف بهم فى الرزق من وجهين : أحدهما — أنه جعل رزقك من الطيبات . والثانى — أنه لم يدفعه إليك مرّةً واحدة فتبذّره . وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم فى القرآن وتفصيله وتفسيره . وقال الجُنيد : لطيف

---

(١) آية ٦٠ سورة المؤمنون .

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه . وقال محمد بن عليّ الكتّانيّ : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكّل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله ويُقبل عليه. وجاء في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جلّ وعزّ امحت آثارهم واضمحلّت صُوَرهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خفّفوا عنهم العذاب فيخفَّف عنهم العذاب" . قال أبو عليّ الثقفيّ رضي الله عنه :

أمرّ بأفناء القبور كأنني * أخو فطنة والثوب فيه نحيف

ومن شقّ فاه الله قدّر رزقه * وربّي بمن يلجأ إليه لطيف

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يا من أظهر الجميل وستر القبيح" . وقيل : هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل . وقيل : هو الذي يجبر الكسير وييسّر العسير . وقيل : هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله . وقيل : هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(١) ، « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »(٢) ، وقال : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٣) ، « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »(٤) . وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المِدْحة . وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيّب من رجاه . وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وقيل : هو الذي يعفو عمن يهفو . وقيل : هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه . وقيل : هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجًا ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجًا ، وأجزل لهم من سحائب برّه ماء ثجّاجًا . وقد مضى في « الأنعام »(٥) قول أبي العالية والجُنيد أيضا . وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف، والحمد لله . ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ويحرم من يشاء . وفي تفضيل قوم بالمال حكمةٌ؛ ليحتاج

(١) آية ٣٤ سورة إبراهيم . (٢) آية ٢٠ سورة لقمان . (٣) آية ٧٨ سورة الحج .
(٤) آية ٢٨ سورة النساء . (٥) راجع ج ٧ ص ٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

البعض إلى البعض؛ كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا »[١]، فكان هـذا لطفا بالعباد . وأيضا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »[٢] على ما تقدّم بيانه . ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الحرث العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمـر : وآحْرُث لدنياك كأنك تعيش أبدًا وآعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . ومنـه سمى الرجل حارثا . والمعنى : أى من طلب بمـا رزقناه حرثًا لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق فى إعزاز الدِّين؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر. ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أى طلب بالمـال الذى آتاه الله ريـاسـة الدنيا والتوصّل إلى المحظورات ، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا ، ولكن لا حظّ له فى الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَـا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْـلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَـا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »[٣] . وقيـل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » نوفقه للعبادة ونسهلها عليـه . وقيل : حرث الآخرة الطاعة ؛ أى من أطاع فله الثواب . وقيل : « نزد له فى حرثه » أى نعطيه الدنيا مع الآخرة . وقيل : الآية فى الغزو؛ أى من أراد بغزوه الآخرة أوتى الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتى منها . قال القُشيرىّ : والظاهر أن الآية فى الكافر؛ يوسع له فى الدنيا ؛ أى لا ينبغى له أن يغترّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى . وقال قتادة : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا . وقال أيضا : يقول الله تعالى : "من عمل لآخرته زدناه فى عمله وأعطيناه من الدنيـا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيبًا فى الآخرة

---

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . (٢) آية ٢٠ سورة الفرقان . راجع جـ ١٣ ص ١٨

(٣) آية ١٨ وما بعدها سورة الإسراء .

إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار". وروى جُوَيْبِر عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرةِ» من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة «نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه» أي في حسناته. «ومن كان يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا» أي من كان من الفُجّار يريد بعمله الحَسَن الدنيا «نُؤْتِه مِنها» ثم نسخ ذلك في سبحان: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ»(1). والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يقل أحدكم اللّهمّ اغفرلي إن شئت اللّهمّ ارحمني إن شئت". وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبيّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في «هود»(2) أن هذا من باب المطلق والمقيّد، وأن النسخ لا يدخل في الأخبار. والله المستعان.

مسـألة: هذه الآية تبطل مذهب أبي حنيفة في قوله: إنه من توضأ تَبَرُّداً أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليـه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزى نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربي.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي ألهم! والميم صلة والهمزه للتقريع. وهـذا متصل بقوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً»، وقوله تعالى: «اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ والمِيزَانَ» كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك، فمن أين يدينون به. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يوم

(1) آية ١٨   (2) راجع جـ ٩ ص ١٤

القيامة حيث قال: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ». ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فى الدنيا، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع. ﴿وإِنَّ الظَّالِمينَ﴾ أى المشركين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدنيا القتلُ والأسر والقهر، وفى الآخرة عذاب النار. وقرأ ابن هُرْمُز «وأنّ» بفتح الهمزة على العطف على «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ» والفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائز. ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعا على تقدير: وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم؛ فيكون منقطعا ممـا قبله كقراءة الكسر؛ فاعلمه.

قوله تعالى: تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

قوله تعـالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أى خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى من جزاء ما كسبوا. والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى نازل بهم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الرَّوْضة: الموضع النَّزِه الكثير الخضرة. وقد مضى فى «الروم»[1]. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى من النعيم والثواب الجزيل. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى لا يوصف ولا تهتـدى العقول إلى كُنْه صفته؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذى يقدر قدره.

قوله تعالى: ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

(١) راجع ج ١٤ ص ١١

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرئ « يُبَشِّر » من بَشَّره ، « ويُبْشِر » من أبشره ، « ويَبْشُر » من بَشَره ، وفيه حذف ؛ أى يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجدًا فى الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلًا . ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ﴾ قال الزجاج : «إلا المودة» استثناء ليس من الأول ؛ أى إلا أن تَوَدُّونى لقرابتى فتحفظونى . والخطاب لقريش خاصّةً ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم . قال الشعبيّ : أكْثَرَ الناس علينا فى هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ؛ فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسطَ الناس فى قريش ، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد ولَدَه ؛ فقال الله له : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ » إلا أن تَوَدُّونى فى قرابتى منكم ؛ أى تراعوا ما بينى و بينكم فتصدّقونى . فـ « الْقُرْبَىٰ » ها هنا قرابة الرَّحِم ؛ كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة . قال عكرمة : وكانت قريش تَصِل أرحامها فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعته ؛ فقال : " صِلُونى كما كنتم تفعلون " . فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكّركم قرابتى ؛ على أنه استثناء ليس من الأوّل ؛ ذكره النحاس . وفى البخاريّ عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : « إلا المودّةَ فى القُرْبَىٰ » فقال سعيد بن جُبير : قُرْبَى آل محمد ؛ فقال ابن عباس : عجِلت ! إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ؛ فقال : إلا أن تَصِلوا ما بينكم من القرابة . فهذا قول . وقيل : القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا أسألكم أجرا إلا أن تَوَدّوا قرابتى وأهل بيتى ، كما أمر بإعظامهم ذوى القربى . وهذا قول على بن حسين وعمرو بن شعيب والسُّدِّى . وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما أنزل الله عز وجل : « قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المَوَدَّةَ فى القُرْبَىٰ » قالوا : يا رسول الله ، من

هؤلاء الذين نودّهم ؟ قال : "عليّ وفاطمة وأبناؤهما" . ويدل عليه أيضا ما روى عن عليّ رضى الله عنه قال: شكوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى. فقال: "أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا" . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "حُرّمت الجنة على من ظلم أهــل بيتى وآذانى فى عِتْرتِى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقينى يوم القيامــة" . وقال الحسن وقتادة : المعــنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقربوا إليــه بطاعته . فـ « الْقُرْبَى » على هذا بمعنى القربة . يقال : قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى ؛ كالزُّلْفة والزُّلْفَى . وروى قَزَعة بن سُويد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجرا إلا أن توادّوا وتقربوا إليه بالطاعة" . وروى منصور وعوف عن الحسن «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا الموَدّة فِى القُرْبَى » قال : يتــودّدون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعتــه . وقال قوم : الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وأمرهم الله بمودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وصِلة رحمه ؛ فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا «وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) ؛ فأنزل الله تعــالى « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُــوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ »(٢) فنسخت بهذه الآية وبقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْــهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِــينَ »(٣) ، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ »(٤)، وقــوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْــرَمٍ مُثْقَلُونَ »(٥) ؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضــل . ورواه جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس . قال الثعلبيّ : وليس بالقــوىّ ، وكفى قُبحًا بقول من يقول : إن التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ ؛ وقد

(١) آية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سورة الشعراء . (٢) آية ٤٧ سورة سبأ .

(٣) آية ٨٦ سورة ص . (٤) آية ٧٢ سورة المؤمنون . (٥) آية ٤٠ سورة الطور وآية ٤٦ ســورة القلم .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من مات على حُبّ آل محمد مات شهيدا . ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمة . ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بُغْض آل محمد لم يَرِح(١) رائحة الجنة . ومن مات على بغض آل بيتى فلا نصيب له فى شفاعتى " .

قلت : وذكر هذا الخبر الزَّمَخْشَرِيّ فى تفسيره بأطول من هذا فقال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألَا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان . ألَا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم مُنْكَر ونكير . ألَا ومن مات على حب آل محمد فُتح له فى قبره بابان إلى الجنة . ألا ومن مات فى حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة . ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة . ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس من رحمة الله . ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا . ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يَشُمّ رائحة الجنة " . قال النحاس : ومذهب عِكْرِمة ليست بمنسوخة؛ قال : كانوا يَصِلون أرحامهم فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : " قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا أن تَوَدُّونى وتحفظونى لقرابتى ولا تكذبونى " .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس فى البُخارِيّ والشَّعْبِيّ عنه بعينه؛ وعليه لانسخ. قال النحاس : وقول الحسن حسن ، ويدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدى قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادى قال أخبرنا أسد ابن موسى قال حدّثنا قَزَعة(٢) — وهو ابن يزيد البصرى — قال حدّثنا عبد الله بن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا أسئلكم على ما أنبئكم به من البيّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادّوا الله عز وجل وأن تتقرّبوا إليه بطاعته". فهذا المبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبله : « إِنْ أَجْرِىَ إلا على الله » .

(١) أى لم يشم ريحها؛ يقال : راح يَرِيح ، وراح يَراح ، وأراح يُرِيح . والثلاثة قد روى بها الحديث .

(٢) تقدم أنه قزعة بن سويد؛ وهو ممن يروى عن ابن ابى نجيح . (راجع تهذيب التهذيب) .

الثانيـــة ــ واختلفوا فى سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : لما قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه ؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم ، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما فى يديه فنجمع له ؛ ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت . وقال الحسن : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون ، فقالت الأنصار نحن فعلنا ، وفخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى مِقْسم عن ابن عبـاس قال سمع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم شيئا فخطب فقال للأنصار : " ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى . ألم تكونوا ضُلّالا فهداكم الله بى . ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بى ألا تردّون علىّ" ؟ فقـالوا : بِمَ نجيبك ؟ قال : " تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك . ألم يكذبك قومك فصدّقناك ... " فعدّد عليهم . قال : فجثَوْا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك ؛ فنزلت : « قل لا أسئلكم عليه أجرًا إلا المودّة فى القُرْبَى » . وقال قتادة : قال المشركون لعلّ محمدا فيما يتعاطاه يطلب أجرا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه . قال الثعلبيّ : وهذا أشبه بالآية ؛ لأن السورة مكية .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أى يكتسب . وأصـل القرف الكسب ؛ يقال : فلان يَقْرِف لعياله ؛ أى يكسب . والاقتراف الاكتساب ؛ وهو مأخوذ من قولهم : رجل قرفة ، إذا كان محتالا . وقـد مضى فى « الأنعام »[1] القول فيه . وقال ابن عبـاس : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَـنَةً » قال المودّة لِآل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَـا حُسْنًا ﴾ أى نضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قال قتادة : «غفور» للذنوب ، «شكور» للحسنات . وقال السُّدّى : «غفور» لذنوب آل محمد عليه السلام ، «شكور» لحسناتهم .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٠

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الميم صلة، والتقدير أيقولون افترى. واتصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال: «وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ» (١)، وقال «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» (٢) قال إتماما للبيان: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». يعني كفار قريش قالوا: إن محمدا اختلق الكذب على الله. ﴿فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: «إن يشأ الله» يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقةٌ من قولهم. وقيل: المعنى إن يشأ يزل تمييزك. وقيل: المعنى لو حدّثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى. وقيل: فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب. فالخطاب له والمراد الكفار؛ ذكره القشيري. ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ قال ابن الأنباري: «يختم على قلبك» تام. وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير؛ مجازه: والله يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حُذفت من قوله «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» (٣)، «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ» (٤) ولأنه عطف على قوله «يختم على قلبك». وقال الزجاج: قوله «أم يقولون افترى على الله كذبا» تمام؛ وقوله «ويمح الله الباطل» احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته في المفترين. ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي الإسلام فيثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بما أنزله من القرآن. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عام؛ أي بما في قلوب العباد. وقيل خاص. والمعنى أنك لو حدّثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لعلمه وطبع على قلبك.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

(١) آية ١٥ من هذه السورة. (٢) آية ١٧ من هذه السورة.
(٣) آية ١٨ سورة العلق. (٤) آية ١١ سورة الإسراء.

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » قال قوم فى نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنهم قد اتهموه فأنزل «أم يقولون افترى على الله كذبا» الآية؛ فقال القوم : يا رسول الله، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب . فنزلت : «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» . قال ابن عباس : أى عن أوليائه وأهل طاعته. والآية عامة . وقد مضى الكلام فى معنى التّوبة وأحكامها[(١)]، ومضى هذا اللفظ فى «براءة»[(٢)] . ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى عن الشرك قبل الإسلام . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى من الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائى وحفص وخلف بالتاء على الخطاب، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه . الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين خبرين : الأول وهو «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» والثانى «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

«الذين» فى موضع نصب؛ أى ويستجيب الله الذين آمنوا، أى يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه . وقيل : يعطيهم مسألتهم إذا دَعَوْه . وقيل : ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى فى «البقرة»[(٣)] . وقال ابن عباس : «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» يشفّعهم فى إخوانهم . « وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » قال : يشفّعهم فى إخوان إخوانهم . وقال المبرّد : معنى « ويستجيب الذين آمنوا » وليستدع الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقة معنى استفعل . فـ«الذين » فى موضع رفع . ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) آية ١٠٤ راجع جـ ٨ ص ٢٥٠

(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — فى نزولها؛ قيل: إنها نزلت فى قوم من أهل الصُّفّة تمنّوْا سَعة الرزق . وقال خَبّاب بن الأَرَتّ : فينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بنى النَّضير وقُريظة و بنى قَيْنُقَاع فتمنّيناها فنزلت .﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه وسّع . و بَسَط الشيء نشره . و بالصاد أيضا . ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ طَغَوْا وعَصَوْا . وقال آبن عباس : بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس . وقيل أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه ، لقوله : " لو كان لأبن آدم واديان من ذهب لأبتغى إليهما ثالثا " وهـذا هو البَغْىُ ، وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : لو جعلناهم سواء فى المال لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع . وقيل : أراد بالرزق المطر الذى هو سبب الرزق ؛ أى لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء ، فيقبِض تارة ليتضرّعوا و يبسُط أخرى ليشكروا . وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغى على هذا . الزَّمَخْشَرِىّ : « لبغَوْا » من البغى وهو الظلم؛ أى لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة ، وكفى بقارون عبرة . ومنه قوله عليه السلام : " أخْوَف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها " . ولبعض العرب :

وقد جعـل الوَسْمِيُّ يُنْبت بيننا * وبين بنى دُودَان نَبْعًا وشَوْحطا[1]

يعنى أنهم أحيُوا فحدّثوا أنفسهم بالبغى والتغابن . أو من البَغْى وهو البَذَخ والكبر؛ أى لتكبّروا فى الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد . ﴿وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أى ينزّل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم . وقال مقاتل : « ينزّل بقدر ما يشاء » يجعل من يشاء غنيًّا ومن يشاء فقيرا .

---

(١) الوسمى : مطر أول الربيع . والنبع والشوحط : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسىّ . وفى نسخ الأصل وبعض كتب التفسير : « ... بنى رومان » . ودودان : أبو قبيلة من أسد .

الثانيـــة – قال علماؤنا : أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزْوِى عنه الدنيا؛ مصلحةً له . فليس ضيق الرزق هواناً ولا سَعة الرزق فضيلة ؛ وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه فى الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح . والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح فى كل فعل من أفعال الله تعالى . وروى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : "من أهان لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى وإنى لأغضب لهم كما يغضب الليث الحَرِد . وما تردّدت فى شىء أنا فاعله تردّدى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بدّ له منه . وما تقرب إلىّ عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى المؤمن يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه فاذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيّدًا فإن سألنى أعطيته وإن دعانى أجبته . وإن من عبادى المؤمنين من يسألنى الباب من العبادة وإنى عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجْب فأفسده . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى . وإنى لأدبّر عبادى لعلمى بقلوبهم فإنى عليم خبير" . ثم قال أنس : اللهم إنى من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرنى برحمتك .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائى « يُنزِل » مخففا . الباقون بالتشديد . وقرأ ابن وَثّاب أيضا والأعمش وغيرهما « قَنِطوا » بكسر النون؛ وقد تقدّم جميع هذا (١) . والغيث المطر؛ وسمى الغَيْث غيثًا لأنه يغيث

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ ، ٦٧ وجـ ١٤ ص ٣٤

الخلق . وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها . وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثًا . وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا فهى أرض مَغيثة ومَغْيُوثة . وعن الأصمعيّ قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مُطروا فسألت عجوزا منهم : أتاكم المطر ؟ فقالت : غِثنا ما شئنا غَيْثًا ؛ أى مُطرنا . وقال ذو الرُّمّة : قاتل الله أَمَة بنى فلان ما أفصحها ! قلت لها كيف كان المطر عندكم ؟ فقالت : غِثْنا ما شئنا . ذكر الأوّل الثعلبي والثانى الجوهرى . وربما سمى السحاب والنبات غَيْثًا . والقنوط الإياس ؛ قاله قتادة وغيره . قال قتادة : ذُكر أنّ رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قَحَط المطرُ وقلّ الغيث وقَنَط الناس ؟ فقال : مطرتم إن شاء الله ؛ ثم قرأ « وهو الذى ينزّل الغيث من بعد ما قَنَطوا » . والغيث ما كان نافعا فى وقته ، والمطر قد يكون نافعا وضارًّا فى وقته وغير وقته ؛ قاله الماوَرْدىّ . ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل المطر ؛ وهو قول السُّدّى . وقيل ظهور الشمس بعد المطر ؛ ذكره المهدَوى . وقال مقاتل : نزلت فى حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ، ثم أنزل الله المطر . وقيل : نزلت فى الأعرابى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة فى خبر الاستسقاء ؛ ذكره القشيرى ، والله أعلم . ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ « الولى » الذى ينصر أولياءه . « الحميد » المحمود بكل لسان .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علاماته الدّالة على قدرته . ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ﴾ قال مجاهد : يدخل فى هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[1] . وقال الفرّاء : أراد ما بَثّ فى الأرض دون السماء ؛ كقوله « يَخرج مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من الملح دون العَذْب . وقال أبو علىّ : تقديره وما بث فى أحدهما ؛ فحذف المضاف . وقوله « يخرج منهما » أى من أحدهما . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) آية ٨ سورة النحل .

قوله تعالى : وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « بما كسبت » بغير فاء . الباقون « فبما » بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة فى الحرف والأجر . قال المهدوى : إن قدرت أن «ما» الموصولة جاز حذف الفاء و إثباتها، والإثبات أحسن . و إن قدرتها التى للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه ، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(١) . والمصيبة هنا الحدود على المعاصى؛ قاله الحسن . وقال الضحاك : ما تعلّم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » ثم قال : وأىّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبى رَوّاد . قال أبو عبيد : إنما هذا على الترك، فأما الذى هو دائب فى تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك فى شئ . ومما يحقق ذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان ينسى الشئ من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : سمع قراءة رجل فى المسجد فقال : "ماله رحمه الله لقد أذكرنى آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا" . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، والمعنى الذى أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . و إذا كان يكفّر عنى بالمصائب و يعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعا عنه رضى الله عنه ، قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» الآية . "يا علىّ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه

(١) آية ١٢١ سورة الأنعام .

فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه " . وقال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر" . وقال الحسن : دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل : لا بد أن أسالك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران : يا أخى لا تفعل ! فوالله إنى لأحِبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله ، قال الله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » فهذا مما كسبت يدى ، وعَفْوُ ربى عما بقى أكثر . وقال مُرّة الهَمْدانى : رأيت على ظهر كف شُريح قُرحة فقلت : يا أبا أمية ، ما هذا ؟ قال : هذا بما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير . وقال ابن عَون : إن محمد بن سيرين لما ركبه الدَّين آغتم لذلك فقال : إنى لأعرف هذا الغم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة . وقال أحمد ابن أبى الحَوارِى[1] قيل لأبى سليمان الدّارانى : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال : لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » . وقال عِكْرِمة : ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بها . وروى أن رجلا قال لموسى : يا موسى سل الله لى فى حاجة يقضيها لى هو أعلم بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزّق السّبُع لحمه وقتله؛ فقال موسى : ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له : "ياموسى إنه سألنى درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له فى نيل تلك الدرجة" . فكان أبو سليمان الدارانى إذا ذكر هذا الحديث يقول : سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء .

قلت : ونظير هذه الآية فى المعنى قوله تعالى «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» وقد مضى القول فيه[2] . قال علماؤنا : وهذا فى حق المؤمنين ، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة الى الآخرة . وقيل : هذا خطاب للكفار، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا : هذا بشؤم محمد؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك

---

(١) ضبط كسكارى (بالفتح) أو أحد الحوار يين (شرح القاموس) . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦

بشـؤم كفركم . والأول أكثر وأظهر وأشهر . وقال ثابت البُنَانِيّ : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا . ثم فيها قولان : أحدهما — أنها خاصة فى البالغين أن تكون عقوبة لهم، وفى الأطفال أن تكون مثوبة لهم. الثانى — أنها عقوبة عامة للبالغين فى أنفسهم والأطفال فى غيرهم من والد ووالدة . ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى عن كثير من المعاصى ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن . وقيل : أى يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهـم بالعقوبة . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بفـائتين الله؛ أى لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقدّم فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى ومن علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية فى البحر كأنها من عظمها أعلام . والأعلام : الجبال، وواحد الجـوارى جارية ، قال الله تعالى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» (٢) . سُمّيت جارية لأنهـا تجرى فى المـاء . والجارية : هى المرأة الشابة ؛ سُمّيت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب . وقال مجاهد : الأعلام القصـور ، واحدها علم؛ ذكره الثعلبى . وذكر المـاوردى عنه أنهـا الجبال . وقال الخليل : كل شىء مرتفع عند العرب فهو علم . قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

وإنّ صخـرا لتأتمّ الهُـداة به * كأنه عَـلَـمٌ فى رأســه نار

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ كذا قرأه أهل المدينـة « الرياح » بالجمع . ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أى فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجرى . رَكَد المـاء ركودا سكن . وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظهـيرة . وكلّ ثابت فى مكان فهـو راكد . وركَد

(١) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة الحاقة .

الميزان آستوى . وركد القوم هدءوا . والمراكد : المواضع التى يَرْكُد فيها الإنسان وغيره .
وقرأ قتادة « فَيَظْلِلْنَ » بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة، مثل ضَلِلت أَضِل[1] . وفتح اللام
هى اللغة المشهورة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾
أى صبار على البَلْوَى شكور على النعماء . قال قُطْرُب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا
أعطى شكر وإذا آبتُلِيَ صبر . قال عَوْن بن عبد الله : فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر ، وكم من
مبتلى غير صابر .

قوله تعالى : أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق
السفن، أى يغرقهن بذنوب أهلها . وقيل : يوبق أهل السفن . ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ من
أهلها فلا يغرقهم معها ؛ حكاه الماوردى . وقيل : « ويعفو عن كثير » أى ويتجاوز عن
كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك . قال القُشيرى : والقراءة الفاشية « ويعفُ »
بالجزم ، وفيها إشكال؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها
بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يعف» على هذا، لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف، وليس
المعنى ذلك بل المعنى الاخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم
من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم « ويعفو » بالرفع، وهى جيدة فى المعنى .
﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ يعنى الكفار ؛ أى إذا توسطوا البحر
وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله ،
ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع[2] ،
ومضى القول فى ركوب البحر فى « البقرة »[3] وغيرها بما يغنى عن إعادته . وقرأ نافع وابن عامر

---

(١) فى الأصول : « ظللت أظل » بالظاء المعجمة . والتصويب عن الكشاف .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ و جـ ١٣ ص ٢٢٣ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية .

« ويعـلمُ » بالرفع ، الباقون بالنصب . فالرفع على الاستئناف بعـد الشرط والجزاء ؛ كقوله في سـورة التوبة « ويُخزِهم وينصركُم عليهم »(١) ثم قال « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » رفعا . ونظيره في الكلام إن تأتني آتك وينطلقُ عبد الله . أو على أنه خبر ابتداء محذوف . والنصب على الصرف ؛ كقوله تعـالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »(٢) صرف من حال الجزم الى النصب استخفافا كراهيةً لتوالى الجزم ؛ كقول النابغة :

فإن يَهْلِك أبو قابوس يهلِكْ * ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ(٣)
ويُمْسِكْ بعده بذِناب عَيْشٍ * أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنامِ(٤)

وهـذا معنى قول الفرّاء ، قال : ولو جزم « ويعلم » جاز . وقال الزجاج : نصب على إضمار « أن » لأن قبلها جزما ؛ تقول : ما تصنعْ أصنعْ مثله وأكرمَك . وإن شئت قلت : وأكرمْك بالجزم . وفي بعض المصاحف « وليعلم » . وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم . وقال أبو علي والمبرّد : النصب بإضمار « أن » على أن يجعل الأول في تقدير المصدر ؛ أي ويكون منه عفوٌ وأن يعلم ، فلما حمله على الاسم أضمر أن ، كما تقول : إن تأتني وتعطيني أكرمك ، فتنصب تعطيني ؛ أي إن يكن منك إتيـان وأن تعطيني . ومعنى ﴿ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي من فرار ومهرب ؛ قاله قُطْرُب . السُّدّي : من ملجأ . وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به . ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) آية ١٤ (٢) آية ١٤٢ سورة آل عمران . (٣) أبو قابوس : كنيته النعمان بن المنذر ؛ يريد أنه كان كالربيع في الخصب لمجتديه ، وكالشهر الحرام لجاره ؛ أي لا يوصـل الى من أجاره . والمعنى : إن يمت النعمان يذهب خير الدنيا لأنها كانت تعمر به وبجوده وعدله ونفعـه للناس ، ومن كان في ذمتـه وسلطانه فهـو آمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس في الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم . (٤) ذناب كل شيء : عقبـه ومؤخره . وأجب الظهر مقطوع السنام . يقول : إن مات بقينا في طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه وخيره ، وقد بقي منه ذنبه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يريد من الغنى والسّعة فى الدنيا . ﴿ فَمَتَاعُ ﴾ أى فإنما هو متاعٌ فى أيام قليلة تنقضى وتذهب؛ فلا ينبغى أن يتفاخر به . والخطاب للشركين . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدّقوا ووحّدوا ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ نزلت فى أبى بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله فى طاعة الله فلامه الناس . وجاء فى الحديث أنه : أنفق ثمانين ألفا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ الذين فى موضع جرّ معطوف على قوله : « خير وأبقى للذين آمنوا » أى وهو للذين يجتنبون ﴿ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ﴾ وقد مضى القول فى الكبائر فى « النساء »[1] . وقرأ حمزة والكسائىّ « كبير الإثم » والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[2] ، وكما جاء فى الحديث : "منعت العراق درهمها وقفيزها" . الباقون بالجمع هنا وفى « النجم »[3] . ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ قال السُّدّى : يعنى الزنى . وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشرك. وقال قوم : كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها . والفواحش داخلة فى الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة الى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة . وقيل : الفواحش والكبائر بمعنًى واحد؛ فكرر لتعدد اللفظ ؛ أى يجتنبون المعاصى لأنها كبائر وفواحش . وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم . قيل : نزلت فى عمر حين شُتم بمكة . وقيل فى أبى بكر حين لامه الناس على

(١) آية ٣١ راجع جـ ٥ ص ١٥٨ وما بعدها . (٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم . و ١٨ سورة النحل .
(٣) آية ٣٢

انفاق ماله كله وحين شُـتم فحَلُم . وعن علىّ رضى الله عنه قال : اجتمع لأبى بكر مال مرة، فتصـدّق به كله فى سبيل الخير ؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ — الى قوله — وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وقال ابن عباس : شـتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردّ عليه شيئا؛ فنزلت الآية . وهذه من محاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ؛ لقوله تعالى فى آل عمران « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »(١) . وهو أن يتناولك الرجل فتكظم غيظك عنه . وأنشد بعضهم :

إنى عفوت لظـالمى ظلمى * ووهبت ذاك له على علمى

ما زال يظلمنى وأرحمـــه * حتى بكيت له من الظـلم

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قال عبد الرحمن ابن زيد : هم الأنصار بالمدينـة؛ استجابوا الى الإيمـان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيبا منهم قبل الهجرة . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أى يتشاورون فى الأمور . والشُّورَى مصدر شاورته؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه . فكانت الأنصار قبل قدوم النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمرا تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فمدحهم الله تعالى به ؛ قاله النقاش . وقال الحسن : أى إنهم لانقيادهم إلى الرأى فى أمورهم متفقون لا يختلفون؛ فمدحوا باتفاق كلمتهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قطّ إلا هُدُوا لأرشـد أمورهم . وقال

---

(١) آية ١٣٤ راجع جـ ٤ ص ٢٠٦

الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رســول الله صلى الله عليه وســلم ، وورد النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهــم فى دار أبى أيوب على الإيمــان به والنصرة له . وقيــل تشاورهم فيما يعرض لهم ؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض . وقال ابن العربى : الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب الى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا . وقد قال الحكيم :

إذا بلغ الرأى المشــورة فاستعن * برأى لبيب أو مشــورة حازم[1]

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخَــوَافى قــوّة للقوادم[2]

فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك . وقد كان النبىّ صلى الله عليــه وسلم يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحــروب ؛ وذلك فى الآراء كثير . ولم يكن يشاورهم فى الأحكام ؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحــرام . فأما الصحابة بعد استئثار الله تعــالى به علينا فكانوا يتشاورون فى الأحكام و يستنبطونها من الكتاب والسنة . وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافــةُ ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وســلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبى بكر والأنصار ما ســبق بيانه[3] . وقال عمر رضى الله عنه : نرضى لدنيــانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وســلم لديننا . وتشاوروا فى أهل الردة فاستقر رأى أبى بكر على القتال . وتشاوروا فى الجَدّ وميراثه ، وفى حدّ الخمر وعدده . وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب ؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وفَدَ عليه مسلما فى المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدق المسلمين مثــل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس و إن كسر الجنــاح الآخر نهضت الرجلان والرأس و إن شُــدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان . والرأسُ كِسْرى والجنــاح الواحد قيصر والآخر فارس ؛ فَمُــر المسلمين فلينفروا الى كِسْرى ... وذكر الحديث . وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قطُّ ! إذا حَزَبَنى أمر شاورت قومى ففعلت الذى يرون ؛ فإن أصبت فهم المصيبون ، و إن أخطأت فهم المخطئون .

---

(١) البيتان لبشار بن برد . والخــوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . والقوادم : عشر ريشات فى مقدم الجناح وهى كبار الريش .   (٢) فى الأصول « نافع » .   (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢٤

الثالثة — قد مضى فى « آل عمران » ما تضمنته الشّورى من الأحكام عند قوله تعالى «وشاوِرْهُمْ فى الأمر»[١] . والمَشُورة بركة . والمَشْوَرة : الشُّورَى ، وكذلك المشورة (بضم الشين) ؛ تقول منه : شاورته فى الأمر واستشرته بمعنًى . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سمحاءَكم وأمْرُكم شُورَى بينكم فظَهْر الأرض خير لكم من بطنها و إذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها". قال حديث غريب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى ومما أعطيناهم يتصدقون . وقد تقدّم فى « البقرة »[٢] .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

فيـه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾ أى أصابهم بغى المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم فى الأرض ونصرهم على من بغى عليهم ؛ وذلك قوله فى سورة الحج « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

(١) آية ١٥٩ راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨ وما بعدها .

لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا ... (١) » الآيات كلها . وقيل : هو عام فى بَغْى كل باغ من كافر وغيره؛ أى إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه . وهذه إشارة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود . قال ابن العربى : ذكر الله الانتصار فى البغى فى معرض المدح ، وذكر العفو عن الجرم فى موضع آخر فى معرض المدح ؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا الى حالتين؛ إحداهما أن يكون الباغى معلنا بالفجور، وَقِحًا فى الجمهور ، مؤذيا للصغير والكبير ؛ فيكون الانتقام منه أفضل . وفى مثله قال إبراهيم النَّخَعِىّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق . الثانية — أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة و يسأل المغفرة ؛ فالعفو هاهنا أفضل، وفى مثله نزلت « وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (٢) » . وقوله : « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ (٣) » . وقوله : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ (٤) » .

قلت : هذا حسن ، وهكذا ذكر الكِيَا الطبرى فى أحكامه قال : قوله تعالى « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » يدل ظاهره على أن الانتصار فى هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى و إقام الصلاة؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِىّ أنهم كانوا يكرهون للؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجانى نادما مقلعا . وقد قال عقيب هذه الآية « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » . و يقتضى ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقبه بقوله « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » . وهو محمول على الغفران عن غير المُصِرّ ، فأما المصرّ على البغى والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التى قبلها . وقيل : أى إذا أصابهم البغى تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم و يدفعوه؛ قاله ابن بحر . وهو راجع الى العموم على ما ذكرنا .

---

(١) آية ٣٩ راجع جـ ١٢ ص ٦٧ (٢) آية ٢٣٧ سورة البقرة . (٣) آية ٤٥ سورة المائدة . (٤) آية ٢٢ سورة النور .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ قال العلماء : جعل الله المؤمنين صنفين ؛ صنفٌ يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم فى قوله : « وَإِذَا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وصنف ينتصرون من ظالمهـم . ثم بين حدّ الانتصار بقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدى . قال مقاتل وهشام بن حُجَير : هذا فى المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبّ أو شتم . وقاله الشافعى وأبو حنيفة وسـفيان . قال سفيان : وكان ابن شُبْرُمَة يقول : ليس بمكة مثل هشام . وتأول الشافعى فى هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه ؛ واستشهد فى ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم لهند زوج أبى سفيان : "خذى من ماله مايكفيك وولدك" فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفًى فى « البقرة »(١) . وقال ابن أبى نجيح : إنه محمول على المقابلة فى الجراح . واذا قال : أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثـله . ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب . وقال السُّدِّى : إنمـا مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتـداء بالزيادة على مقـدار ما فعل به ؛ يعنى كما كانت العرب تفعله . وسمى الجزاء سيئةً لأنه فى مقابلتها ؛ فالأول ساء هذا فى مال أو بدن ، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا ؛ وقد مضى هذا كله فى « البقرة »(١) مستوفى .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه و بين الظالم بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى إن الله يأجره على ذلك . قال مقاتل : فكان العفو من الأعمـال الصالحة . وقد مضى فى « آل عمـران »(٢) فى هذا ما فيه كفاية ، والحمـد لله . وذكر أبو نعيم الحافظ عن على بن الحسين رضى الله عنهـم قال : إذا كان يوم القيـامة نادى منادٍ أيكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس ؛ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجـنة ؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا مَن أنتم ؟ قالوا أهل الفضـل ؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حَلمنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٠٧

وإذا ظُلمنا صَبَرْنا وإذا سِيء إلينا عفونا ؛ قالوا ٱدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وذكر الحديث . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى مَن بدأ بالظلم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقيل : لا يحبّ مَن يتعدى فى الاقتصاص ويجاوز الحد ؛ قاله ابن عيسى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أى المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمد على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن ٱنتصر الظالم من المسلم ؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامسة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفى ذلك بنفسه . وهذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها — أن يكون قصاصا فى بدن يستحقه آدمى ، فلا حرج عليه إن ٱستوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام فى تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم . وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ، وهو فى الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب . القسم الثانى — أن يكون حدّ الله تعالى لا حق لآدمى فيه كحدّ الزنى وقطع السرقة ؛ فان لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نُظر ، فان كان قطعا فى سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه فى ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه . القسم الثالث — أن يكون حقا فى مال ؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به ، وإن كان غير عالم نُظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له إلا الاستسرار بأخذه . وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيّنة تشهد له ففى جواز استسراره بأخذه مذهبان : أحدهما — جوازه ؛ وهو قول مالك والشافعى . الثانى — المنع ؛ وهو قول أبى حنيفة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أى بعدوانهم عليهم ؛ فى قول أكثر العلماء . وقال ٱبن جُريج : أى يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم .

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى فى النفوس والأموال؛ فى قول الأكثرين . وقال مقاتل : بغيهم عَمَلُهم بالمعاصى . وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام دينا . وعلى هذا الحدّ قال آبن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للشركين خاصة . وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام . وقد بيناه والحمد لله .

السابعـة — قال آبن العربى : هذه الاية فى مقابلة الآية المتقدّمة فى « براءة » وهى قوله « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ »[1]؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها[2] على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنـة — وآختلف علماؤنا فى السلطان يضع على أهـل بلد مالاً معلوما يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم ؛ هـل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم . فقيل لا ؛ وهو قول سحنون من علمائنا . وقيل : نعم، له ذلك إن قدر على الخلاص ؛ و إليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ثم المالكى. قال : ويدل عليـه قول مالك فى الساعى يأخذ من غنم أحـد الخلطاء شاة وليس فى جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشىء . قال : ولست آخذ بما روى عن سحنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه فى ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » .

التاسـعة — وآختلف العلمـاء فى التحليل ؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يحـلل أحدا من عِرض ولا مال . وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يحللان من العِرض والمـال . ورأى مالك التحليل من المـال دون العرض . روى آبن القاسم وآبن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب « لا أحلل أحدا » فقال : ذلك يختلف ؛ فقلت له يا أبا عبد الله ، الرجلُ يسلف الرجلَ فيهلك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحلله وهو أفضل عندى ؛ فان الله تعـالى يقول « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » . فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟

(١) آية ٩١ (٢) فى ابن العربى : « أثبتها » .

فقال : لا أرى ذلك ، هو عندى مخالف للاول ؛ يقول الله تعالى « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » ويقول تعالى « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » فلا أرى أن يجعله من ظلمه فى حِلّ . قال ابن العربى : فصار فى المسئلة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلّله بحالٍ؛ قاله سعيد ابن المسيب . الثانى — يحلّله؛ قاله محمد بن سيرين . الثالث — إن كان مالا حلله وإن كان ظلما لم يحلله؛ وهو قول مالك . وجه الأول ألّا يحلل ما حرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله . ووجه الثانى أنه حقه فله أن يسقط كما يسقط دمَه وعِرْضه . ووجه الثالث الذى اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن يتحلله ، وان كان ظالما فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا [(١)] فى أفعالهم القبيحة . وفى صحيح مسلم حديثُ أبى اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أُخرج الىّ ، فقد علمتُ أين أنت ؛ فخرج ؛ فقال : ما حملك على أن آختبأت منى ؟ قال : أنا والله أحدّثك ثم لا أكذبك ، خشيتُ والله أن أحدّثك فأكذبك ، وان أَعِدك فأخلفك ، وكنتَ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنتُ والله مُعْسِراً . قال قلت : آلله ؟ قال اللهِ [(٢)]؛ قال : فأتى بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدتَ قضاءً فاقض ، وإلا فأنت فى حِلّ ... وذكر الحديث . قال ابن العربى : وهذا فى الحىّ الذى يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التَّمَحُّل [(٣)]، فكيف بالميت الذى لا محالة له ولا ذِمّة معه .

العاشرة — قال بعض العلماء : إن مَن ظُلم وأُخِذ له مال فإنما له ثواب ما آحتبس عنه الى موته ، ثم يرجع الثواب الى ورثته ، ثم كذلك الى آخرهم ؛ لأن المال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودى المالكى : هذا صحيح فى النظر ؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل مَن ظلمه ولم يترك شيئا أو ترك مالم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم الى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

---

(١) فى بعض الأصول : « ويستسرون » وفى البعض الآخر : « ويستشرون » . (٢) قال النووى . « الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام ، والثانى بلا مدّ ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضى : ورويناه بفتحهما معا ، وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر » . (٣) فى ابن العربى : « التحلل » وقد كتب على هامش نسخة من الأصل بخط الناسخ : « يقال تمحل أى احتال فهو متمحل قاله الجوهرى » .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أى صبر على الأذى و « غفر » أى ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكى أن رجلا سبّ رجلا فى مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويَعْرَق فيمسح العَرَق ، ثم قام فتلا هـذه الآية؛ فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون . وبالجملة العفو مندوب اليه ، ثم قد ينعكس الأمر فى بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا اليه كما تقدم؛ وذلك إذا آحتيج الى كفّ زيادة البغى وقطع مادّة الأذى ، وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم مايدل عليه ، وهو أن زينب أسمعت عائشة رضى الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهى ؛ فقال لعائشة : " دونكِ فانتصرى " خرجه مسلم فى صحيحه بمعناه . وقيل : « صَبَرَ » عن المعاصى وستر على المساوئ . ﴿ إنّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أى من عزائم الله التى أمر بها . وقيل من عزائم الصواب التى وفق لها . وذكر الكلبى والفراء أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه مع ثلاث آيات قبلها، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك . وهى المدنيات من هذه السورة . وقيل : هذه الآيات فى المشركين، وكان هـذا فى ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال؛ وهو قول آبن زيد، وقد تقدّم . وفى تفسير آبن عباس « وَلَمَن آنتصر بعد ظُلمه » يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم . ﴿ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر . ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ يريد بالظلم والكفر . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يريد وجيع . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إنّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى .

قوله تعالى : وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أى يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة فى القربى ، ولم يصدّقه فى البعث وأن متاع الدنيا قليل . أى من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى جهنم . وقيل رأوا العذاب عند الموت . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يطلبون أن يُرَدّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون الى ذلك .

قوله تعالى : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥)

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار لأنها عذابهم ؛ فكنّى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث ؛ لأن ذلك العذاب هو النار ، وإن شئت جهنم ، ولو راعى اللفظ لقال عليه . ثم قيل : هم المشركون جميعا يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها ؛ قاله الأكثرون . وقيل : آل فرعون خصوصا ، تُحبس أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح ؛ فهو عرضهم عليها ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : إنهم عامة المشركين ، تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم ، ويعرضون على العذاب فى قبورهم ؛ وهذا معنى قول أبى الحجاج . ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على « خاشعين » . وقوله : « مِنَ الذُّلِّ » متعلق بـ«ـينظرون» . وقيل : متعلق بـ«ـخاشعين» . والخشوع الانكسار والتواضع . ومعنى ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أى لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تاما ؛ لأنهم ناكسو الرءوس . والعرب تصف الذليل بغَضّ الطرف ، كما يستعملون فى ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة . وقال مجاهد : « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عميا ، وعين القلب طرفٌ خفىّ . وقال قتادة والسدّى والقُرَظىّ وسعيد بن جُبير : يسارقون النظر من شدّة الخوف . وقيل : المعنى ينظرون من

عين ضعيفة النظر . وقال يونس : « من » بمعنى الباء ؛ أى ينظرون بطرف خفى ، أى ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش . وقال ابن عباس : بطرف ذابل ذليل . وقيل : أى يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يقول المؤمنون فى الجنة لما عاينوا ماحل بالكفار إن الخسران فى الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم فى العذاب المخلد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا فى النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا فى الجنة فقد حيل بينه وبينهم . وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل فى الجنة من الحور العين . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى « أولئك هم الوارثون »". وقد تقدّم[1] . وفى مسند الدّارِمِىّ عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهنّ واحدة إلا ولها قُبُلٌ شهِىّ وله ذكر لا ينثنى " . قال هشام ابن خالد : " من ميراثه من أهل النار " يعنى رجالا أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون . ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أى دائم لا ينقطع . ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى أعوانا ونصراء ﴿ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من عذابه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى طريق يصل به إلى الحق فى الدنيا والجنة فى الآخرة؛ لأنه قد سدّت عليه طريق النجاة .

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨

قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ (٤٧)

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أى أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة . استجاب وأجاب بمعنى ؛ وقد تقدم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ يريد يوم القيامة ؛ أى لا يرده أحد بعد ماحكم الله به وجعله أجلا ووقتا . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ ﴾ أى من ملجأ ينجيكم من العذاب . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى من ناصر ينصركم ؛ قاله مجاهد . وقيل : النكير بمعنى المنكر ؛ كالأليم بمعنى المؤلم ؛ أى لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العـذاب ؛ حكاه ابن أبى حاتم ، وقاله الكلبى . الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التى يوقفون عليها . وقيـل : « من نكير » أى إنكار ما ينزل بكم من العـذاب ، والنكير والإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ (٤٨)

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أى عن الايمان ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى حافظا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها . وقيل : موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أى ليس لك إكراههم على الايمان . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقيل : نسخ هـذا بآية القتال . ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الكافر . ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاء وصحة . ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطر بها . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء وشدة . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى لما تقدم من النعمة فيعدد المصائب وينسى النعم .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف . وقال واثلة بن الأسقع : إن مِن يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فبدأ بالإناث . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية، ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد تَوْءَماً، غلاما وجارية ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا . قال القُتَبيّ : التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوجت إبلى إذا جمعت بين الكبار والصغار . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أى لا يولد له ؛ يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم . وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عَقْماً؛ مثل حَمِد يَحْمَد . وعَقُمت تَعْقُم، مثل عُظم يعظم . وأصله القطع ، ومنه المُلْك العقيم ، أى تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك . وريح عقيم؛ أى لا تلقح سحابا ولا شجرا . ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده . ويقال : نساء عُقْم وعُقُم؛ قال الشاعر[1] :

عُقِمَ النساء فما يَلِدْنَ شبيهه * إن النساء بمثله عُقْمُ

---

(١) فى لسان العرب : « قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومى . وقيل هو للحزين الليثى » .

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى الأنبياء خصوصا وإن عم حكمها . وَهَب لُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين ؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر . قال إسحاق : نزلت فى الأنبياء ، ثم عمّت . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ يعنى لوطا عليه السلام ، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان . ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ يعنى ابراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ يعنى يحيى بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى . ابن العربى : قال علماؤنا « يهب لمن يشاء إناثا » يعنى لوطا كان له بنات ولم يكن له ابن . « ويهب لمن يشاء الذكور » يعنى إبراهيم ، كان له بنون ولم يكن له بنت . وقوله « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » يعنى آدم ، كانت حوّاء تلد له فى كل بطن توءمين ذكرا وأنثى ، ويزوج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر ، حتى أحكم الله التحريم فى شرع نوح صلى الله عليه وسلم . وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله[1] وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ؛ وكلهم من خديجة رضى الله عنها ، وإبراهيم وهو من مارية القبطية . وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا ، إلى أن تقوم الساعة ، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة ؛ ليبقى النسل ، ويتمادى الخلق ، وينفذ الوعد ، ويحق الأمر ، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى . ففى الحديث : "إن النار لن تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه[2] ، فتقول قط قط[3] . وأما الجنة فيبقى منها فينشئ الله لها خلقا آخر" .

الثانية — قال ابن العربى : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شىء ، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شىء لا عن حاجة ؛ فانه قدّوس

---

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة : القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والطاهر) وابراهيم . راجع شرح المواهب اللدنية . (٢) قال القسطلانى : « أى يذللها تذليل من يوضع تحت الرجل ، والعرب تضع الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانها كقولها للنادم : سقط فى يده » . (٣) قوله : « قط قط » بكسر الطاء وسكونها فيهما ، ويجوز التنوين مع الكسر والمعنى : حسبى حسبى قد اكتفيت .

عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حواء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبا على الوطء كائنا عن الحمل موجودا في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سبق ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل آنثا (١)". وكذلك في الصحيح أيضا "إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله".

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال "نعم" فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلَّت (٢)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعيها وهل يكون الشبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه". قال علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهودي: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فاذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذكرا باذن الله وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا باذن الله ..." الحديث. فجعل في هذا الحديث أيضا العلو يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِي المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولا علّة واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين. والذي يتعين تأويله الذي في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقني فلان فسبقته أي غلبته؛ ومنه قوله تعالى:

---

(١) روى بالمد وتخفيف النون وبالقصر وتشديد النون. (٢) قوله: «تربت يداك». معناه: ما أصبت! وهو في الأصل بمعنى صار في يدك التراب ولا أصبت خيرا أي افتقرت، لكن لا يريدون به الدعاء على المخاطب، كما يقولون: قاتله الله؛ الى غير ذلك. وقوله «وألت»: أي صاحت لما أصابها من شدة هذا الكلام. وروى بضم الهمزة مع التشديد؛ أي طعنت بالألة وهي الحربة. قال ابن الأثير: وفيه بعد؛ لأنه لا يلائم لفظ الحديث.

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين قيل عليه : علا . و يؤيد هذا التأويل قوله فى الحديث : "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا" . وقد بنى القاضى أبو بكر بن العربى على هذه الأحاديث بناء فقال : إن للماءين أربعة أحوال : الأول أن يخرج ماء الرجل أولا ، الثانى أن يخـرج ماء المرأة أولا ، الثالث أن يخرج ماء الرجل أولا و يكون أكثر، الرابع أن يخرج ماء المرأة أولا و يكون أكثر . و يتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولا ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر جاء الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة . و إن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة . و إن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة . و إن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل . قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم .

الثالثـة – قال علماؤنا : كانت الخلقة مستمرة ذكرا وأنثى إلى أن وقع فى الجاهلية الأولى الخنثى فأُتِيَ به فرِيضَ العرب ومعمَّرها[1] عامرَ بن الظَّرِب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه؛ فلما جَنَّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأَقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجىء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حاله فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهرت لأمر قُصِـدت به فلم أدر ما أقول فيـه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لهـا : رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله فى الميراث ؟ قالت له الأَمَـة : ورِّثه من حيث يبول ؛ فعَقَلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين . وجاء الاسلام على ذلك فلم تنزل إلا فى عهـد علىّ رضى الله عنه فقضى فيها . وقد روى الفَرَضِيُّون عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يورّث ؟ قال : من حيث يبول . وروى

(١) فى ابن العربى : « ومعتمدها » . و يقال أنه عاش ثلثمائة عام .

أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال : " ورثوه من أوّل ما يبول " . وكذا روى محمد بن الحنفية عن علىّ ، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ، وحكاه المزنى عن الشافعى . وقال قوم : لا دلالة فى البول ؛ فان خرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف : يحكم بالأكثر . وأنكره أبو حنيفة وقال : أتكيله ! ولم يجعل أصحاب الشافعى للكثرة حكما . وحكى عن علىّ والحسن أنهما قالا : تعد أضلاعه ، فان المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد . وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى آية المواريث فى « النساء »(1) مجوّداً والحمد لله .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : وقد أنكر قوم من رءوس العوام وجود الخنثى ، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى . قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباوة عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة . أما قدرة الله سبحانه فانه واسع عليم ، وأما ظاهر القرآن فلا ينفى وجود الخنثى ؛ لأن الله تعالى قال : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء » . فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه . وأما قوله « يَهَبُ لمن يشاء إناثا ويَهَبُ لمن يشاء الذكور . أوْ يزوجهم ذُكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عَقِيماً » فهذا إخبار عن الغالب فى الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل ، والوجود يشهد له والعِيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبى سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ؛ فربُّك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، وبودّى اليوم لو كاشفته عن حاله .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(1) راجع ج ٥ ص ٦٥ فما بعدها .

فيــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ألّا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ونظر إليه ؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن موسى لن ينظر إليه " فنزل قوله « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وَحْيًا » ؛ ذكره النقاش والواحدى والثعلبي . ﴿ وَحْيًا ﴾ قال مجاهد : نَفْثٌ يُنْفَث فى قلبه فيكون إلهاما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القُدُس نَفَث فى رُوعى[1] إنّ نَفْسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . خذوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حُرِم " . ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ كارساله جبريل عليه السلام . وقيل : « إلا وحيا » رؤيا يراها فى منامه ؛ قاله محمد بن زهير . « أو من وراءِ حجاب » كما كلم موسى . « أو يرسل رسولا » قال زهير هو جبريل عليه السلام . ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وهذا الوحى من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقا ويرونه عيانا . وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحى على النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكرياء عليهم السلام . فأما غيرهم فكان وحيا إلهاما فى المنام . وقيل « إلا وحيا » بارسال جبريل « أومن وراء حجاب » كما كلّم موسى « أو يرسل رسولا » إلى الناس كافّة . وقرأ الزهرى وشيبة ونافع « أو يرسلُ رسولا فيوحى » برفع الفعلين . الباقون بنصبهما . فالرفع على الاستئناف ؛ أى وهو يرسل . وقيل « يرسل » بالرفع فى موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحيا أو مرسلا . ومن نصب عطفوه على محل الوحى ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى أو يرسل . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة . ويكون فى موضع الحال ؛ التقدير أو بأن يرسل رسولا . ولا يجوز أن يعطف « أو يرسل » بالنصب على « أن يكلمه » لفساد المعنى ؛ لأنه يصير : ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولا ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

(١) الروع (بالضم) : القلب والعقل . والروع (بالفتح) : الفزع .

الثانيــة — احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانث ؛ لأن المرسل قد سُمى فيها مكلّما للمرسَل إليه ، إلا أن ينوى الحالف المواجهة بالخطاب . قال ابن المنذر : واختلفوا فى الرجل يحلف ألّا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال الثّورى : الرسول ليس بكلام . وقال الشافعى : لا يبين أن يحنَث . وقال النَّخَعىّ : والحكم فى الكتاب يحنث . وقال مالك : يحنث فى الكتاب والرسول . وقال مَرّة : الرسول أسهل من الكتاب . وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة . وقال أبو ثور : لا يحنث فى الكتاب . قال ابن المنذر : لا يحنث فى الكتاب والرسول .

قلت : وهو قول مالك . قال أبو عمر : ومن حلف ألا يكلم رجلا فسلم عليه عامدا أو ساهيا ، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث فى ذلك كله عند مالك . و إن أرسل إليه رسولا أو سلم عليه فى الصلاة لم يحنث .

قلت : يحنث فى الرسول إلا أن ينوى المشافهة ؛ للآية ، وهو قول مالك وابن الماجشُون . وقد مضى فى أول « سورة مريم »(1) هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أى وكالذى أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿ رُوحًا ﴾ أى نبوة ؛ قاله ابن عباس . الحسن وقتادة : رحمة من عندنا . السُّدّى : وحْيًا . الكلبى : كتابا . الربيع : هو جبريل . الضحاك : هو القرآن . وهو قول

(1) راجع جـ ١١ ص ٨٦

مالك بن دينار . وسمّاه روحا لأن فيه حياةً من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يحمل قوله « ويسئلونك عن الروح » على القرآن أيضا « قل الروح من أمر ربى » أى يسئلونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله علىّ معجزا ؛ ذكره القُشَيْرى . وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ ﴾ أى لم تكن تعرف الطريق إلى الايمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان . قال القشيرى : وهو من مجوزات العقول ، والذى صار إليه المعظم ان الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة . وفيه تحكّم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به . قال القاضى أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن[1] قبل النبوة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شىء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى « وآتيناه الحُكْمَ صَبِيًّا[2] » قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله فى حال صباه . قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب ! فقال : ألِلّعب خُلقت ! وقيل فى قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ[3] » صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه . وقيل : صدقه وهو فى بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله « لا تَحْزَنى » على قراءة من قرأ « مَنْ

(١) كذا فى الأصل . (٢) آية ١٢ سورة مريم . (٣) آية ٣٩ سورة آل عمران .

تحتها » ، وعلى قول من قال إن المنادى عيسى ونصّ على كلامه فى مهده فقال « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا » . وقال : « ففهمناها سليمانَ وكُلًّا آتينا حُكمًا وعِلمًا »(١) وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبى يلعب فى قصة المرجومة وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه داود . وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما . وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل . وقال المفسرون فى قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ »(٢) : أى هديناه صغيرا ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل ابداء خلقه . وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبــه ويذكره بلسانه فقال : قد فعلتُ ؛ ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشـده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم فى النار ومِحنته كانت وهو آبن ست عشرة سنة . وإن آبتلاء إسحاق بالذبح وهو آبن سبع سنين . وإن آستدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو آبن خمس عشرة سنة(٣) . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبى عند ما همّ إخوته بإلقائه فى الجُبّ بقوله تعالى : « وأَوْحَيْنَا إليهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا »(٤) الآية ؛ إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء ، وقال فى حديثه صلى الله عليه وسلم : " لما نشأت بُغِّضت إلىّ الأوثان وبُغِّض إلىّ الشعر ولم أهُمّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعد " . ثم يتمكن الأمر لهم ، و تترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغــوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبــوّة فى تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسـة ولا رياضة . قال الله تعالى : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا »(٥) . قال القاضى : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نبِّئ وآصْطُفِى ممن عرف بكفر و إشراك قبل ذلك . ومستند هـذا الباب النقل . وقد آستدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

---

(١) آية ٧٩ سورة الأنبياء . (٢) آية ٥١ سورة الأنبياء . (٣) فى الأصـول : «خمسة عشر شهرا» راجع جـ ٧ ص ٢٥ . (٤) آية ١٥ سورة يوسف . (٥) آية ١٤ سورة القصص .

قال القاضي : وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما ٱفترته ، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وٱختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة ، ولم نجد فى شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين ، وبتلونه فى معبوده محتجين ، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظع وأقطع فى الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ؛ ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا « مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا » كما حكاه الله عنهم .

الثالثة — وتكلم العلماء فى نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ هل كان مُتَعَبَّدًا بدين قبل الوَحْى أم لا ؛ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرِف تابعا ، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى بالوقف فى أمره عليه السلام وتركِ قطع الحكم عليه بشيء فى ذلك ، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا ٱستبان عندها[1] فى أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبى المعالى . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعاملا به ؛ ثم ٱختلف هؤلاء فى التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها ؛ فلا يجوز أن يكون النبى على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بدّ أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هى أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه . والذى يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضى أن يكون واحدا من أمته ومخاطبًا بكل شريعته ؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعز . وأنه

(١) فى الأصول : « عندهما » .

صلى الله عليـه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولا سجـد لصنم ، ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمـر ، ولا شهد السامر[(١)] ولا حضر حِلف المطر[(٢)] ولا حلْف المطيِّبين[(٣)] ؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك . فإن قيل : فقد روى عثمان بن أبى شيبة حديثا بسـنده عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم ، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه : آذهب حتى تقوم خلفه ؛ فقال الآخر : كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد ؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًّا وقال : هذا موضوع أو شبيه بالموضوع . وقال الدّارَقُطْنى : إن عثمان وَهِم فى إسناده ، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه ؛ والمعروف عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم خلافه عند أهل العلم من قوله : " بُغِّضت إلىّ الأصنام " وقوله فى قصة بَحِيرا حين استحلف النبىّ صلى الله عليه وسلم باللّات والعُزّى إذ لَقِيَه بالشام فى سَفْرته مع عمه أبى طالب وهو صبىّ ، ورأى فيه علامات النبوة فآختبره بذلك ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئا قطُّ بُغْضَهُمَا " فقال له بَحِيرا : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؛ فقال : " سل عما بدا لك " . وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين فى وقوفهم بمزدلِفة فى الحج ، وكان يقف هو بعرفة ؛ لأنه كان

---

(١) الموضع الذى يجتمعون للسمر فيه . (٢) كذا فى الأصول . (٣) فى الأصول : «المطيب» . قال ابن الأثير : «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات ، فذلك الذى ورد النهى عنه فى الاسلام بقوله صلوات الله عليه : "لا حِلْف فى الاسلام" . وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : " وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شـدة " يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق ؛ وبذلك يجتمع الحديثان ، وهذا هو الحلف الذى يقتضيه الاسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الاسلام » .

ويلاحظ أنه قال صلى الله عليه وسلم : "شهدت غلاما مع عمومتى حلف المطيبين" . اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتَيْم فى دار آبن جدعان فى الجاهلية وجعلوا طيبا فى جَفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم ؛ فسموا المطيبين . وقال عليه السلام : "شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت الى مثله فى الاسلام لأجبت" . قال ابن الأثير : يعنى حلف الفضول . (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف . طيب . فضل) .

موقف إبراهيم عليه السلام . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم »[1] وقال : « أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهِيم »[2] وقال « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين » الآية . وهذا يقتضى أن يكون متعبِّدًا بشرع . فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين ؛ على ما تقدّم بيانه فى غير موضع وفى هذه السورة عند قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ »[3] والحمد لله .

الرابعة — إذا تقرّر هذا فآعلم أن العلماء اختلفوا فى تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » . فقال جماعة : معنى الإيمان فى هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل . ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيرى : وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبى العالية . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام . قال : وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيمانا . وهذه الأقوال الأربعة متقاربة . وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص . وقال الحسين بن الفضل : أى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ؛ أى مَن الذى يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ما كنت تدرى شيئا إذ كنت فى المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردى نحوه عن علىّ بن عيسى قال : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ . وقيل : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ؛ وهو محتمل . وفى هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوّته . والثانى — أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة .

---

(١) آية ١٣٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل . (٣) آية ١٣ من هذه السورة .

قلت : إنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدّم . وقيل : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » أى كنت من قوم أُمّيين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان ، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ؛ وهو كقوله تعالى : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ» (١) . روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعنى الإيمان . السُّدّى : القرآن . وقيل الوحى . أى جعلنا هذا الوحى ﴿ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى من نختاره للنبوة ؛ كقوله تعالى : «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ» (٢) . ووحّد الكناية لأن الفعل فى كثرة أسمائه بمنزلة الفعل فى الاسم الواحد ؛ ألا ترى أنك تقول : إقبالك وإدبارك يعجبنى ؛ فتوحّد ، وهما اثنان . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ أى تدعو وترشد ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه . وقال علىّ : إلى كتاب مستقيم . وقرأ عاصم الجَحْدَرِىّ وحَوْشب « وإنك لَتُهْدَى » غير مُسَمَّى الفاعل ؛ أى لَتُدْعَى . الباقون « لتهدى » مسمى الفاعل . وفى قراءة أُبَىّ « وإنك لتدعو » . قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد ، وإنما يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ؛ كما قال « وإنك لتهدى » أى لتدعو . وروى معمر عن قتادة فى قوله تعالى «وإنك لَتَهْدِى إلى صراط مستقيم» قال : « ولكل قوم هاد » . ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة . قال علىّ : هو القرآن . وقيل الإسلام . ورواه النوّاس بن سمعان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبدا وخلقا . ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ وعيد بالبعث والجزاء . قال سهل بن أبى الجعد : احترق مصحف فلم يبق إلا قوله «ألا إلى الله تصير الأمور» وغرق مصحف فامّحى كله إلا قوله « ألا إلى الله تصير الأمور » . والحمد لله وحده .

---

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت . (٢) آية ١٠٥ سورة البقرة .

سورة الزخرف

مكية بإجماع . وقال مقاتل : إلا قوله « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا »[١] . وهى تسع وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ تقدّم الكلام فيه[٢] . وقيل : « حم » قسم . « والكتاب المبين » قسم ثانٍ ؛ ولله أن يقسم بما شاء . والجواب « إنا جعلناه » . وقال ابن الأنبارى : من جعل جواب «والكتاب» « حم » — كما تقول نزل والله وَجَب والله — وقف على «الكتاب المبين» . ومن جعل جواب القسم «إنا جعلناه» لم يقف على «الكتاب المبين» . ومعنى «جعلناه» أى سميناه ووصفناه؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين؛ كقوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »[٣] . وقال السدى : أى أنزلناه قرآنا . مجاهد : قلناه . الزجاج وسفيان الثّورى : بيّناه . ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى أنزلناه بلسان العرب؛ لأن كل نبيّ أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وقال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربىّ . وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا . والكناية فى قوله « جعلناه » ترجع إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر فى هذه السورة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى تفهمون أحكامه ومعانيه . فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم؛ قاله ابن عيسى . وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم . ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه؛ على ما تقدّم فى غير موضع .

---

(١) آية ٤٥　　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩　　(٣) آية ١٠٣ سورة المائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٤)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أى رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ؛ قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ »(١) وقال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »(٢) . وقال ابن جريج : المراد بقوله تعالى « وإنه » أى أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . « لَعَلِيٌّ » أى رفيع عن أن ينال فيبدّل « حَكِيمٌ » أى محفوظ من نقص أو تغيير . وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق ؛ فالكتاب عنده ، ثم قرأ « وإنّه فى أُمّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » . وكسرَ الهمزةَ من « أم الكتاب » حمزة والكسائى . وضم الباقون ، وقد تقدّم(٣) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ (٥)

قوله تعالى : ﴿ افنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ يعنى : القرآن ؛ عن الضحاك وغيره . وقيل : المراد بالذكر العذاب ؛ أى أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدى ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس . وقال ابن عباس : المعنى أحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به . وعنه أيضا أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون . وقال السدى أيضا : المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم . وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم . وعنه أيضا : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكر طيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون . وقيل : الذكر التذكر ؛ فكأنه قال أنترك تذكيركم لأن كنتم قوما مسرفين ؛ فى قراءة من فتح . ومن كسر جعلها للشرط

---

(١) آية ٧٧ سورة الواقعة . (٢) آية ٢١ سورة البروج . (٣) راجع ج ٥ ص ٧٢

وما قبلها جوابا لها؛ لأنها لم تعمل فى اللفظ. ونظيره «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[١] وقيل: الجواب محذوف دل عليه ما تقدّم؛ كما تقول: أنت ظالم إن فعلت. ومعنى الكسر عنـد الزجاج الحال؛ لأن فى الكلام معنى التقرير والتوبيخ. ومعنى ﴿ صَفْحًا ﴾ إعراضا؛ يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه. وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته. والأصل فيـه صفحة العنق؛ يقال: أعرضت عنه أى وليته صفحة عنق. قال الشاعر[٢]:

صـفُوحًا فمـا تلقـاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ ملّتِ

وانتصب «صَفْحا» على المصدر لأن معنى «أفنضرب» أفنصفح. وقيل: التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين، كما يقال: جاء فلان مَشْياً. ومعنى ﴿مُسْرِفِينَ﴾ مشركين. واختار أبو عبيدة الفتح فى «أنْ» وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم وابن عامر، قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم.

قوله تعالى: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ «كم» هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»[٣] أى ما أكثر ما تركوا. ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ أى لم يكن يأتيهم نبى ﴿ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك، يعزى نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم ويسلّيه. ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أى قوما أشدّ منهم قوة. والكناية فى «منهم» ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله «أفنضرب عنكم الذكر صفحا» فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم. و«أشدّ» نصب على الحال. وقيل هو مفعول؛ أى فقد أهلكنا

(١) آية ٢٧٨ سورة البقرة. (٢) هو كثير عزة. (٣) آية ٢٥ سورة الدخان.

أقوى من هؤلاء المشركين فى أبدانهم وأتباعهم . ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ أى عقوبتهم ؛ عن قتادة . وقيل : صفة الأولين ؛ نخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم ؛ حكاه النقاش وَالمَهْدَوِىّ . والمَثَلُ : الوصفُ والخبر .

قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعنى المشركين . ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم . وقد مضى فى غير موضع[1] .

قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة . وهذا ابتداء إخبارٍ منه عن نفسه ، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذى جعل لنا الأرض . ﴿مِهادا﴾ فراشا و بساطا . وقد تقدّم[2] . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى معايش . وقيل طرقا ، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم . ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته . وقيل « لعلكم تهتدون » فى أسفاركم ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذى نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ قال ابن عباس : أى لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم ، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى

(١) راجع ج ٦ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٠٩

يكون معاشا لكم ولأنعامكم . ﴿ فَأَنْشَرْنَا ﴾ أى أحيينا . ﴿ بِهِ ﴾ أى بالمـاء . ﴿ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾ أى مقفرة من النبات . ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أى من قبوركم ؛ لأن من قدر على هذا قـدر على ذلك . وقد مضى فى «الأعراف» مجوّدا[1] . وقـرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمـزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر « يَخْرُجُون » بفتح الياء وضم الراء . الباقون على الفعل المجهول .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ ﴾ أى والله الذى خلق الأزواج . قال سعيد بن جبير : أى الأصناف كلها . وقال الحسن : الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار . وقيل : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : أراد أزواج النبات ؛ كما قال تعالى : « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[2] و « من كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم »[3] . وقيل ما يتقلّب فيه الانسان من خير وشر، و إيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم .

قلت : وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ الإبل ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ فى البر والبحر . ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ ذكّر الكناية لأنه ردّه إلى ما فى قوله « ما تركبون » ؛ قاله أبو عبيد . وقال الفرّاء : أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس، فصار الواحد فى معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند؛ فلذلك ذكّر، وجمع الظهور، أى على ظهور هذا الجنس .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠ (٢) آية ٧ سورة ق . (٣) آية ٧ سورة الشعراء .

الثانيــة — قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها؛ وهو الصحيح لقوله عليـه السلام: "بينما رجلٌ راكب بقرة إذ قالت له لَمْ أُخلق لهذا إنما خلقت للحرث" فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر"[1] . وما هما في القوم . وقد مضى هذا في أول سورة «النحل» مستوفًى والحمد لله[2].

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ يعني به الإبل خاصة بدليل ما ذكرنا، ولأن الفلك إنما تركب بطونها؛ ولكنـه ذكرهما جميعا في أول الآية وعطف آخرها على أحدهما . ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما؛ لأن المـاء غمره وستره وباطنهما ظاهرا؛ لأنه آنكشف للظاهرين وظهر للبصرين .

الرابعـــة — قوله تعـالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ركبتم عليه . وذِكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر . ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي ذلّل لنا هذا المركب . وفي قراءة عليّ بن أبي طالب «سبحان من سخر لنا هذا» . ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين؛ في قول آبن عباس والكلبي . وقال الأخفش وأبو عبيدة: «مقرنين» ضابطين . وقيل: ممـاثلين في الأيد والقوة؛ من قولهم: هـو قِرْن فلان إذا كان مثله في القوة . ويقال: فلان مُقْرِن لفلان أي ضابط له . وأقرنت كذا أي أطقته . وأقرن له أي أطاقه وقوِيَ عليه؛ كأنه صار له قِرنا . قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أي مطيقين . وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكَرِب:

لقد علم القبائل ما عُقيلٌ * لنـا في النائبات بمقرنينـا

وقال آخر:

ركبتم صَعْبَتِي أَشَرًا وحَيْفًا * ولستم للصّعاب بمقرنينـا

والمُقْرِن أيضا: الذي غلبته ضَيعته؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها، أو يكون يسقِي إبله ولا ذائد له يذودها . قال آبن السِّكِّيت: وفي أصله قولان: أحدهما — أنه مأخوذ من الإقران؛ يقال: أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته؛ كأنه جعله

---

(١) أي أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين .   (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٢

فى قرن — وهو الحبل — فأوثقه به وشدّه . والثانى — أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير؛ يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامسة — علمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ؛ وهى قوله تعالى : « وقال آركَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْرِيها ومُرْسَاها إنّ رَبّى لغفورٌ رحيمٌ » (١) فكم من راكب دابة عثرت به أو شَمَسَت أو تقحّمت (٢) أو طاح من ظهرها فهلك (٣) . وكم من راكبين فى سفينة آنكسرت بهم فغرقوا . فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور وآتصالا بأسباب من أسباب التلف أمر ألا ينسى عند آتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه . ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاحه من نفسه . والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . حكى سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : « سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كنّا له مُقْرِنين » وكان فيهم رجل على ناقة له رازم (٤) — وهى التى لا تتحرّك هزالا — فقال : أمّا أنا فإنى لهذه لمقرِن ، قال : فقمصت به فدقت عنقه . وروى أن أعرابيا ركب قعودا له وقال إنى لمقرن له فركضت به القعود (٥) حتى صرعته فآندقّت عنقه . ذكر الأول الماوردى والثانى آبن العربى . قال : وما ينبغى لعبد أن يدع قول هذا وليس بواجب ذكره باللسان ؛ فيقول متى ركب وخاصة فى السفر إذا تذكر : « سبحانَ الذى سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنين . وإنّا إلى رَبّنَا لمُنْقَلِبُونَ » اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمال، اللهم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنقلَب ، والحَوْر بعد الكَوْر ، وسوء المنظر فى الأهل والمال . يعنى بـ « الحور بعد الكور » تشتت أمر الرجل بعد آجتماعه .

وقال عمرو بن دينار : ركبت مع أبى جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة ، فركب

(١) آية ٤١ سورة هود . (٢) تقحم الفرس براكبه ألقاه على وجهه . (٣) فى الأصول : «فهلكت» . (٤) وجد على هامش نسخة من الأصل بخط ناسخه : «الرازم من الإبل : الثابت على الأرض الذى لا يقوم من الهزال . وقد رزمت الناقة ترزُم وترزِم رزوما ورُزاما قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك فهى رازم . قاله الجوهرى فى الصحاح» . (٥) هذه عبارة ابن العربى والأصول : ويلاحظ أن القعود مذكر .

على جمل صَعْب فقلت له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا آسم الله كما أمركم ثم آمتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله " . وقال علىّ بن ربيعة : شهدت علىّ بن أبى طالب ركب دابة يوما فلما وضع رجله فى الركاب قال : باسم الله ، فلما آستوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال « سبحان الذى سَخَّرَ لنا هـذا وما كنا له مُقْرِنِين . وإنا إلى ربنا لَمُنْقَلِبُونَ » ثم قال : الحمد لله والله أكبر — ثلاثا — اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ؛ ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعتُ ، وقال كما قلت ؛ ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : " العبد — أو قال — عجبا لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فآغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره " . خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد فى أحكامه . وذكر الثعلبىّ نحوه مختصرا عن علىّ رضى الله عنه ، ولفظه عنه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله فى الركاب قال : "باسم الله — فإذا استوى قال — الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين" . وروى آبن أبى نَجيح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » قال له الشيطان تَغَنَّه ؛ فإن لم يحسن قال له تمنّه ؛ ذكره النحاس . ويستعيذ بالله من مقام من يقـول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو فى بعـض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أوانى الخمـر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم[1] وهم على ظهور الدواب أو فى بطون السفن وهى تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . الزَّمَخْشرِىّ : ولقـد بلغنى أن بعض السلاطين ركب وهو يشربُ الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يَصْحُ إلا بعد ما آطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به فى هذه الآية ! ؟

(١) الطلاء : ماطبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء ؛ يريد بذلك تحسين اسمها .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا له مِن عِبادِهِ جُزءًا ﴾ أى عِدلًا ؛ عن قتادة . يعنى ما عبد من دون الله عز وجل . الزجاج والمبرد : الجزء هاهنا البنات ؛ عجّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكا أو ولدا ، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به ؛ لأن هذا من صفات النقص . قال الماوردى : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ؛ قال الشاعر :

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوما فلا عجبٌ * قد تجزئُ الحُرَّةُ المِذكار أحيانا

الزمخشرىّ : ومن بِدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وآدّعاء أن الجزء فى لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدَث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتا ، وبيتا :

* إن أجزأت حرة يوما فلا عجب *

* زُوِّجتُها من بنات الأوس مُجزِئة * (١)

وإنما قوله « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » متصل بقوله « ولئن سألتَهُم » أى ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى « مِن عِبادِهِ جُزْءًا » أن قالوا الملائكة بنات الله ؛ فجعلوهم جزءا له وبعضا ، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءا له . وقرئ « جزُؤا » بضمتين .
﴿ إِنَّ الإنسانَ ﴾ يعنى الكافر . ﴿ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ قال الحسن : يعدّ المصائب وينسى النعم .
« مُبِينٌ » مظهر الكفر .

---

(١) وتمامه كما فى اللسان مادة جزأ : * للعوسج اللدن فى أبياتها زجل *

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ الميم صلة ؛ تقديره آتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ . ﴿ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أى آختصكم وأخلصكم بالبنين ؛ يقال : أصفيته بكذا ؛ أى آثرته به . وأصفيته الودّ أخلصته له . وصافيته وتصافينا تخالصنا . عجب من إضافتهم إلى الله آختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ؛ وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه آتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟ وهذا كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى »(١) .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ أى بأنه ولدت له بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أى صار وجهه ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ قيل ببطلان مثَله الذى ضربه . وقيل : بما بُشِّر به من الأنثى ؛ دليله فى سورة النحل « و إذا بُشِّرَ أحدُهم بِالأُنثى »(٢) . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم وآربدّ وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت :

ما لِأبى حمزة(٣) لا يأتينا * يظَـلّ فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا * وإنما نأخـذ ما أعطينا

وقرئ « مسودٌّ ، ومسوادٌّ » . وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه آسم «ظل» و « مسودا » خبر « ظل » . ويجوز أن يكون فى « ظل » ضمير عائد على أحد وهو آسمها ، و « وجهه »

(١) آية ٢١ سورة النجم . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٦ . (٣) فى رواية «حمزة» بالجيم . وفى بلوغ الأرب للآلوسى : « لأبى الذلفاء » .

بدل من الضمير . و « مسودا » خبر «ظل» . ويجوز أن يكون رفع « وجهه » بالابتداء، ويرفع « مسودا » على أنه خبره، وفى «ظل» اسمها والجملة خبرها . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى حزين؛ قاله قتادة . وقيل مكروب ؛ قاله عكرمة . وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبي حاتم ؛ وذلك لفساد مَثَله و بطلان حجته . ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه . ومن اسودّ وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى ، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه ؛ فكيف إلى الله عز وجل ! وقد مضى فى « النحل » فى معنى هذه الآية ما فيه كفاية[1] .

قوله تعالى : أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ ﴾ أى يُرَبَّى ويَشِبّ . والنُّشوء : التربية؛ يقال : نشأت فى بنى فلان نَشْئًا ونشوءا إذا شَبَبْت فيهم . ونُشِّئ وأنشئ بمعنًى . وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وَثّاب وحفص وحمزة والكسائى وخَلَف « يُنَشَّأ » بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ أى يربى ويكبر فى الحلية . واختاره أبو عبيد؛ لأن الإسناد فيها أعلى . وقرأ الباقون « يَنْشأ » بفتح الياء و إسكان النون ، واختاره أبو حاتم ؛ أى يرسخ وينبت ؛ وأصله من نشأ أى ارتفع ؛ قاله الهَرَوىّ . فـ«يُنَشَّأ» متعد، و «ينشأ» لازم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ أى فى الزينة . قال ابن عباس وغيره : هنّ الجوارى زِيّهن غير زىّ الرجال . قال مجاهد : رُخّص للنساء فى الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية . قال الكِيا : فيه دلالة على إباحة الحُلِيّ للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٦

قلت — روى عن أبى هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنيّة ، إياك والتحلّى بالذهب ! فإنى أخاف عليك اللهب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أى فى المجادلة والإدلاء بالحجة . قال قتادة : ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها . وفى مصحف عبد الله « وهو فى الكلام غير مبين » . ومعنى الآية : أيضاف إلى الله من هذا وصفه ! أى لا يجوز ذلك . وقيل : المنشّأ فى الحلية أصنامهم التى صاغوها من ذهب وفضة وحلّوها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . ويكون معنى « وهو فى الخصام غير مبين » على هذا القول : أى ساكت عن الجواب . و« مَن » فى محل نصب ؛ أى اتخذوا لله من ينشأ فى الْحِلْية . ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر؛ قاله الفرّاء . وتقديره : أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة . وإن شئت قلت خفض ردا إلى أوّل الكلام وهو قوله « بما ضَرَب » ، أو على « ما » فى قوله « مما يخلق بنات » . وكون البدل فى هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ﴾ قرأ الكوفيون « عباد » بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم فى قولهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا ببناته . وعن ابن عباس أنه قرأ « عُبّاد الرحمن » ، فقال سعيد بن جبير : إن فى مصحفى « عبد الرحمن » فقال : آمحها واكتبها « عباد الرحمن » . وتصديق هذه القراءة قولُه تعالى : « بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »(١) . وقوله تعالى : « أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِنْ دُونِى أَوْلِيَاءَ »(٢) . وقولُه تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »(٣) . وقرأ الباقون « عند الرحمن » بنون ساكنة ، واختاره أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قولُه تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »(٤) وقوله « وَلَهُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ »(٥) . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠٢ سورة الكهف . (٣) آية ١٩٤ سورة الأعراف .
(٤) آخر سورة الأعراف . (٥) آية ١٩ سورة الأنبياء .

فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله . وذِكر العباد مدح لهم ؛ أى كيف عبدوا من هو فى نهاية العبادة ، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل . والجعل هنا بمعنى القول والحُكْم ؛ تقول : جعلت زيدا أعلم الناس ؛ أى حكمت له بذلك . ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث . وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألهم وقال : "فما يدريكم أنهم إناث" ؟ فقالوا : سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فى أنهم إناث ، فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أى يسئلون عنها فى الآخرة . وقرأ نافع « أَوُشْهِدوا »[1] بهمزة آستفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة ، ولا يمدّ سوى ماروى المسيّبي عنه أنه يمدّ . وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقّق الهمزتين . والباقون « أشهِدوا » بهمزة واحدة للاستفهام . وروى عن الزهرى « أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ » على الخبر ، « ستكتب » قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول « شهادتهم » رفعا . وقرأ السُّلمى وآبن السَّمَيْقَع وهُبيرة عن حفص « سنكتب » بنون ، « شهادتهم » نصبا بتسمية الفاعل . وعن أبى رجاء « ستكتب شهاداتهم » بالجمع .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ يعنى قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرحمن على زعمكم ماعبدنا هذه الملائكة . وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل . وكل شىء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها ؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع . ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ماحصل منهم . وقد مضى هذا المعنى فى الأنعام عند قوله « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا »[2] وفى يس : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ »[3] . وقوله ﴿ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مردود إلى

(١) رسمناها هكذا تصويرا للنطق . (٢) راجع ج ٧ ص ١٢٨ (٣) راجع ج ١٥ ص ٣٧

قوله « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا » أى ماهم بقولهم : الملائكة بنات الله ؛ من علم ؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي . وقال مجاهد وابن جريج : يعنى الأوثان ؛ أى مالهم بعبادة الأوثان من علم . « مِن » صلة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون ويكذبون ؛ فلا عذر لهم فى عبادة غير الله عز وجل . وكان فى ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضى ذلك منا ، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة .

قوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

هذا معادل لقوله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله ؛ أى من قبل القرآن بما ادعوه ؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه .

قوله تعالى : بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أى على طريقة ومذهب ؛ قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة « على إِمَّةٍ » بكسر الألف . والأمّة الطريقة . وقال الجوهرى : والإمة (بالكسر) : النعمة . والإمّة أيضا لغة فى الأُمّة ، وهى الطريقة والدّين ؛ عن أبى عبيدة . قال عَدِىّ بن زيد فى النعمة :

ثم بعد الفَلَاح والمُلْكِ والأمّة * وارتْهُم هناك القبور

عن غير الجوهرى . وقال قتادة وعطية : « على أمة » على دِين ؛ ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

كنا على أمة آبائنا * ويقتدى الآخر بالأوّل

قال الجوهرى : والأمّة الطريقة والدِّين ؛ يقال : فلان لا أمة له ؛ أى لا دين له ولا نِحْلة .
قال الشاعر :

* وهل يستوى ذو أمّة وكَفُورُ *

وقال مجاهد وقطرب : على دين على ملة . وفى بعض المصاحف « قالوا إنا وجدنا آباءنا على مِلة » وهذه الأقوال متقاربة . وحكى عن الفرّاء على ملة على قِبْلة . الأخفش : على استقامة ؛ وأنشد قول النابغة :

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك ريبةً * وهل يأْثَمَنْ ذو أُمّة وهو طائع

الثانيـة — ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أى نهتدى بهم . وفى الآية الأخرى « مقتدون » أى نقتدى بهم ؛ والمعنى واحد . قال قتادة : مقتدون متبعون . وفى هذا دليل على إبطال التقليد ؛ لذمّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة » مستوفى[1] . وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن المغيرة وأبى سفيان وأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة من قريش ؛ أى وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلهم أيضا . يُعَزِّى نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ[2] » . والمترَف : المنعَّم ؛ والمراد هنا الملوك والجبابرة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ أى قل يا محمد لقومك : أو ليس قد جئتكم من عند الله بأهدى ؛ يريد بأرشد . ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعنى بكل ما أرسل به الرسل . فالخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه . وقرئ « قل وقال وجئتكم وجئناكم » يعنى أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى . وقد مضى فى « البقرة » القول فى التقليد وذمه فلا معنى لإعادته[1] .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١١ فما بعدها ، طبعة ثانية .   (٢) آية ٤٣ سورة فصلت .

قوله تعالى : فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم﴾ بالقحط والقتل والسبى ﴿فانظُرْ كيف كانَ عاقبةُ المُكَذِّبِينَ﴾ آخر أمر من كذب الرسل . [وقراءة العامة « قل أولو جئتكم » . وقرأ ابن عامر وحفص «قال أوَ لَوْ» على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة . وقرأ أبو جعفر «قل أو لو جئنا كم» بنون وألف ؛ على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل] (١) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أى ذكّرهم إذ قال . ﴿إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت ؛ لا يقال : البراءان والبراءون ؛ لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء . قال الجوهرى : وتبرّأت من كذا ، وأنا منه بَراء ، وخَلاء منه ، لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر فى الأصل ؛ مثل : سَمِع سَماعا . فاذا قلت : أنا برىء منه وخَلِيّ ثنّيتَ وجمعت وأنّثت ، وقلت فى الجمع : نحن منه بُرآء مثل فقيه وفقهاء ، و بِراء أيضا مثل كريم وكِرام ، وأبراء مثل شريف وأشراف ، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء ، و بريئون . وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات و برايا . ورجل برىء و بُراء مثل عجيب وعجاب . والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر ، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس . ﴿ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استثناء متصل ، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم . قال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا ، مع عبادة الأوثان . ويجوز أن يكون منقطعا ؛ أى لكن الذى فطرنى فهو يهدين . قال ذلك ثقةً بالله وتنبيها لقومه إن الهداية من ربه .

قوله تعالى : وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) ما بين المربعين مقحم من الآية السابقة .

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ الضمير فى « جعلها » عائد على قوله « إلا الذى فطرنى » . وضمير الفاعل فى «جعلها» لله عز وجل؛ أى وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقيــة فى عقبه، وهم ولده و ولد ولده ؛ أى إنهـم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضا فى ذلك . والعقب من يأتى بعده . وقال السدى : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : قوله « فى عقبه » أى فى خلفه . وفى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية فى عقبه . أى قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله . قال مجاهـد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله . قال قتـادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله . عكرمة : الإسلام؛ لقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »(١) . القرظى : وجعل وصية إبراهيم التى وصى بها بنيه وهو قوله «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ»(٢) — الآية المذكورة فى البقرة — كلمةً باقيــة فى ذريته وبنيــه . وقال ابن زيد : الكلمة قوله « أسلمت لرب العـالمين » وقـرأ « هو سماكم المسلمين من قبل » . وقيل : الكلمة النبوة . قال ابن العربى : ولم تزل النبوة باقية فى ذرية إبراهيم . والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانيــة — قال ابن العـربى : إنمـا كانت لإبراهيم فى الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين ؛ إحداهما فى قوله « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قال لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ »(٣) فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد . ثانيهما قوله « وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ »(٤) . وقيل : بل الأولى قوله « وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ »(٥) فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه فى سام أو نوح .

الثالثــة — قال ابن العربى : جرى ذكر العقب ها هنا موصولا فى المعنى ، وذلك مما يدخل فى الأحكام وترتب عليه عقـود العُمْرَى(٦) والتحبيس . قال النبي صـلى الله عليه وسلم :

---

(١) آخر سورة الحج .	(٢) آية ١٣٢	(٣) آية ١٢٤ سورة البقرة .	(٤) آية ٣٥ سورة إبراهيم .	(٥) آية ٨٤ سورة الشعراء .	(٦) العمرى (كحبـلى) : تمليك الشيء مدة العمر .

" أَيُّمَا رَجُلٍ أُعْمِرَ عُمْرَى له ولعقبه فإنها للذى أُعطِيَها لا ترجع إلى الذى أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث ". وهى تَرِد على أحد عشر لفظا :

اللفظ الأول — الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وامرأته فى الإناث والذكور. وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعا؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا فى الحبس بهذا اللفظ؛ قاله مالك فى المجموعة وغيرها.

قلت: هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدّمين، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللّٰهُ فِى أَوْلَادِكُمْ » (١). وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون فى الأحباس؛ يقول المحبِّس: حَبست على ولدى أو على عقِبي. وهذا اختيار أبى عمر بن عبد البر وغيره؛ واحتجوا بقول الله جل وعز: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ » (٢). قالوا: فلما حرّم الله البنات فحرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل فى حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه. وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام » (٣) مستوفًى.

اللفظ الثانى — البنون؛ فإن قال: هذا حبس على ابنى؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد. ولو قال ولدى، لتعدّى وتعدّد فى كل من ولد. وإن قال على بنىّ، دخل فيه الذكور والإناث. قال مالك: من تصدّق على بنيه وبنى بنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن فى ذلك. روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن فى ذلك مع بنات صلبه. والذى عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون فى البنين. فإن قيل فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحسن ابن ابنته: " إن ابنى هذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ". قلنا: هذا مجاز، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل فى ولد بنته ليس بابنى؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه؛

(١) آية ١١ سورة النساء. (٢) آية ٢٣ سورة النساء. (٣) راجع ج ٧ ص ٣١

لأن الحقائق لا تنفى عن منتسباتها (١) . ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيـه دون أمه ؛ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس : إنه هاشمى وليس بهلالى وإن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ولد على الحقيقة فى اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهـل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعـالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ » . وقال تعالى « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ — الى قوله — مِنَ الصَّالِحِينَ » (٢) فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدم بيانه هناك . فان قيل فقد قال الشاعر :

بنونا بنـو أبنائنا ، وبناتنا * بنوهن أبنـاء الرجال الأباعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه فى الموارثة والنسب ، و إن ولد بناته ليس لهم حكم بناته فى ذلك ؛ اذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع آجتماعهم فى التسميه ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه آبن ؛ وقد يقول الرجل فى ولده ليس هو بآبنى إذ لا يطيعنى ولا يرى لى حقا ، ولا يريد بذلك نفى اسم الولد عنه و إنما يريد أن ينفى عنه حكمه . ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ، وتأول على قائله ما لا يصح ؛ اذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن فى اللسان العربى آبنا ، ولا يسمى ولد الابنة آبنا ؛ من أجل أن معنى الولادة التى اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى ، لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة ، و ولد الابن انما هو ولده بماله مما كان سببا للولادة . ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده فى اللسان ، وانما أخرجهم منه قياسا على الموارثة . وقد مضى هذا فى « الأنعام » (٢) والحمد لله .

اللفظ الثالث — الذرية ؛ وهى مأخوذة من ذرأ الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ — الى أن قال — وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى » . و إنمـا كان من ذريته من قبـل أمه . وقد مضى فى « البقرة » (٣) اشتقاق الذرية وفى « الأنعام » الكلام على « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الآية ؛ فلا معنى للاعادة .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « مشبهاتها » . وفى ابن العربى « مسمياتها » .
(٢) آية ٨٤ سورة الأنعام . راجع جـ ٧ ص ٣١ .   (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

اللفظ الرابع — العقب؛ وهو فى اللغة عبارة عن شىء بعـد شىء كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال : أعقب الله بخير؛ أى جاء بعد الشدّة بالرخاء . وأعقب الشيبُ السواد . وعَقَب يَعقُب عقو با وعَقْبًا اذا جاء شيئا بعد شىء؛ ولهذا قيل لولد الرجل : عَقِبه . والمِعْقاب من النساء : التى تلد ذ كرا بعـد أنثى، هكذا أبدا . وعقب الرجل : ولده وولد ولده الباقون بعده . والعاقبة الولد؛ قال يعقوب : فى القرآن «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ» . وقيل : بل الورثة كلهم عَقِب . والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا . وقال ابن زيد : ها هنا هم الذرية . وقال ابن شهاب : هم الولد و ولد الولد . وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدى . وفى الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القـدم وهى مؤنّثـة . وعقب الرجل أيضا ولده و ولد ولده . وفيـه لغتان : عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهى أيضا مؤنثة، عن الأخفش . وعَقَب فـلان مكان أبيه عاقبة أى خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى « ليس لِوَقْعَتِهَا كاذبة »[1] . ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعنى . واختلف فى الذرّية والنسل فقيل إنهما بمـنزلة الولد والعقب؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك . وقيـل : إنهم يدخلون فيهما . وقد مضى الكلام فى الذرية هنا وفى « الأنعام »[2] .

اللفظ الخامس . نسلى ؛ وهو عند علمائنا كقوله ولدى و ولد ولدى؛ فانه يدخل فيـه ولد البنات . ويجب أن يدخلوا؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجهٍ، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عَقِبى ما تناسلوا . وقال بعض علمائنا : إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيـه ولد البنات؛ إلا أن يقول المحبس نسلى ونسل نسلى، كما اذا قال عقبى وعقب عقبى . وأما اذا قال ولدى أو عقبى مفردا فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس — الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع . قال ابن القاسم : هما سواء، وهم العَصَبة والإخوة والبنات والعمات، ولا يدخل فيه الخالات . وأصل أهـل الاجتماعُ ،

---

(١) آية ٢ سورة الواقعة .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣١ .

يقال : مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومن دخل فى القُعْدَد[1] من النساء، والعصبة مشتقة منه وهى أخص به . وفى حديث الإفك : يا رسول الله ، أَهْلُكَ ! ولا نعلم إلا خيرا ؛ يعنى عائشة . ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها وينحل بالطلاق . وقد قال مالك : آل محمد كلُّ تقى ؛ وليس من هذا الباب . وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة . وقد قال أبو إسحاق التونسى : يدخل فى الأهل كل من كان من جهة الأبوين؛ فوفّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال . وهذه المعانى إنما تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق ؛ فهذان لفظان .

اللفظ الثامن — قرابة ؛ فيه أربعة أقوال : الأول — قال مالك فى كتاب محمد وابن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالات . الثانى — يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه؛ قاله علىّ بن زياد . الثالث — قال أشهب : يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء . الرابع — قال ابن كنانة : يدخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت . وقد قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى[2] » قال : إلا أن تصلوا قرابة ما بينى وبينكم . وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبىّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ فهذا يضبطه والله أعلم .

اللفظ التاسع — العشيرة؛ ويضبطه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لما أنزل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ[3] » دعا النبى صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم — كما تقدّم ذكره — وهم العشيرة الأقربون ؛ وسواهم عشيرة فى الإطلاق . واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد، كما تقدّم من قول علمائنا .

---

(١) فى الأصول : « ومن دخل فى العقد » . وفى ابن العربى : « ومن دخل فى العقدة » وقد أثبتناه كما ترى استئناسا بما فى شرح الباجى على الموطأ؛ وعبارته : « ... ولا يدخل فى ذلك الخالات . ومعنى ذلك عندى العصبة أو من كان فى قعددهن من النساء » . والقعدد (بضم أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه وفتحه) : القربى .

(٢) آية ٢٣ سورة الشورى . (٣) آية ٢١٤ سورة الشعراء . راجع جـ ١٣ ص ١٤٣

اللفظ العاشر — القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء . والقوم يشمل الرجال والنساء، و إن كان الشاعر قد قال :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقـوم آل حِصْـن أم نسـاء

ولكنـه أراد أن الرجل إذا دعا قومـه للنصرة عنى الرجال ، و إذا دعاهم للحُرْمـة دخل فيهم الرجال والنساء ؛ فتعمّمه الصفة وتخصّصه القرينة .

اللفظ الحادى عشر — الموالى ؛ قال مالك : يدخل فيـه موالى أبيه وابنه مع مواليه . وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه . قال ابن العربى : والذى يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهـذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسـنة المبيّنة له ؛ والتفريع والتميم فى كتاب المسائل، والله أعلم .

قوله تعالى : بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ وقـرئ « بل متعنـا » . ﴿ هؤُلَاءِ وَآبَاءَهُـمْ ﴾ أى فى الدنيـا بالإمهال . ﴿ حَتَّى جَاءَهُـمُ الْحَقُّ ﴾ أى محمد صـلى الله عليـه وسلم بالتوحيـد والإسلام الذى هو أصـل دين إبراهيم . وهو الكلمة التى بقّاها الله فى عقبـه . ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أى يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة . ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا هَـذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أى هلّا نزل ﴿ هَذَا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ ﴾

وقـرئ « على رَجْل » بسكون الجيم . ﴿ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى من إحدى القريتين ؛ كقوله تعالى : « يَخْـرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أى من أحدهما . أو على أحد رجلين من القريتين . القريتان : مكة والطائف . والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبى جهل . والذى من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى ؛ قاله قتـادة . وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ؛ وهو قول مجاهد . وعن ابن عباس : أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفى . وقال السدى : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة — وكان يسمى ريحانة قريش — كان يقول : لو كان مايقوله محمد حقا لنزل علىّ أو على أبى مسعود ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعنى النبوة فيضعونها حيث شاءوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهـم فكيف يفوّض أمر النبوة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القـوة قليل الحيلة عَيِىّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شـديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتَّرٌ عليه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن فى رواية عنه « معايشهم » . وقيل : أى نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما علىّ وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما ؛ فأى فضل وقدر لهما . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فاضلنا بينهم ؛ فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس ؛ قاله مقاتل . وقيل : بالحرية والرق ؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغـنى والفقر ؛ فبعضهم غنى وبعضهم فقـير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قال السدى وابن زيد : خَوَلًا وخدّاما ، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض . وقال قتادة والضحاك : يعنى ليملك بعضهم بعضا . وقيل : هو من السخرِية التى بمعنى الاستهزاء ؛ أى ليستهزئ الغنى بالفقير . قال الأخفش : سَخِرت به وسَخِرت منه ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وبه ؛ كلٌّ يقال ، والاسم السُّخرِية (بالضم) . والسُّخْرِىّ والسِّخْرِى (بالضم والكسر) . وكل الناس ضمُّوا « سخرِيا » إلا ابن مُحَيْصن ومجاهد فإنهما قرآ « سِخرِيا » . ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ

خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » أى أفضل مما يجمعون من الدنيا . ثم قيل : الرحمة النبوة ، وقيل الجنة .
وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة النوافل . وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم
عليه من أعمالهم .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

فيـه خمس مسائل :

الأولى ــ قال العلماء : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها ، وأنها عنده من الهوان بحيث
كان يجعل بيوت الكفرة وَدَرَجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب ؛ فيحمل ذلك
على الكفر . قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم
الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ماوصفناه ؛ لهوان الدنيا عنـد الله عز وجل . وعلى هـذا أكثر
المفسرين آبن عباس والسدى وغيرهم . وقال آبن زيد : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً »
فى طلب الدنيا وآختيارها على الآخرة « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » .
وقال الكسائى : المعنى لولا أن يكون فى الكفار غنىٌّ وفقير وفى المسلمين مثل ذلك لأعطينا
الكفار من الدنيا هذا لهوانها .

الثانيـــة ــ قرأ آبن كثير وأبو عمرو « سَقْفًا » بفتح السين وإسكان القاف على الواحد
ومعناه الجمع ؛ آعتبارا بقوله تعالى « فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » . وقرأ الباقون بضم السين
والقاف على الجمـع ؛ مثل رَهْن ورُهُن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما . وقيـل : هو جمع
سقيف ؛ مثل كَثيب وكُثب ، ورَغيف ورُغُف ؛ قاله الفراء . وقيل : هو جمع سُقُوف ؛ فيصير
جَمْعَ الجمع : سَقْف وسُقُوف ، نحو فَلْس وفُلُوس . ثم جعلوا فُعُولا كأنه آسم واحد فجمعوه على
فُعُل . وروى عن مجاهد « سَقْفًا » بإسكان القاف . وقيل : اللام فى « لبيوتهم » بمعنى على ؛
أى على بيوتهم . وقيل : بدل ؛ كما تقول فعلت هذا لزيد لكرامته ؛ قال الله تعالى « وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » كذلك قال هنا « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ » .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ يعنى الدَّرَج ؛ قاله ابن عباس وهو قول الجمهور . واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلَّم ؛ ومنه ليلة المعراج . والجمع معارج ومعاريج ؛ مثل مفاتح ومفاتيح ؛ لغتان . « ومعاريج » قرأ أبو رجاء العُطَارِدِى وطلحة بن مُصَرِّف ؛ وهى المراقى والسلاليم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج ؛ مثل مِرقاة ومَرقاة . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أى على المعارج يرتقون و يصعدون ؛ يقال : ظهرت على البيت أى علوت سطحه . وهذا لأن من علا شيئا وارتفع عليه ظهر للناظرين . و يقال : ظهرت على الشىء أى علمته . وظهرت على العدوّ أى غلبته . وأنشد نابغة بنى جَعْدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

عَلَوْنا السماء عِزّةً ومهابةً * وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا (١)

أى مصعدا ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " إلى أين " ؟ قال إلى الجنة ؛ قال " أجل إن شاء الله " . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟ !

الرابعة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لاحَقَّ فيه لرب العُلْو ؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها . وهذا مذهب مالك رحمه الله . قال ابن العربى : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف و باب ؛ فمن له البيت فله أركانه . ولا خلاف أن العلو له الى السماء . واختلفوا فى السفل ؛ فمنهم من قال هو له ، ومنهم من قال ليس له فى باطن الأرض شىء . وفى مذهبنا القولان . وقد بيّن حديث الاسرائيلى الصحيح فيما تقدّم : أن رجلا باع من رجل دارا فبناها فوجد فيها جَرّة من ذهب ، فجاء بها إلى البائع فقال : إنما اشتريت الدار دون الجَرّة ، وقال البائع : إنما بعت الدار بما فيها ؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يزوّج أحدهما ولده من بنت

(١) رواية البيت كما فى كتاب الأغانى ج ٥ ص ٨ طبع دار الكتب المصرية : * بلغنا السماء مجدنا وجدودنا *
وروايته كما فى جمهرة أشعار العرب : * بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا *
وروايته كما فى اللسان مادة «ظهر» : * بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا *

الآخر و يكون المـال لهما . والصحيح أن العِلْو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع ؛ فاذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينتفع به و باقيه للمبتاع منه .

الخامســـة — من أحكام العُلْو والسُّفل . إذا كان العلو والســفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه ؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبنى علوه فليس لصاحب الســفل أن يهدم إلا من ضرورة ، و يكون هدمه له أرفق لصاحب العلو ؛ لئلّا ينهدم بانهدامه العلو، وليس لرب العلو أن يبنى على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذى لا يضر بصاحب السفل . ولو انكسرت خشــبة من سقف العلو لأدخل مكانهـا خشبة ما لم تكن أثقل منهـا و يخاف ضررها على صاحب السفل. قال أشهب : و باب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبنى الســفل ؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبنى . و روى ابن القاسم عن مالك فى الســفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل ، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله ؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثانى على صاحب الأوسط . وقد قيل : إن تعليق العلو الثانى على رب العلو حتى يبنى الأسفل. وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ صـلى الله عليه وســلم قال : " مثـل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قوم اسْتَهَمُوا على ســفينة فأصاب بعضهم أعلاها و بعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا اســتقَوْا من المـاء مرُّوا على مَن فوقهــم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا و إن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوْا جميعا" — أصلٌ فى هذا الباب . وهو حجة لمـالك وأشهب . وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به ، وأنه إن أحدث عليـه ضررا لزمه إصـلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر ؛ لقوله عليه السلام : " فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوْا جميعا " ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظـالم أو من هو ممنوع من إحداث

ما لا يجوز له فى السنة . وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وقد مضى فى « الأنفال »(١) . وفيه دليل على جواز القرعة وآستعمالها ، وقد مضى فى « آل عمران »(٢) فتأمل كُلًّا فى موضعه تجده مبيّناً ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أى و لجعلنا لبيوتهم . وقيل : « لبيوتهم » بدل اشتمال من قوله « لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ » . « أَبْوَابًا » أى من فضة . ﴿ وَسُرُرًا ﴾ كذلك ، وهو جمع السرير . وقيل : جمع الأسِرّة ، والأسِرّة جمع السرير ، فيكون جمع الجمع . ﴿ يَتَّكِئُونَ عَلَيْهَا ﴾ الاتكاء والتّوكّؤ : التحامل على الشيء ، ومنه « أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا » . ورجل تُكَأَة ، مثال هُمَزَة ، كثير الاتكاء . والتُّكَأَة أيضا : ما يُتّكأ عليه . وآتكأ على الشيء فهو متّكئ ، والموضع متّكأ . وطعنه حتى أتكأه (على أفْعَلَه) أى ألقاه على هيئة المُتّكئ . وتوكّأت على العصا . وأصل التاء فى جميع ذلك واو ، ففُعل به ما فُعل بآتّزن وآتّعد . ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ الزخرف هنا الذهب ، عن آبن عباس وغيره . نظيره : « أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ »(٣) وقد تقدّم . وقال آبن زيد : هو ما يتخذه الناس فى منازلهم من الأمتعة والأثاث . وقال الحسن : النقوش ، وأصله الزينة . يقال : زخرفت الدار ، أى زينتها . وتزخرف فلان ، أى تزين . وانتصب « زخرفا » على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا . وقيل : بنزع الخافض ، والمعنى فجعلنا لهم سُقُفًا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب ، فلما حذف « من » قال « و زخرفا » فنصب . ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن آبن عامر « و إنْ كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا » بالتشديد . الباقون بالتخفيف ، وقد ذُكر هذا . وروى عن أبى رجاء كسر اللام من « لِمَا » ؛ فـ « ما » عنده بمنزلة الذى ، والعائد عليها محذوف ، والتقدير : و إن كل ذلك للذى

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ فما بعدها . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦ فما بعدها . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

هو متاع الحياة الدنيا ، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه فى قراءة من قرأ « مَثَلًا ما بَعُوضَةٌ فما[1] فوقها» و « تَمَامًا على الذِى أَحْسَنُ[2] » . أبو الفتح : ينبغى أن يكون « كُلٌّ » على هذه القراءة منصوبة ؛ لأن « إن » مخففة من الثقيلة، وهى إذا خففت و بطل عملها لزمتها اللام فى آخر الكلام للفرق بينها و بين « إن » النافية التى بمعنى ما؛ نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى الجارة . ﴿ وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يريد الجنة لمن اتقى وخاف . وقال كعب : إنى لأجد فى بعض كتب الله المنزلة : لولا أن يَحْزَن عبدى المؤمن لكلّلت رأس عبدى الكافر بالإكليل، ولا يتصدّع ولا ينبِض منه عرق بوجع . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر". وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" . وفى الباب عن أبى هريرة، وقال: حديث حسن غريب . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن * إذًا لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً * وقد شَبِعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

تمتّع من الأيام إن كنتَ حازما * فإنك فيها بين ناهٍ وآمِر

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه * فما فاته منها فليس بضائر

فلا تزن الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن زِفّ من جناح لطائر

فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن * ولا رضى الدنيا عقابا لكافر

قوله تعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٢

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا . فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقرأ ابن عباس وعكرمة «وَمَنْ يَعْشَ» بفتح الشين، ومعناه يعمى؛ يقال منه عَشِيَ يَعْشَى عشًا إذا عَمِيَ . ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر؛ ومنه قول الأعشى :

رأتْ رجــلًا غائب الوافِــدَيْـ * ـنِ مختلفَ الخلق أعْشَى ضــريرا (١)

وقــوله :

أأن رأت رجــلًا أعْشَى أضرَّ به * رَيْبُ المنــونِ ودَهْرٌ مُفْنِــدٌ خَبِــلُ

الباقون بالضم؛ من عشا يعشو إذا لحقـه ما يلحق الأعشى . وقال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف؛ وأنشد :

متى تأتِه تَعْشُــو إلى ضَــوْءِ ناره * تجِــد خيرَ نارٍ عنــدها خيرُ مُوقِــدِ (٢)

وقال آخـــر :

لنعـم الفــتى يعشو إلى ضــوء ناره * إذا الريح هبّت والمــكان جــديب

الجَوْهَرِىّ : والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار . والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان . وأعشاه الله فعشِى (بالكسر) يَعْشَى عَشًى ، وهما يَعْشَيان ، ولم يقولوا يَعْشوان ؛ لأن الواو لمـا صارت فى الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُركت فى التثنيــة على حالهـا . وتعاشى إذا أرَى من نفسه أنه أعشى . والنسبة إلى أَعْشَى أَعْشَوِىّ . وإلى العَشِيَّة عَشَوِىّ . والعشواء : الناقــة التى لا تبصر أمامها فهى تَخْبِط بيديها كلّ شىء . وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة . وفلان خابطٌ خبطَ عشواء .

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا » (٣) أى نواصل لكم الذكر ؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نسبب له شيطانا جزاء له على كفره ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيل فى الدنيا ، يمنعه من الحلال ، ويبعثه على الحرام ، و ينهاه عن الطاعة ، و يأمره بالمعصية ؛ وهو معنى قول ابن عباس .

---

(١) فى اللسان مادة «وفد» : « والوافدان اللذان فى شعر الأعشى هما الناشزان من الخدّين عند المضغ ؛ فاذا هرم الانسان غاب وافداه » . (٢) البيت للحطيئة . (٣) آية ٥

وقيل فى الآخرة إذا قام من قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْرِى . وفى الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشْفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يُشْفع بملَك حتى يقضى الله بين خلقه ؛ ذكره المهدوى . وقال القشيرى : والصحيح فهو له قرين فى الدنيا والآخرة . وقال أبو الهيثم والأزهرى : عَشَوْت إلى كذا أى قصدته . وعشوت عن كذا أى أعرضت عنه، فتفرق بين «إلى» و «عن»؛ مثل : مِلْتُ إليه، ومِلْتُ عنه . وكذا قال قتادة : يَعْشُ، يُعْرِض؛ وهو قول الفراء . النحاس : وهو غير معروف فى اللغة . وقال القُرَظى : يولّى ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه. وأنكر العُتْبى عشوت بمعنى أعرضت ؛ قال : وإنما الصواب تعاشيت . والقول قول أبى الهيثم والأزهرى . وكذلك قال جميع أهل المعرفة . وقرأ السُّلَمى وابن أبى اسحاق و يعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش «يقيض» (بالياء) لذكر «الرحمن» أولا؛ أي يقيّض له الرحمن شيطانا . الباقون بالنون. وعن ابن عباس «يُقَيَّض لَهُ شَيْطَانٌ فهو له قَرِينٌ» أى ملازم ومصاحب . قيل: «فهو» كناية عن الشيطان؛ على ما تقدّم. وقيل: عن الإعراض عن القرآن[1]؛ أى هو قرين للشيطان . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى وإن الشيطان ليصدونهم عن سبيل الهدى؛ وذُكر بلفظ الجمع لأن «مَن» فى قوله «ومَن يعش» فى معنى الجمع . ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أى ويحسب الكفار ﴿ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا ﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص؛ يعنى الكافر يوم القيامة . الباقون «جاءانا» على التثنية، يعنى الكافر وقرينه وقد جُعلا فى سلسلة واحدة، فيقول الكافر ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أى مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما قال تعالى : «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ»[2] ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعا ؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وعينٌ لها حَدْرةٌ بَدْرةٌ * شُقّت مآقيهما من أُخُرْ[3]

(١) فى الأصول : «عن التعرض» . (٢) آية ١٧ سورة الرحمن . (٣) البيت لامرئ القيس . وحدرة : مكتنزة صلبة، وقيل الواسعة الجاحظة . و بدرة : تبدر بالنظر، وقيل تامة كالبدر .

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بُعْدَ مَشْرِقِ أطول يوم فى السنة إلى مَشْرِق أقصر يوم فى السنة ، ولذلك قال « بُعْدَ المشرقين » . وقال الفراء : أراد المشرق والمغرب فغَلَّب آسم أحدهما ، كما يقال : القمران للشمس والقمر ، والعُمَران لأبى بكر وعمر ، والبصرتان للكوفة والبصرة ، والعصران للغداة والعصر . وقال الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجَرِير :

ما كان يرضى رسول الله فعلهم * والعُمَران أبو بكر ولا عمر

وأنشد سيبويه :

* قَدْنِيَ من نَصْر الخُبَيْبَيْن قَدِى *

يريد عبد الله ومصعبا ابنى الزبير ، وإنما أبو خبيب عبد الله . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أى فبئس الصاحب أنت ؛ لأنه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخُدْرِىّ : إذا بُعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

قوله تعالى : وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ « إذ » بدل من اليوم ؛ أى يقول الله للكافر لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم فى الدنيا هذا الكلام ؛ وهو قول الكافر « يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » أى لا تنفع الندامة اليوم . « إنكم » بالكسر ﴿ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وهى قراءة ابن عامر باختلاف عنه . الباقون بالفتح . وهى فى موضع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه . أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسّى كما يتأسّى أهل المصائب فى الدنيا ، وذلك أن التأسّى يستروحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لى فى البلاء والمصيبة أسوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الخنساء :

فلولا كثرة الباكين حولى * على إخوانهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن * أعزّى النفس عنه بالتأسّى

فإذا كان فى الآخرة لم ينفعهم التأسّى شيئا لشغلهم بالعذاب . وقال مقاتل : لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ؛ لأن قُرناءكم وأنتم فى العذابِ مشترِكون كما اشتركتم فى الكفر .

قوله تعالى : أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَنْ كَانَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أى ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا؛ ففيه تسلية للنبىّ صلى الله عليه وسلم . وفيه ردّ على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان فى القلب خَلْقُ الله تعالى ، يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء .

قوله تعالى : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش . ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ وهو الانتقام منهم فى حياتك . ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ؛ وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام ؛ يريد ما كان بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم من الفتن . و « نَذْهَبَنَّ بك » على هذا نتوفّينك . وقد كان بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم نقمة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يُرِه فى أمته إلا التى تَقَرّ به عينه وأبقى النقمة بعده، وليس من نبىّ إلا وقد أُرِى النّقمة فى أمته . و روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أُرِى ما لقيت أمته من بعده، فما زال منقبضا، ما انبسط ضاحكا حتى لقى الله عز وجل . وعن ابن مسعود أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد الله بأمة خيرا قبض نبيّها قبلها فجعله لها فَرَطًا وسَلَفا . و إذا أراد الله بأمة عذابا عذّبها ونبيُّها حىٌّ لتَقَرّ عينه لما كذّبوه وعصَوْا أمره" .

قوله تعالى : فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب؛ ف ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يوصّلك إلى الله ورضاه وثوابه . ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعنى القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ؛ نظيره : «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ[1]» أى شرفكم . فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب ؛ فاحتاج أهل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم ؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذى عنى به من الأمر والنهى وجميع ما فيه من الأنباء، فشَرُفوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سُمِّى عربيًّا . وقيل : بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة . وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به . وقيل : « وإنه لذكر لك ولقومك » يعنى الخلافة فإنها فى قريش لا تكون فى غيرهم؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "الناس تَبَعٌ لقريش فى هذا الشأن مُسْلمُهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" . وقال مالك : هو قول الرجل حدّثنى أبى عن أبيه، حكاه ٱبن أبى سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماوردىّ والثعلبىّ وغيرهما . قال ابن العربى : ولم أجد فى الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببَغْداد فإن بنى التميمى بها يقولون : حدّثنى أبى قال حدّثنى أبى، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبذلك شَرُفت أقدارهم، وعظّم الناس شأنهم، وتهمّمت الخلافة بهم . ورأيت بمدينة السلام ٱبنى أبى محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبى الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد ابن أُكَيْنة بن عبد الله التميمى وكانا يقولان : سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول، سمعت أبى يقول سمعت علىّ بن أبى طالب

(١) آية ١٠ سورة الأنبياء .

يقول وقد سئل عن الحنّان المنّان فقال : الحنان الذى يُقبل على من أعرض عنـه ، والمنّان الذى يبـدأ بالنوال قبل السؤال . والقائل سمعت عليًّا : أُكَيْنة بن عبد الله جدّهم الأعلى . والأقوى أن يكون المراد بقوله « وإنه لذِكْرٌ لك ولقومك » يعنى القرآن ؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير، والله أعلم . قال الماوَرْدىّ : « ولقومك » فيهم قولان : أحدهما — من اتبعك من أمتك ؛ قاله قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن . الثانى — لقومك من قريش ؛ فيقال ممن هذا ؟ فيقال من العرب ، فيقال من أىّ العرب؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد .

قلت — والصحيح أنه شرف لمن عمِل به ، كان من قريش أو من غيرهم . روى ابن عباس قال : أقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم من سَرِيّة أو غَزاة فدعا فاطمة فقال : "يافاطمة اشترى نفسك من الله فإنى لا أُغْني عنك من الله شيئا" وقال مثل ذلك لنِسْوَته ، وقال مثل ذلك لعِتْرته ، ثم قال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم : "ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا قريش بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الموالى بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقـون . إنما أنتم من رجل وآمرأة وأنتم كجِمَام(1) الصاع ليس لأحد على أحد فضـل إلا بالتقوى". وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجِعلان التى تدفع النَّتْن بأنفها كلّكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنـكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء [الناس] مؤمن تقىٌّ وفاجر شـقى" . خرجهما الطبرى . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى الحُجُرات إن شاء الله تعالى .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أى عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفرّاء . وقال ابن جُرَيج : أى تسألون أنت ومن معك على ما أتاك . وقيل تسألون عما عملتم فيه ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

(1) الجمام (بالتثليث) : ما علا رأس المكيال من الطفاف .

قال ابن عباس وابن زيد : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — وهو مسجد بيت المقدس — بعث الله له آدم ومَن وُلد من المرسلين، وجبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأذّن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة، ثم قال : يا محمد تقدّم فصل بهم ؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسلم : "سل يا محمد من أرسلنا مِن قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أسأل قد اكتفيت". قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبيًّا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم . فى غير رواية ابن عباس : فصلّوْا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين ؛ فلما انفتل[1] قام فقال : "إن ربّى أوحى إلىّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله"؟ فقالوا : يا محمد، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل و إنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبىّ بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى بن مريم فإنه مأمور أن يتبّع أثرك". وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى «وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» قال : لقِيَ الرّسلَ ليلة أسرى به . وقال الوليد بن مسلم فى قوله تعالى «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قال: سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدّثنى عن قتادة قال سألهم ليلة أسرى به، لقى الأنبياء ولقى آدم ومالك خازن النار .

قلت : هذا هو الصحيح فى تفسير هذه الآية . و « مِن » التى قبل « رسلنا » على هذا القول غير زائدة . وقال المبرد وجماعة من العلماء : إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا. وروى أن فى قراءة ابن مسعود « واسأل الذى أرسلنا إليهم قبلك رسلنا» .

---

(١) انفتل عن الصلاة : اذا انصرف عنها .

وهذه قراءة مفسّرة ؛ فـ« من » على هذا زائدة، وهو قول مجاهد والسّدى والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وآبن عباس أيضا. أى واسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقيل : المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ فحذفت « عن » ، والوقف على « رسلنا » على هـذا تام ، ثم ابتـدأ بالاستفهام على طريق الإنكار. وقيل : المعنى واسأل تُبّاع مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا ، فحذف المضاف. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسـلم والمراد أمته. ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أخبر عن الآلهـة كما أخبر عمن يعقل فقال « يعبدون » ولم يقـل تعبد ولا يعبدن ؛ لأن الآلهـة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل.

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهـة التوقيف والتقرير ؛ لا لأنه كان فى شك منه. وآختلف أهل التأويل فى سؤال النبيّ صلى الله عليه وسـلم لهم على قولين : أحدهما — أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدى. الثانى — أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل؛ حتى حكى آبن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : "هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشدّ إيمانا وأعظم يقينا من أن يسأل عن ذلك". وقد تقدّم هذا المعنى فى الروايتين حسبما ذكرناه.

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ لمّـا أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه منتقم له من عدوه، وأقام الحجـة بآستشهاد الأنبيـاء وآتفاق الكل على التوحيد أكّد ذلك بقصـة موسى وفرعون ، وما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به و بقومه من الإغراق والتكذيب ؛ أى أرسلنا موسى بالمعجزات وهى التسع الآيات فكُذِّب ؛ فجعلت العاقبة الجميلة له ، فكذلك أنت . ومعنى ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء وسخرية ؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحـر وتخييل ، وأنهم قادرون عليها . وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أى كانت آيات موسى من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها . وقيل: « إلا هى أكبر من أختهـا » لأن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما ، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح . ومعنى الأُخُوة المشاكلة والمناسبة ؛ كما يقال : هذه صاحبة هذه ؛ أى هما قريبتان فى المعنى . ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أى على تكذيبهم بتلك الآيات؛ وهوكقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ »(١) . والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع . وكانت هذه الآيات الأخيرة عذابا لهم وآياتٍ لموسى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم . ﴿ وَقَالُوا يَأَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ لمـا عاينوا العذاب قالوا يأيها الساحر ؛ نادَوْه بمـا كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل: كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم . قال ابن عباس : « يأيها الساحر » يأيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيما يوقّرونه ؛ ولم يكن السحر صفةَ ذم . وقيل : يأيها الذى غَلَبَنا بسحره ، يقال : ساحرته فسحرته ؛ أى غلبتـه بالسحر ؛ كقول العـرب : خاصمته فخصمته أى غلبتـه بالخصومة ، وفاضلته ففضلته، ونحوها . ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معـنى الاستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا . وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بن وَثّاب « أيُّهُ الساحر » بغير ألف والهاء مضمومة ؛ وعلّتها أن الهاء خُلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذى أوجبه النداء المفرد . وأنشد الفرّاء :

يأيُّهُ القلبُ اللَّجُـوجُ النفس * أفق عن البيض الحسانِ اللُّعسِ

(١) آية ١٣٠ سورة الأعراف .

فضم الهاء حملا على ضم الياء؛ وقد مضى فى «النور»(١) معنى هذا . ووقف أبو عمرو وآبن أبى إسحاق و يحيى والكسائى « أيها » بالألف على الأصل . الباقون بغير ألف ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أى بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا . ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى فيما يستقبل . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ أى فدعا فكشفنا . ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا . وقيل : قولهم « إننا لمهتدون » إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدوا .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال ؛ فنادى بمعنى قال ؛ قاله أبو مالك . فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه فى جموع القبط؛ وكأنه نودى به بينهم . وقيل : إنه أمر من ينادى فى قومه؛ قاله آبن جريج . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أى لا ينازعنى فيه أحد . قيل : إنه ملك منها أر بعين فرسخا فى مثلها؛ حكاه النقاش . وقيل : أراد بالملك هنا الإسكندرية . ﴿ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ يعنى أنهار النيل، ومعظمها أر بعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تِنّيس(٢) . قال قتادة : كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره . وقيل : من تحت سر يره . وقيل : «من تحتى» أى تصرّفى نافذ فيها من غير صانع . وقيل : كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجَرْى . قال القُشَيْرِىّ : و يجوز ظهور خوارق العادة على مدّعى الرُّبُو بية؛ إذ لا حاجة فى تمييز الإله من غير الإله إلى فعلٍ خارق للعادة . وقيل : معنى « وهـذه الأنهار تجرى من تحتى » أى القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى؛ قاله الضحاك . وقيل : أراد بالأنهار الأموال، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . وقوله « تجرى من تحتى » أى أفرّقها على مَن يتبعنى ؛ لأن الترغيب والقدرة فى الأموال دون

---

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٣٨

(٢) فى كتاب روح المعانى للآلوسى : « والأنهار : الخلجان التى تخرج من النيـل المبارك ؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ، ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك ، لكنه اندرس فجدده أحمد بن طولون ملك مصر فى الاسلام » .

الأنهار . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتى وقوتى وضَعْف موسى . وقيـل قدرتى على نفقتكم وعجز موسى . والواو فى « وهذه » يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على « مُلك مِصر » و « تجرى » نصب على الحال منها . ويجوز أن تكون واو الحال ، وآسم الإشارة مبتدأ ، و « الأنهـار » صفة لاسم الإشارة ، و « تجرى » خبر للبتدأ . وفتح الياء من « تحتىَ » أهل المدينة والبَزِّى وأبو عمرو، وأسكن الباقون . وعن الرشـيد أنه لما قرأها قال : لأُوَلِّيَنّها أحسن عبيدى، فولّاها الخَصيبَ، وكان على وضوئه . وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهذه القرية التى آفتخر بها فرعون حتى قال «أليس لى ملك مصر» ؟ ! والله لهى عنـدى أقلّ من أن أدخلها ! فثنى عِنانه . ثم صرّح بحاله فقال ﴿ أم أنَا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدِّى : «أم» بمعنى «بل» وليست بحرف عطف؛ على قول أكثر المفسرين . والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أى لا عِزّ له فهو يمتهن نفسه فى حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعنى ما كان فى لسانه من العقـدة ؛ على ما تقدّم فى « طـه »[1] . وقال الفراء : فى « أم » وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذى جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نَسَقاً على قوله «أليس لى ملك مصر» . وقيل : هى زائدة . وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون « أم » زائدة؛ والمعنى أنا خير من هـذا الذى هو مهين . وقال الأخفش : فى الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ * وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ[2]

أى أنت أحسن أمْ أمّ سالم . ثم آبتـدأ فقال أنا خير . وقال الخليـل وسيبويه : المعنى أفلا تبصرون، أم أنتم بصراء، فعطف بـ « أم » على «أفلا تبصرون» لأن معنى «أم أنا خير» أى أم تبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء . وروى عن عيسى

---

(١) راجع ج ١١ ص ١٩٢ .

(٢) القائل هو ذو الرمة . والوعساء : رملة لينة . وجلاجل : موضع بعينه . والنقاء : الكثيب من الرمل .

الثَّقفِي" و يعقوب الحَضْرَمى" أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون، لحذف تبصرون الثانى . وقيل : مَن وقف على « أم » جعلها زائدة، وكأنه وقف على « تبصرون » من قوله « أفلا تبصرون » . ولا يتم الكلام على « تبصرون » عند الخليل وسيبويه ؛ لأن « أم » تقتضى الاتصال بما قبلها . وقال قوم : الوقف على قوله « أفلا تبصرون » ثم ٱبتدأ « أم أنا خير » بمعنى بل أنا خير ؛ وأنشد الفَرّاء :

بدت مثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتِها أم أنتِ فى العين أَمْلَحُ

فمعناه : بل أنتِ أملح . وذكر الفَرّاء أن بعض القراء قرأ « أمَا أنا خير » ؛ ومعنى هذا ألست خيرا . وروى عن مجاهد أنه وقف على « أم » ثم يبتدئ « أنا خير » وقد ذُكر .

قوله تعالى : فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أى هلّا ﴿ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزِىّ أهل الشرف . وقرأ حفص « أَسْوِرة » جمع سِوار، لخمار وأخمرة . وقرأ أُبَىّ « أساور » جمع إسوار . وابن مسعود « أساوير » . الباقون « أساورة » جمع الأسورة ؛ فهو جمع الجمع . ويجوز أن يكون « أساورة » جمع « إسوار » وألحقت الهاء فى الجمع عوضا من الياء ؛ فهو مثل زناديق وزنادقة ، وبطاريق وبطارقة ، وشبهه . وقال أبو عمرو ابن العَلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار ، وهى لغة فى سُوار . قال مجاهد : كانوا إذا سوّروا رجلا سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامةً لسيادته ، فقال فرعون : هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا ! ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعنى متتابعين ؛ فى قول قتادة . مجاهد : يمشون معًا . ابن عباس : يعاونونه على من خالفه ؛ والمعنى : هلّا ضم إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ؛ فيكون ذلك أَهْيَبَ فى القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغى أن يكونوا

كرسل الملوك فى الشاهد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية ؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه ، و إمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا — فى قول مقاتل — أو دليلا على صدقه — فى قول الكلبي — وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف ، وقد كان فى الجائز أن يُكَذَّب مع مجئ الملائكة كما كُذّب مع ظهور الآيات . وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى ؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعالى : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ قال ابن الأعرابى : المعنى فاستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلّة عقولهم ؛ يقال : استخفه الفرح أى أزعجه ، وآستخفه أى حمله على الجهل ؛ ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ »[1] . وقيل : استفزّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب . وقيل : استخفّ قومه أى وجدهم خفاف العقول . وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه ، فلابدّ من إضمارٍ بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . وقيل : استخف قومه وقهرهم حتى آتبعوه ؛ يقال استخفه خلاف استثقله ، وآستخف به أهانه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله .

قوله تعالى : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس : أى غاظونا وأغضبونا . وروى عنه علىّ بن أبى طلحة : أى أسخطونا . قال الماوردىّ : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام . القُشَيْرىّ : والأسف ها هنا بمعنى الغضب ؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات ، و إما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل ؛ وهو معنى قول الماوردى .

(١) آية ٦٠ سورة الروم .

وقال عمر بن ذَرّ : يأهل معاصى الله، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم ، وٱحذروا أسفه ؛ فإنه قال « فَلَمَّا آسَفُونا انتقمنا منهم » . وقيل : «آسفونا» أى أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين ؛ نحو السحرة وبنى اسرائيل . وهو كقوله تعالى : « يُؤْذُونَ الله » (١) و « يحاربون الله » (٢) أى أولياءه ورسله .

قوله تعالى : فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ﴾ أى جعلنا قوم فرعون سَلَفًا . قال أبو مِجْلَز : «سَلَفًا» لمن عمل عملهم، «وَمَثَلًا» لمن يعمل عملهم. وقال مجاهد : «سلفا» إخبارًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، «ومثلا» أى عبرة لهم . وعنه أيضا «سلفا» لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار . قتادة : « سلفا » إلى النار، « ومثلا » عِظةً لمن يأتى بعدهم . والسلف المتقدّم ؛ يقال : سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفًا ؛ مثل طلب طلبا؛ أى تقدّم ومضى . وسلف له عمل صالح أى تقدّم . والقوم السُّلّاف المتقدّمون . وسَلَفُ الرجلِ : آباؤه المتقدّمون ؛ والجمع أسلاف وسُلّاف . وقراءة العامة « سَلَفًا » (بفتح السين واللام) جمع سالف ؛ كخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس . وقرأ حمزة والكسائى «سُلُفا» (بضم السين واللام) . قال الفراء : هو جمع سليف، نحو سرير وسُرُر . وقال أبو حاتم : هو جمع سَلَف ؛ نحو خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر، ومعناهما واحد . وقرأ علىّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعى وحُميد بن قيس «سُلَفًا» (بضم السين وفتح اللام) جمع سُلْفة ، أى فِرقة متقدّمة . قال المؤرِّج والنَّضْر بن شُمَيل : « سُلَفًا » جمع سُلْفة ، نحو غُرْفَة وغُرَف ، وطُرْفة وطُرَف ، وظُلْمة وظُلَم .

قوله تعالى : وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

لمّا قال تعالى : « وٱسأل مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلهًا؛ قاله قتادة . ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشا قالت إن محمدا

(١) آية ٥٧ سورة الأحزاب . (٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفره لما قالت له قريش إن محمدا يتلو « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] الآية، فقال : لو حضرته لرددت عليه ؛ قالوا : وما كنت تقول له؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عُزَيْرًا، أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ؛ وذلك معنى قوله « يَصِدُّونَ » . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »[2] .
ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ؛ لأنه قال « وما تعبدون » ولم يقل ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين . وقد مضى هذا فى آخر سورة « الأنبياء »[3] . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : ” يا معشر قريش لا خير فى أحد يُعبد من دون الله “ . قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيًّا وعبدا صالحا ، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله ! . فأنزل الله تعالى « ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » أى يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قرأ نافع وابن عامر والكسائى « يَصُدُّونَ » (بضم الصاد) ومعناه يُعرِضون؛ قاله النَّخَعِيّ، وكسر الباقون . قال الكسائى : هما لغتان؛ مثل يَعْرِشون ويَعْرُشون، ويَنِمّون ويَنُمّون، ومعناه يَضِجُّون . قال الجوهرى : وصَدّ يَصُدّ صديدا؛ أى ضَجّ. وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب . قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكانت : إذا قومك عنه يصدون . الفَرّاء : هما سواء؛ منه وعنه . ابن المُسيّب : يصدون يضجون . الضحاك يعِجون . ابن عباس : يضحكون . أبو عبيدة : مَن ضَمّ فمعناه يعدلون؛ فيكون المعنى : من أجل المَيْل يعدلون . ولا يُعدّى « يصدون » بمن، ومن كسر فمعناه يضجون؛ فـ « من » متصلة بـ « يصدون » والمعنى يضجون منه .

---

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء. (٢) آية ١٠١ سورة الأنبياء. (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣ فما بعدها.

قوله تعالى : وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أى آلهتنا خير أم عيسى ؟ قاله السُّدّى . وقال : خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله فى النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآية . وقال قتادة : « أم هو » يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة ابن مسعود « آلهتنا خير أم هذا » . وهو يقوّى قول قتادة ، فهو استفهام تقرير فى أن آلهتهم خير . وقرأ الكوفيون و يعقوب « أآلهتنا » بتحقيق الهمزتين، وليّن الباقون . وقد تقدم . ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ «جدلا» حال؛ أى جدلين . يعنى ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مجادلون بالباطل . وفى صحيح الترمذى عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية — «ما ضربوه لك إلا جَدَلًا بل هم قوم خصِمون» " .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أى ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله مَثَلًا لبنى إسرائيل؛ أى آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب ، ثم جعل إليه من إحياء الموتى و إبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يُجعل لغيره فى زمانه ، مع أن بنى إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبّه إلى الله عز وجل ، والناس دونهم، ليس أحد عند الله عز وجل مثلَهم . وقيل: المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه

وسلم؛ والأول أظهر . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أى بدلًا منكم ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ يكونون خلفاً عنكم؛ قاله السُّدِّى . ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلا منكم . وقال الأزهرى : إن « مِن » قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية .

قلت : قد تقدم هذا المعنى فى « براءة »(١) وغيرها . وقيل : لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة و إن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف؛ والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة، وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم بنات الله . ومعنى ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يخلف بعضهم بعضا؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جُبير : يريد القرآن؛ لأنه يدل على قرب مجىء الساعة، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لَعَلَمٌ للساعة » (بفتح العين واللام) أى أمارة . وقد روى عن عِكرمة « وإنه للعلم » (بلامين) وذلك خلاف للمصاحف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى بن مريم قال : قد عُهِد إلىّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل؛ فذكر خروج الدجال — قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث، خرّجه ابن ماجه فى سننه . وفى صحيح مسلم " فبينما هو — يعنى المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى

(١) راجع ج ٨ ص ١٤١

دِمَشْق بين مَهْرُودَتين(١) واضعًا كفّيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسَه قَطَر و إذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ونَفَسُه [ينتهى] حيث ينتهى طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ(٢) فيقتله ...“ الحديث ... وذكر الثعلبىّ والزَّمَخْشَرىّ وغيرهما من حديث أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : ” ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيّة من الأرض المقدسة يقال لها أَفِيق(٣) بين مُمَصَّرتين(٤) وشعر رأسه دَهين و بيده حربة يقتل بها الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر والإمام يؤمّ بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى و يصلّى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب و يخرب البِيَع والكنائس و يقتل النصارى إلّا من آمن به “ . وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الأنبياء إخوة لِعَلّات أمهاتُهم شتّى ودينهم واحد وأنا أَوْلَى الناس بعيسى بن مريم إنه ليس بينى و بينه نبىّ و إنه أوّل نازل فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يقاتل الناس على الإسلام “ . قال الماوَرْدِىّ : وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولا إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى و ينهاهم . وهذا قول مردود لثلاثة أمور ؛ منها الحديث ، ولأن بقاء الدنيا يقتضى التكليف فيها ، ولأنه ينزل آمرًا بمعروف وناهيًا عن منكر . وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء اليه .

قلت : ثبت فى صحيح مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لَيَنْزِلَنّ عيسى بن مريم حَكَمًا عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ وليَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الجِزْيَة وَلَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنّ الشحناء والتباغُضُ والتحاسد ولَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد “ . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم و إمامُكم منكم “ وفى رواية ” فأمّكم منكم “ قال ابن أبى ذئب : تدرى ” ما أمّكم

(١) أى شقتين أو حلتين . (٢) لد (بالضم والتشديد) : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .
(٣) فى روح المعانى : « أفيق بفاء وقاف بوزن أمير ، وهى هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ... » .
(٤) الممصرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة .

منكم " ؟ قلت : تخبرنى ؛ قال : فأمّكم بكتاب ربكم وسُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم " .
قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نصّ على أنه ينزل مجدِّدًا لدين النبيّ صلى الله عليه وسلم للذى دُرس منه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باقٍ ؛ على ما بيناه هنا وفى كتاب التذكرة . وقيل : « وإنه لَعِلْمٌ للسّاعة » أى وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى ؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وإنه » وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعلم للساعة ؛ بدليل قوله عليه السلام : " بُعثت أنا والساعةُ كهاتين " وضمّ السبابة والوسطى ؛ خرّجه البخارى ومسلم . وقال الحسن : أوّل أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فلاَ تَمْتَرُنَّ بها ﴾ فلا تشكّون فيها ؛ يعنى فى الساعة ، قاله يحيى بن سلام . وقال السُّدّى : فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها فانها كائنة لا محالة . ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أى فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله . ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى طريق قويم إلى الله ، أى إلى جنّته . وأثبت الياء يعقوب فى قوله « واتبعون » فى الحالين ، وكذلك « وأطيعون » . وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع فى الوصل دون الوقف ، وحذف الباقون فى الحالين . ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لا تغترّوا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين ؛ فان شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة أو نار . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) وغيرها

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخَلْق الطير والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

هنا الإنجيل. ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ أى النبوة؛ قاله السُّدى. ابن عباس : علم ما يؤدى إلى الجميل ويكف عن القبيح . وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيرى والماوردى . ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال مجاهد : من تبديل التوراة . الزجاج : المعنى لأبين لكم فى الإنجيل بعض الذى تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد : و بيّن لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل: بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا فى أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها . وقيل : إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم . ومذهب أبى عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى : « يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ »[1] : وأنشد الأخفش قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو تعتلق بعض النفوس حِمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. و يقال للمنية : عَلُوق وعَلّاقة . قال المفضّل البكرى :

وسائلة بثَعْلَبة بن سَيْرٍ[2] * وقد علِقت بثعلبة العَلُوقُ

وقال مقاتل : هو كقوله « وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »[3] . يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ و إذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلهًا أو ابن إله . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادة الله صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدّى سالكه إلى الحق .

قوله تعالى : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

(١) آية ٢٨ سورة غافر . (٢) يريد ثعلبة بن سيار . (٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة : يعنى ما بينهم ، وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضا ؛ قاله مجاهد والسدى . الثانى — فرق النصارى من النُّسْطُورية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا فى عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبي ومقاتل ، وقد مضى هـذا فى سورة « مريم »[(١)] . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا وأشركوا ؛ كما فى سورة «مريم»[(١)] . ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أى أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أى ينام فيه . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ يريد الأحزاب لاينتظرون . ﴿ إلا الساعة ﴾ يريد القيامة . ﴿ أن تأتيهم بَغْتَةً ﴾ أى فجـأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفطنـون . وقد مضى فى غير موضع[(٢)] . وقيـل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة . ويكون « الأحزاب » على هذا ، الذين تحزّبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وكذّبوه من المشركين . ويتصل هـذا بقوله تعالى : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا »[(٣)] .

قوله تعـالى : ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧)

قوله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أى أعداء ، يعادى بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا . ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء فى الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وحكى النقاش أن هـذه الاية نزلت فى أُمَيَّة بن خَلَف الجُمَحِيّ وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، كانا خليلين ؛ وكان عقبة يجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبى معيط ؛ فقال له أميـة : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تَتْفُل فى وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبيّ صلى الله عليـه وسلم قتله فقتله يوم بَدْرٍ صبرا[(٤)] ، وقُتل أميّـة فى المعركة ؛ وفيهم نزلت هـذه الآية . وذكر الثعلبيّ رضى الله عنه فى هذه الآية قال : كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال : يا رب ،

---

(١) راجع ج ١١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ . (٢) راجع ج ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ٥٨ من هذه السورة . (٤) الصبر : نصب الإنسان للقتل .

إن فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك ، يا رب فلا تُضِلّه بعدى ، واهده كما هديتنى، وأكرمه كما أكرمتنى ؛ فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما ، فيقول الله تعالى : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول يا رب، إنه كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك ؛ فيقول الله تعالى : نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان . قال : ويموت أحد الكافِرَيْن فيقول : يا رب ، إن فلانا كان ينهانى عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك يا رب ألّا تَهْدِه بعدى ، وأن تضله كما أضللتنى ، وأن تهينه كما أهنتنى؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول : يا رب ، إنه كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ويخبرنى أنى غير ملاقيك، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب ؛ فيقول الله تعالى : بئس الصاحب والأخ والخليل كنت . فيلعن كلّ واحد منهما صاحبه .

قلت : والآية عامة فى كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضِل .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٦٨)

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العَرَصات "يا عِبادِى لا خوف عليكم اليوم" ، فيرفع أهل العَرْصة رءوسهم؛ فيقول المنادى : « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » فينكّس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين . وذكر المحاسبى فى الرعاية : وقد روى فى هذا الحديث أن المنادى ينادى يوم القيامة : « يا عبادِى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» فيرفع الخلائق رءوسهم، يقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا بِآياتنا وكانوا مسلِمين » فينكّس الكفار رءوسهم ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم. ثم ينادى الثالثة : « الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليّه ولا يُسلمه عند الهلكة . وقرئ « يا عباد » .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ ﴾

قال الزجاج : « الذين » نصب على النعت لـ « عبادى » لأن « عبادى » منادى مضاف . وقيـل : « الذين آمنوا » [خبر لمبتدإ محذوف أو][1] ابتداء وخبره محذوف ؛ تقديره هم الذين آمنوا، أو الذين آمنوا يقال لهم « ادخلوا الجنة » . وقرأ أبو بكر وزِرّ بن حُبيش « يا عِبادِىَ » بفتح اليـاء وإثباتها فى الحـالين ؛ ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة فى الحالين . وحذفها الباقون فى الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة فى مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا الجنة ، أو يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة . ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات فى الدنيا . وقيـل : قرناؤكم من المؤمنين . وقيـل : زوجاتكم من الحُـور العين . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ؛ قاله ابن عباس ؛ والكرامة فى المنزلة . الحسن : تفرحون، والفرح فى القلب . قتادة : تنعمون، والنعيم فى البدن . مجاهد : تسرّون ؛ والسرور فى العين . ابن أبى نَجِيح : تعجبون، والعجب هاهنا درك ما يستطرف . يحيى بن أبى كثير : هو التلذذ بالسماع . وقد مضى هذا فى « الروم »[2] .

قوله تعـالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٧١ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى لهـم فى الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم فى صِحاف من ذهب وأكواب . ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنه يعـلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء . وذكر الذهب فى الصحاف واستغنى به عن الإعادة فى الأكواب ؛ كقوله تعـالى :

(١) زيادة لا يستقيم المعنى إلا بها . (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢

« والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِراتِ »(١) . وفى الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تلبَسوا الحرير ولا الدِّيباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها(٢) فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة". وقد مضى فى سورة « الحج »(٣) أن من أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم . وقال المفسرون : يطوف على أدناهم فى الجنة منزلةً سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب، يُغْدَى عليه بها ، فى كل واحدة منها لون ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا، ويراح عليه بمثلها . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام، مع كل غلام صحفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضا. ﴿وأَكْوَابٍ﴾ أى ويطاف عليهم بأكواب ؛ كما قال تعالى : « ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضةٍ وأَكوابٍ »(٤) . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبى قِلابة قال : يُؤْتَوْن بالطعام والشراب ، فإذا كان فى آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم، ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك ؛ ثم قرأ « شرابا طهورا » . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفِلُون ولا يبولون ولا يتغوطون [ولا يمتخطون] قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جُشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التّسبيحَ والتحميد والتكبير – فى رواية – كما يلهمون النَّفَس" .

الثانية – روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر فى بطنه نار جهنم" وقال : "لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها" وهذا يقتضى التحريم، ولا خلاف فى ذلك .

---

(١) آية ٣٥ سورة الأحزاب . راجع ج ١٤ ص ١٨٥ (٢) قوله « فى صحافها » على حدّ قوله تعالى : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ... » . فالضمير » عائد على الفضة ، و يلزم حكم الذهب بطريق الأولى .
(٣) راجع ج ١٢ ص ٢٩ (٤) آية ١٥ سورة الإنسان .

واختلف الناس فى استعمالها فى غير ذلك . قال ابن العربى : والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها فى شىء ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم فى الذهب والحرير : "هذان حرام لذكور أمتى حلّ لإناثها" . والنهى عن الأكل والشرب فيهما يدل على تحريم استعمالها ؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز . أصله الأكل والشرب ، ولأن العلة فى ذلك استعجال أمر[1] الآخرة ، وذلك يستوى فيه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : "هى لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة" فلم يجعل لنا فيها حظا فى الدنيا .

الثالثة — إذا كان الإناء مُضَبَّبا بهما أو فيه حَلْقة منهما ، فقال مالك : لا يعجبنى أن يُشرب فيه ، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبنى أن ينظر فيها وجهه . وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغير شيئا مما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتركه .

الرابعة — إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[2] . وفى كتب علمائنا أنه يلزم الغُرْم فى قيمتها لمن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها . ولا يجوز تقويمها فى الزكاة بحال . وغير هذا لا يلتفت إليه .

قوله تعالى : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ قال الجوهرى : الصحفة كالقَصْعة والجمع صِحاف . قال الكسائى : أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة ، ثم الصحفة تشبع الخمسة ، ثم المِئْكلة تشبع الرجلين والثلاثة ، ثم الصُّحَيفة تُشبع الرجل . والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف .

قوله تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ قال الجوهرى : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب . قال الأعشى يصف الخمر :

---

(١) فى ابن العربى : « أجر » .

(٢) الطنبور : من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس ؛ معرّب .

صَرِيفِيَّـةٌ طَيِّبٌ طَعْمُهـا * لهـا زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ [١]

وقال آخـــر [٢] :

مُتَّكِئاً تَصْـفِقُ أبوابُه * يسعى عليه العَبْدُ بالكُوب

وقال قتادة : الكُوب المدوّر القصير العنق القصير العروة . والإبريق المستطيـل العنق الطويل العروة . وقال الأخفش : الأكواب الأباريق التى لا خراطيم لها . وقال قُطْرُب : هى الأباريق التى ليست لها عُرًى . وقال مجاهد : إنها الآنية المدوّرة الأفواه . السُّدّى : هى التى لا آذان لها . ابن عَزيز: «أكواب» أباريق لا عُرَى لها ولاخراطيم ؛ واحدها كوب.

قلت : وهو معنى قول مجاهد والسُّدّى ، وهو مذهب أهل اللغة أنها التى لا آذان لهـا ولا عُرًى .

قوله تعـالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ روى الترمذىّ عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هل فى الجنـة من خيل ؟ قال : " إنِ اللهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك [فى الجنة [٣]] حيث شئت " . قال : وسأله رجل فقال يا رسول الله، هل فى الجنـة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال : " إنْ يُدخلك الله الجنـة يكن لك فيهـا ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك ". وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام «وفيها ماتشتهيه الأنفس »، الباقون « تشتهى الأنفس » أى تشتهيه الأنفس؛ تقول : الذى ضربت زيد؛ أى الذى ضربته زيد . ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ تقـول : لَذّ الشىءُ يَـلَذّ لذاذا، ولذاذة . ولَذِذت بالشىء ألَذّ (بالكسر فى المـاضى والفتح فى المستقبل) لذاذا ولذاذة ؛ أى وجدته لذيـذا . والتذذت به وتلذذت به بمعنًى ، أى فى الجنـة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر . وقال سعيد بن جبير : «وتلذ الأعين» النظر إلى الله عز وجل؛ كما فى الخبر : " أسألك لذة النظر إلى وجهك " . ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ باقون دائمون ؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت .

(١) الصريفية : الخمر المنسوبة الى صريفون ، وهى قرية عند عكبراء ، أو لأنها أخذت من الدنّ ساعتئذ كاللبن الصريف (الحليب الحار ساعة يصرف من الضرع). (٢) هو عدى بن زيد. (٣) زيادة عن سنن الترمذى.

قوله تعالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ أى يقال لهم هذه تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا . وقال ابن خالَوَيْه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك و إلى جهنم بهذه ؛ ليخوّف بجهنم ويؤكد التحذير منها . وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التى ينظر إليها . ﴿ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلم ، والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدم هذا مرفوعا فى « قد أفلح المؤمنون »(١) من حديث أبى هريرة ، وفى « الأعراف »(٢) أيضا .

قوله تعالى : لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكهانى الذى يبيعها . وقال ابن عباس : هى الثمار كلها ، رطبها ويابسها ؛ أى لهم فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لما ذكر أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبين فضل المطيع على العاصى . ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أى لا يخفف عنهم ذلك العذاب . ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى آيسون من الرحمة . وقيل : ساكتون سكوت يأس ؛ وقد مضى فى « الأنعام »(٣) . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالشرك . ويجوز «ولكن كانوا هم الظالمون» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبر كان .

قوله تعالى : وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يا مالِكُ ﴾ وهو خازن جهنم ، خلقه لغضبه ، إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا . وقرأ علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما « ونادوا يا مالِ » وذلك خلاف المصحف . وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « ونادوا يا مال » باللام خاصة ؛ يعنى رخم الاسم وحذف الكاف . والترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم فى النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول فى مالك : يا مال ، وفى حارث : يا حار ، وفى فاطمة : يا فاطم ، وفى عائشة : يا عائش ، وفى مروان : يا مرو ، وهكذا . قال :

يا حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية * لم يَلْقَها سُوقَةٌ قَبْلى ولا مَلِكُ [1]

وقال آمرؤ القيس :

أحار ترى بَرْقًا أُرِيك وَمِيضَه * كلمع اليدين فى حَبِيّ مُكَلَّلِ [2]

وقال أيضا :

أفاطِم مَهْلًا بعضَ هذا التدلُّلِ * وإن كنتِ قد أزمعتِ صُرْمِى فأجْمِلِ [3]

وقال آخر [4] :

يا مَرْوَ إن مَطِيّتى محبوسةٌ * ترجو الحِباء ورَبُّها لم ييأس

وفى صحيح الحديث "أى فل ، هَلُمّ" . ولك فى آخر الاسم المرخّم وجهان : أحدهما ـ أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف . والآخر ـ أن تبنيه على الضم ؛ مثل : يا زيد ؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراع المحذوف . وذكر أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنا محمد بن يحيي المَرْوزىّ قال حدّثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى ، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوى وكان أغار على بنى عبدالله ابن غطفان فغنم وأخذ ابل زهير وراعيته يسارا ، فطالبهم بذلك ليردوا عليه ما أخذوه وتوعدهم بالهجاء ... الخ ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب المصرية . (٢) يروى « أصاح » . والحبى : السحاب المعترض بالأفق . والمكلل : المتراكب . (٣) فاطمة هى ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر . والصرم (بالضم) : القطيعة . (٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان واليا على المدينة فوفد عليه مادحاله ، فأبطأ عليه جائزته ... والحباء (بكسر الحاء المهملة) : العطاء . وجعل الرجاء للناقة وهو يريد نفسه مجازا . (شرح الشواهد للشنتمرى) .

عيينة عن مجاهـد قال : كنا لا ندرى ما الزخرف حتى وجدناه فى قـراءة عبد الله « بيت من ذهب »[(١)] ، وكنا لا ندرى « ونادوا يا مالك » أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « ونادوا يا مالِ » على الترخيم . قال أبو بكر : لا يعمل على هـذا الحديث لأنه مقطوع لايقبل مثله فى الرواية عن الرسول عليه السلام، وكتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل .

قلت : وفى صحيح البخارى عن صَفْوان بن يَعْلَى عن أبيه قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر «ونَادَوْا يامالِكُ لِيَقْضِ علينا ربك» بإثبات الكاف. وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى — أوذكر لى — أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة فقال الله تعالى : « وَقَالَ الّذين فِي النّارِ لِخَزَنَةِ جهنم ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِن العذابِ»[(٢)] فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيـه العذاب، فردّتْ عليهـم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » قال : فلما يَئِسوا مما عند الخزنة نادَوْا مالكًا، وهو عليهم وله مجلس فى وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب، فهـو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : « يامالك ليقضِ علينا ربُّك » قال : سألوا الموت ، قال : فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة ،قال: والسنة ستون وثلثمائة يوم،والشهر ثلاثون يوما،واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعـد الثمانين فقال : « إنكم ما كثون » وذكر الحديث، ذكره ابن المبارك . وفى حديث أبى الدَّرْداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيقولون ادْعوا مالكا فيقولون يامالك لِيَقْضِ علينا رَبُّك قال إنكم ما كثون" . قال الأعمش : نُبِّئت أن بين دعائهم و بين إجابة مالك إياهم ألف عام، خرّجه الترمذى . وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة، ثم يقول إنكم ما كثون . وقال مجاهد ونَوْف البِكَالِيّ : بين ندائهم و إجابته إياهم مائة سنة . وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة، ذكره ابن المبارك .

---

(١) فى قوله تعالى : « أو يكون لك بيت من زخرف » آية ٩٣ سورة الإسراء . راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

(٢) آية ٤٩ سورة غافر .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم ؛ أى إنكم ما كثون فى النار لأناجئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم ؛ أى بيّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : « ولكن أكثركم » أى ولكن كلكم . وقيل : أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم ، وأما الأتباع فما كان لهم أثر . ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ أى للإسلام ودين الله ﴿ كَٰرِهُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار النَّدْوَة ، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجلٌ ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه ؛ فنزلت هـذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر . « أَبْرَمُوا » أحكموا . والإبرام الإحكام . أبرمت الشيء أحكمته . وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل ، وهو الفتل الثانى ، والأول سَحِيل ؛ كما قال :

* ... ... من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ[1] *

فالمعنى أم أحكموا كيدًا فإنا محكمون لهم كَيْدًا ؛ قاله ابن زيد ومجاهد . قتادة : أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث . الكلبى : أم قضَـوْا أمرًا فإنا قاضون عليهـم بالعذاب . وأم بمعنى بل . وقيل : « أم أَبْرَمُوا » عطف على قوله «أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ[2] » . وقيل : أى ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا ، أم سمعوا فأعرضوا لأنهـم فى أنفسهم أبرموا أمرا آمنوا به العقاب .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) هذا عجز بيت لزهير بن أبى سلمى . والبيت كما فى ديوانه :

يمينا لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

والسحيل ، الغزل الذى لم يبرم . (٢) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُـمْ ﴾ أى ما يسرّونه فى أنفسهم ويتناجَوْن به بينهـم . ﴿ بَلَى ﴾ نسمع ونعلم . ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى الحفظة عندهم يكتبون عليهم . وروى أن هذا نزل فى ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثانى : إذا جَهَـرتم سمع، و إذا أسررتم لم يسمع . وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى . وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود فى سورة « فُصِّلت »[1] .

قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُـلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ اختلف فى معنـاه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّى : المعنى ما كان للرحمن ولد؛ فـ«إن» بمعنى ما، و يكون الكلام على هذا تاما، ثم تبتدئ «فأنا أوّل العابِدِين» أى الموحّدين من أهل مكة على أنه لا ولد له . والوقف على « العابدين » تام . وقيل : المعنى قل يامحمد إن ثبت لله ولد فأنا أوّل من يعبد ولَدَه، ولكن يستحيل أن يكون له ولد؛وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلتَ بالدليل فأنا أوّل من يعتقده؛ وهذا مبالغة فى الاستبعاد؛أى لاسبيل إلى اعتقاده . وهذا ترقيق فى الكلام؛ كقوله : « وإنّا أوْ إيّا كُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[2] . والمعنى على هذا : فأنا أوّل العابدين لذلك الولد، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد . وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل من عبده وحده، على أنه لا ولد له . وقال السُّدِّى أيضا : المعنى لو كان له ولد كنت أوّل من عبده؛ على أن له ولدا ولكن لا ينبغى ذلك . قال المَهْدَوِىّ : فـ«إن» على هذه الأقوال للشرط، وهو الأجود، وهو اختيار الطبرى؛لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى . وقيل : إن معنى « العابدين » الآنفين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العَبِدِين .

---

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥١	(٢) آية ٢٤ سورة سبأ . راجع ج ١٤ ص ٢٩٨

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليمانى « فأنا أوّل العَبِدين » بغير ألف، يقال، عَبِدَ يَعْبَدُ عَبَدًا (بالتحريك) إذا أَنِف وغضب فهو عَبِد، والاسم العَبَدة مثل الأنفة، عن أبي زيد. قال الفرزدق :

أولئك أجلاسى فجئنى بمثلهم * وأَعْبَدُ أن أهجو كُلَيبًا بدارِم

وينشد أيضا :

أولئك ناس إن هَجَوْنِي هجوتهم * وأَعْبَدُ أن يهجى كُلَيْبٌ بدارم

قال الجوهرى : وقال أبو عمرو وقوله تعالى «فأنا أوّل العابدين» من الأَنَف والغضب؛ وقاله الكسائى والقُتَبى، حكاه الماوردى عنهما. وقال الهَرَوى : وقوله تعالى « فأنا أوّل العابدين » قيل هو من عَبِد يَعْبَد؛ أى من الآنفين. وقال ابن عرفة : إنما يقال عَبِد يَعبَدُ فهو عَبِد؛ وقلّما يقال عابد، والقرآن لا يأتى بالقليل من اللغة ولا الشاذ، ولكن المعنى فأنا أوّل من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له. وروى أن آمرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر، فذُكر ذلك لعثمان رضى الله عنه فأمر برجمها؛ فقال له علىّ : قال الله تعالى « وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال فى آية أخرى « وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ » فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَدّ. قال عبد الله بن وهب : يعنى ما استنكف ولا أَنِف. وقال ابن الأعرابى : «فأنا أوّل العابِدين» أى الغضاب الآنفين. وقيل : «فأنا أوّل العابدين» أى أنا أوّل من يعبده على الوحدانية مخالفًا لكم. أبو عبيدة : معناه الجاحدين؛ وحكى : عَبَدنى حَقّى أى جحدنى. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « وُلْد » بضم الواو وإسكان اللام. الباقون وعاصم « وَلَد » وقد تقدّم[1]. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى تنزيها له وتقديسا. نزّه نفسه عن كل ما يقتضى الحدوث، وأمر النبىَّ صلى الله عليه وسلم بالتنزيه. ﴿ عما يصفون ﴾ أى عما يقولون من الكذب.

قوله تعالى : فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٥

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يعنى كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة . أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ إمّا العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة . وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو مُحْكَم ، وإنما أخرج مخرج التهديد . وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد وابن القَعْقَاع وابن السَّمَيْقَع « حتى يَلْقوا » بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف ، وفتح القاف هنا وفى « الطور »[1] و « المعارج »[2] . الباقون « يُلَاقُوا » .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

هذا تكذيب لهم فى أن لله شريكا وولدا ؛ أى هو المستحق للعبادة فى السماء والأرض . وقال عمر رضى الله عنه وغيره : المعنى وهو الذى فى السماء إلٰه فى الأرض[3] ؛ وكذلك قرأ . والمعنى أنه يعبد فيهما . وروى أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما « وهو الذى فِى السماءِ اللهُ وفِى الأرضِ اللهُ » وهذا خلاف المصحف . و « إلٰهٌ » رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أى وهو الذى فى السماء هو إلٰه ؛ قاله أبو على . وحسن حذفه لطول الكلام . وقيل : « فى » بمعنى على ؛ كقوله تعالى : « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى على جذوع النخل ؛ أى هو القادر على السماء والأرض . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدّم[4] .

قوله تعالى : وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة ؛ وقد تقدّم[5] . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى وقت قيامها . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « وإليه يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . وكان ابن مُحَيْصِن وحُميد ويعقوب وابن أبى إسحاق يفتحون أوله على أصولهم . وضم الباقون .

---

(١) آية ٤٥ (٢) آية ٤٢ (٣) فى بعض نسخ الأصل : « ... فى السماء اله وفى الأرض ... »
(٤) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٥) راجع ج ٧ ص ٢٢٣

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٦)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ « مَن » فى موضع الخفض . وأراد بـ « الذين يدعون مِن دونِهِ » عيسى وعُزَيْرًا والملائكة . والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم و بصيرة ؛ قاله سعيد بن جبير وغيره . قال : وشهادة الحق لا إله إلا الله . وقيل : « من » فى محل رفع ؛ أى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ؛ يعنى الآلهة — فى قول قتادة — أى لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق ؛ يعنى عُزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله . ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ما شهدوا به . وقيل : إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث وَنَفَرًا من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولّى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله « وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِد بِالحق » أى اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة . ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى المؤمنين إذا أذِن لهم . قال ابن عباس : « إلا من شهِد بِالحق » أى شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : أى لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك . و « إلا » بمعنى لكن ؛ أى لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ؛ لأن فى جملة « الذين يدعون مِن دونِهِ » الملائكة . ويقال : شَفَعْته وشَفَعْت له ؛ مثل كِلْته وكِلْت له . وقد مضى فى « البقرة » معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها [1] . وقيل : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحق » إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق فى الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِـدَ بِالْحَقِّ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على معنيين : أحدهما ـــ أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثانى ـــ أن شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالمـا بها . ونحوه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " إذا رأيت مثل الشمس فآشهد وإلا فَدَعْ " . وقد مضى فى « البقرة »(١) .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُـم مَّنْ خَلَقَهُـمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَـكُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُـمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى لأقرّوا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنهـا حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له . يقال : أَفَكَه يأْفِكُه أَفْكًا؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء . ومنه قوله تعالى : «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا»(٢) . وقيل : أى ولئن سألت الملائكة وعيسى « من خلقهم » لقالوا الله . « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فأنّى يُؤفك هؤلاء فى آدعائهم إياهم آلهة .

قوله تعـالى : وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فى « قِيـلِهِ » ثلاث قراءات : النصب ، والجرّ ، والرفع . فأمّا الجرّ فهى قراءة عاصم وحمزة . وبقية السبعة بالنصب . وأمّا الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب . فمن جرّ حمله على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه . ومن نصب فعلى معنى : وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه ؛ وهذا اختيار الزجاج . وقال الفرّاء والأخفش : يجوز أن يكون « قيله » عطفا على قوله « أَنَّا لَا نَسْـمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ »(٣) . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس محمد آبن يزيد المبرد بأىّ شيء تنصب القيل؟ فقال : أنصبه على « وعنده علم الساعة ويعلم قيله » . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « تُرْجعون » ، ولا على « يعلمون » . ويحسن الوقف على « يكتبون »(٤) . وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القِيل على معنى : لا نسمع سِرّهم ونجواهم

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٨٩ . (٢) آية ٢٢ سورة الأحقاف . (٣) آية ٨٠ من هذه السورة .
(٤) فى آية ٨٠ .

وقِيلَه ؛ كما ذكرنا عنهما . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « يكتبون » . وأجاز الفراء والأخفش أيضا : أن ينصب على المصدر ؛ كأنه قال : وقال قِيله ، وشكا شكواه إلى الله عزّ وجلّ ، كما قال كعب بن زُهير :

تمشى الوُشاةُ جِنابَيها[1] وقِيلَهُـمُ * إنّك يابْنَ أبى سُلْمَى لَمَقْتُولُ

أراد : ويقولون قيلهم . ومن رفع « قيله » فالتقدير : وعنده قِيلُه ، أو قِيلُه مسموع ، أو قِيلُه هذا القول . الزمخشرىّ : والذى قالوه ليس بقوى فى المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه . والرفع على قولهم : أيمـن الله وأمانة الله و يمين الله ولعمـرك ، و يكون قوله « إنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون » جواب القسم ؛ كأنه قال : وأقسم بقيله يارِبّ ، أو قيله يارِبّ قسمى ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . وقال ابن الأنبارى : ويجوز فى العربية «وقيله» بالرفع ، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون . المَهْدوِىّ : أو يكون على تقدير وقِيلُه قِيلُه يارِبّ ؛ فحذف قيله الثانى[2] الذى هو خبر ، وموضع « يارِبّ » نصب بالخبر المضمر ، ولا يمتنـع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول و بقى بعضه ؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور . والهاء فى « قِيله » لعيسى ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى ذكره إذ قال « قل إن كان للرحمن وَلَدٌ » . وقرأ أبو قِلابة « يارِبٌّ » بفتح الباء . والقيـل مصدر كالقول ؛ ومنه الخـبر "نهى عن قيل وقال" . ويقال : قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا . وفى النساء « ومَن أصْدَقُ مِنَ الله قِيلًا[3] » .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

قال قتادة : أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم ؛ فصار الصفح منسوخا بالسيف . ونحوه عن ابن عباس قال : « فاصفح عنهم » أى أعرض عنهم . ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى معروفا ؛ أى قل لمشركى أهل مكة « فسوف تعلمون » ثم نُسخ هذا فى سورة « براءة » بقوله تعالى : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم»[4] الآية . وقيل : هى مُحكَمـة لم تنسخ . وقراءة العامة « فسوف

(١) أى ناحيتيها . (٢) فى الأصول : «الأول» . (٣) آية ١٢٢ . (٤) آية ٥ .

يعلمون » (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيه بالتهديد . وقرأ نافع وابن عامر « تعلمون » (بالتاء) على أنه من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للشركين بالتهديد . و « سَلَامٌ » رفع بإضمار عليكم ؛ قاله الفراء . ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام ، ولم يجعله تحية لهم ؛ حكاه النقاش . وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم ؛ والله أعلم .

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق ، إلا قوله تعالى : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا »(١) . وهي سبع وخمسون آية . وقيل تسع . وفي مسند الدارمي عن أبي رافع قال : " من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له وزوج من الحور العين " . رفعه الثعلبي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له " . وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك " . وعن أبي أمامة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا في الجنة " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

إن جعلت « حم » جواب القسم تمّ الكلام عند قوله « المبين » ثم تبتدئ « إنا أنزلناه » . وإن جعلت « إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ » جواب القسم الذي هو « الكتاب » وقفت على « منذرين » وابتدأت « فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » . وقيل : الجواب « إنا أنزلناه » ، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقَسَم ، والهاء في « أنزلناه »

(١) آية ١٥ .

للقـرآن . ومن قال : أقسم بسائر الكتب فقوله « إنا أنزلناه » كنّى به عن غير القـرآن؛ على ما تقدّم بيانه فى أوّل « الزخرف »[1] . والليلة المباركة ليلة القـدر . ويقال : ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصَّك، وليلة القدر . ووصفها بالبركة لمـا ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب . وروى قتادة عن واثلة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزلت صحف إبراهيم فى أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لستّ مَضَيْن من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتى عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان". ثم قيل : أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا فى هذه الليلة . ثم أنزل نجماً نجماً فى سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب . وقيل : كان ينزل فى كل ليلة القدر ما ينزل فى سائر السنة . وقيل كان ابتـداء الإنزال فى هذه الليلة . وقال عكرمة : الليلة المباركة هاهنا ليلة النصف من شعبان . والأوّل أصح لقوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » . قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القـدر من أم الكتاب إلى بيت العِزّة فى سمـاء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة . وهـذا المعنى قد مضى فى « البقرة »[2] عند قوله تعالى « شَهْرُ رَمَضَانَ الذِى أُنزِلَ فِيهِ القرآن »، ويأتى آنفا إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

قال ابن عباس : يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق . وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم . وقيل : إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيّران؛ قاله ابن عمر . قال المهدوى : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون فى ذلك العام ولم يزل ذلك فى علمه عز وجل . وقال عكرمة : هى ليلة النصف من شعبان يُبْرَم فيها أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وروى عثمان بن المغيرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان

---

(١) راجع ص ٦١ من هذا الجزء . (٢) آية ١٨٥ راجع جـ ٢ ص ٢٩٠ طبعة ثانية .

إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج ٱسمه فى الموتى " . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر " ذكره الثعلبي . وخرج الترمذى بمعناه عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب " . وفى الباب عن أبى بكر الصديق قال أبو عيسى : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرْطاه عن يحيى بن أبى كثير عن عروة عن عائشة ، وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث ، وقال : يحيى بن أبى كثير لم يَسمع من عروة والحجاج بن أرطاه لم يَسمع من يحيى بن أبى كثير .

قلت : وقد ذكر حديثَ عائشة مطولا صاحب كتاب العروس ، واختار أن الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان ، وأنها تسمى ليلة البراءة . وقد ذكرنا قوله والرد عليه فى غير هذا الموضع ، وأن الصحيح إنما هى ليلة القدر على ما بيناه . روى حماد ٱبن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كُلْثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد ، أرأيت ليلة القدر أفى كل رمضان هى ؟ قال : أىْ والذى لا إله إلا هو ، إنها فى كل رمضان ، إنها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله كلّ خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها . وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج ؛ يقال : يحج فلان ويحج فلان . وقال فى هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى ؛ وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هى للملائكة الموكلين بأسباب الخلق . وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ؛ وهو باطل لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فنص على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله « فى ليلة مباركة » ؛

فمن زعم أنه فى غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه لا فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها . الزمخشرىّ : «وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر ؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله؛ فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ «نفَرِّق» بالتشديد، و «يَفْرِق» كلٌّ على بنائه للفاعل ونصب «كل»؛ والفارق الله عز وجل . وقرأ زيد بن علىّ رضى الله عنه «نفرق» بالنون . ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ كلّ شأن ذى حكمة؛ أى مفعول على ما تقتضيه الحكمة» .

قوله تعالى : ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ قال النقاش : الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده . وقال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . وهو مصدر فى موضع الحال . وكذلك ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش حالان؛ تقديرهما : أنزلناه آمرين به وراحمين . المبرد : «أمرا» فى موضع المصدر؛ والتقدير: أنزلناه إنزالا . الفرّاء والزجاج : «أمرا» نصب بـ «يُفْرَق»؛ مثل قولك : يفرق فرقا . فأمرٌ بمعنى فرق فهو مصدر؛ مثل قولك : يضرب ضربا . وقيل : «يفرق» يدلّ على يؤمر؛ فهو مصدر عمل فيه ما قبله . ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الفرّاء : «رحمة» مفعول بـ«مرسلين» . والرحمة النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج : «رحمة» مفعول من أجله؛ أى أرسلناه للرحمة . وقيل : هى بدل من قوله «أمرا» . وقيل : هى مصدر . الزمخشرىّ : «أمرا» نصب على الاختصاص؛ جعل كلّ أمر جزلا فخمًا بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه

فخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لَدُنَّا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا . وفى قراءة زيد بن علىّ « أمْرٌ من عندنا » على هو أمر، وهى تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن « رحمةٌ » على تلك هى رحمة ،وهى تنصر انتصابها بأنه مفعول له .

قوله تعالى : رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قرأ الكوفيون « رَبِّ » بالجر . الباقون بالرفع ؛ رَدًّا على قوله «إنه هو السميع العليم» . وإن شئت على الابتداء، والخبر لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ تقديره : هو رب السموات والأرض . والجر على البدل من « رَبِّك » وكذلك « ربِّكم وربِّ آبائكم الأولين » بالجر فيهما ؛ رواه الشّيْزَرِىّ[1] عن الكسائى . الباقون بالرفع على الاستئناف . ثم يحتمل أن يكون هـذا الخطاب مع المعترف بأن الله خلق السموات والأرض ؛ أى إن كنتم موقنين به فاعلموا أن له أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب . ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق ؛ أى ينبغى أن يعرفوا أنه الخالق ، وأنه الذى يحيى ويميت . وقيل : الموقن ها هنا هو الذى يريد اليقين ويطلبه ؛ كما تقول : فلان يُنْجِد ؛ أى يريد نجدا . ويُتْهِم ؛ أى يريد تهامة . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى هو خالق العالم ؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شىء . و « هو يحيى ويميت » أى يحيى الأموات ويميت الأحياء . ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مالككم ومالك من تقدم منكم . واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أى ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار فى قولهم : إن الله خالقهم ؛ وإنما

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازى ، كان حجازيا ثم انتقل الى شيزر (كحيدر ، بلدة قرب حماة) وأقام بها الى أن مات فنسب اليها ، أخذ القراءة عرضا وسماعا من الكسائى ، وله عنه انفرادات . (غاية النهاية) .

يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم فى شك . وإن توهّموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون فى دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة . وقيل : « يلعبون » يضيفون إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الافتراء استهزاء . ويقال لمن أعرض عن المواعظ : لاعب ؛ وهوكالصبى الذى يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته .

قوله تعالى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ قاله قتادة . وقيل : معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ ولذلك سُمِّىَ الحافظ رقيبا . وفى الدُّخَان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجئ بعدُ ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوما يملأ ما بين السماء والأرض ؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة . وممن قال إن الدخان لم يأت بعدُ : علىّ وٱبن عباس وٱبن عمر وأبو هريرة وزيد بن علىّ والحسن وٱبن أبى مليكة وغيرهم . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ؛ يأخذ المؤمن منه ؛ كالزَّكْمَة . وينفخ الكافرَ حتى يخرج من كل مسمع منه ؛ ذكره الماوردى . وفى صحيح مسلم عن أبى الطُّفَيل عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفَارِىّ قال : ٱطّلع النبىّ صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : " ما تذكرون " ؟ قالوا : نذكر الساعة ؛ قال : " إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات — فذكر — الدخانَ والدَّجالَ والدابةَ وطلوعَ الشمس من مغربها ونزولَ عيسى بن مريم وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خُسُوف خَسْفٌ بالمَشْرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العرب وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمن تَطْرد الناس إلى مَحْشَرهم " . فى رواية عن حُذيفة " إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خَسْفٌ بالمشرق وخسفٌ بالمغرب وخسف فى جزيرة العرب والدُّخانُ والدّجالُ

ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوجُ وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعْر عدَن تُرَحِّلُ الناس". وخرجه الثعلبيّ أيضا عن حُذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول الآيات خروجًا الدّجالُ ونزولُ عيسى بن مريم ونارٌ تخرج من قَعْر عدَن أبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتَقِيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتُمْسى معهم إذا أمسوا". قلت: يا نبيّ الله، وما الدخان؟ قال هذه الآية: " «فَٱرْتَقِبْ يومَ تأتى السماءُ بدُخانٍ مُبِينٍ» يمـلأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليـلة أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره". فهذا قول. القول الثانى — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا؛ قاله ابن مسعود. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم. والحديث عنه بهذا فى صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ. قال البخاريّ: حدثنى يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مَسْرُوق قال قال عبد الله: إنما كان هـذا لأن قريشا لمـا استعصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قَحْـطٌ وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينـه وبينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعـالى: «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تأتِى السَّماءُ بِدُخَانٍ مبينٍ. يَغْشَى النَّـاسَ هَـذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». قال: فأُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمُضَرَ فإنها قد هلكت. قال: "لمُضَرَ! إنك لجرىء". فاستسق فسُقُوا، فنزلت: «إِنَّكُمْ عائِدُونَ». فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ». قال: يعنى يوم بدر. قال أبو عبيدة: والدُّخَان الجَدْب. القُتَبِيّ: سُمِّىَ دخانا ليبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان. القول الثالث — إنه يوم فتح مكة لمـا حجبت السماءَ الغبرة؛ قاله عبـد الرحمن الأعرج. ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ فى موضع الصفة للدخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من

أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم . ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى يقول الله لهم : « هـذا عذاب أليم » . فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : « هـذا عذاب أليم » حكاية حال ماضية ، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : « هذا » بمعنى ذلك . وقيل : أى يقول الناس لذلك الدخان : « هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر ؛ كما تقول : هذا الشتاء فأعدّ له .

قوله تعالى : رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أى يقولون ذلك ؛ اكشف عنا العذاب فـ « إنا مؤمنون » ؛ أى نؤمن بك إن كشفته عنا . قيل : إن قريشا أتَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هـذا القول . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان . وقيل : الجوع ؛ حكاه النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذى أصابهم ؛ على ما تقدم . وقد يقال للجوع والقحط : الدخان ؛ ليبس الأرض فى سنة الجَدْب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار ؛ ولهذا يقال لسَنة الجَدْب : الغبراء . وقيل : إن العذاب هنا الثلج . قال الماوردىّ وهذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنما يكون فى الآخرة أو فى أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج ؛ غير أنه مقول فحكيناه .

قوله تعالى : أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى من أين يكون لهم التذكّر والاتعاظ عند حلول العذاب . ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ يبيّن لهم الحق ، والذِّكرى والذِّكر واحد ؛ قاله البخارىّ . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إيّاه . وقيل : أى أنَّى ينفعهم

قولهم : « إنا مؤمنون » بعد ظهور العذاب غدًا أو بعد ظهور أعلام الساعة ، فقد صارت المعارف ضرورية . وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة . ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أى عَلّمه بَشَرٌ أوعلمه الكَهَنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعالى : إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ أى وقتا قليلا ، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ؛ أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ؛ قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه . ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . ومن قال هذا فى القيامة قال : أى لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر . وقيل : معنى ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلينا ؛ أى مبعوثون بعد الموت . وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

قوله تعالى : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿ يَوْمَ ﴾ محمول على ما دلّ عليه ﴿ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ؛ أى ننتقم منهم يوم نَبْطِش . وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد « إنّ » لا يفسر ما قبلها . وقيل : إن العامل فيه « منتقمون » . وهو بعيد أيضا ؛ لأن ما بعد « إن » لا يعمل فيما قبلها . ولا يحسن تعلّقه بقوله : « عائدون » ولا بقوله : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ » ؛ إذ ليس المعنى عليه . ويجوز نصبه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ذكّرهم أو آذكر . ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى . ولهذا وصل هذا بقصة فرعون ، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب ، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا . وقيل : « إنّا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » كلام تام . ثم ابتدأ « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » أى ننتقم من جميع الكفار . وقيل : المعنى وارتقب الدخان وارتقب يوم نَبْطِش ، فحذف واو العطف ؛

كما تقول : آتق النار اتق العذاب. و ﴿ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ فى قول ابن مسعود : يوم بدر . وهو قول ابن عباس وأُبَىّ بن كعب ومجاهد والضّحاك . وقيل : عذاب جهنم يوم القيامة ؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضا ، واختاره الزجاج . وقيل : دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع أو قَحْط يقع قبل يوم القيامة . الماوردىّ : ويحتمل أنها قيام الساعة ؛ لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . و يقال : انتقم الله منه ؛ أى عاقبه . والاسم منه النِّقمة والجمع النِّقمات[(١)] . وقيل بالفرق بين النّقمة والعقوبة ؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة . والنقمة قد تكون قبلها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : العقوبة ما تقدّرت والانتقام غير مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

أى آبتليناهم . ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة . والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا ؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا . وقيل : فتنّاهم عذبناهم بالغرق . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : ولقد جاء آلَ فرعون رسول كريم وفتنّاهم ، أى أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجىء الرسل . والواو لا ترتّب . ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى كريم فى قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفرّاء : كريم على ربّه إذ اختصه بالنبوّة و إسماع الكلام .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال اتبعونى . فـ « عِبادَ الله » منادى . وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معى عباد الله وأطلقوهم من العذاب . فـ « عِبادَ الله » على هذا مفعول . وقيل : المعنى أدّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالةَ ربى . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى أمين على الوحى فآقبلوا نصحى . وقيل : أمين على ما أستأديه

(١) فى كتب اللغة : « النقمة بالكسر والفتح وكفرحة جمع نقم ككلم وعنب وكلمات » .

منكم فلا أخون فيه . ﴿ وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا تتكبّروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته . وقال قتادة : لا تبغوا على الله . ابن عباس : لا تفتروا على الله . والفرق بين البغى والافتراء أن البغى بالفعل والافتراء بالقول . وقال ابن جُريج : لا تَعْظُمُوا على الله . يحيى بن سلام : لا تستكبروا على عبادة الله . والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاولُ المقتدر، والاستكبارَ ترفعُ المحتقر؛ ذكره الماوردى . ﴿ إِنِّى آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال قتادة : بعذر بيّن . وقال يحيى بن سلام : بحجة بيّنة . والمعنى واحد؛ أى برهان بيّن .

قوله تعالى : وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعّدوه بالقتل فاستجار بالله . قال قتادة : « تَرْجُمُونِ » بالحجارة . وقال ابن عباس : تشتمونِ؛ فتقولوا ساحر كذاب . وأظهر الذال من « عُذْتُ » نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم و يعقوب . وأدغم الباقون . والإدغام طلبا للتخفيف، والإظهار على الأصل . ثم قيل : إنى عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال : « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا »[١] . وقيل : إنى أعوذ؛ كما تقول : نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله؛ أى أقسم .

قوله تعالى : وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِى ﴾ أى إن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل برهانى؛ فاللام فى « لى » لام أجل . وقيل : أى وإن لم تؤمنوا بى؛ كقوله : « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »[٢] أى به . ﴿ فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أى دعونى كَفافًا[٣] لا لِىَ ولا عَلَىّ؛ قاله مقاتل . وقيل : أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا . وقيل : خلّوا سبيلى وكُفُّوا عن أذاى . والمعنى متقارب، والله أعلم .

قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

---

(١) آية ٣٥ سورة القصص . (٢) آية ٢٦ سورة العنكبوت . (٣) أى مكفوفا عنى شركم .

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ فيه حذف ؛ أى فكفروا فدعا ربه . ﴿ أَنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ بفتح «أنّ » أى بأن هؤلاء . ﴿ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أى مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بنى إسرائيل ومن الإيمان .

قوله تعالى : فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى؛ أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل . ﴿ لَيْلًا ﴾ أى قبل الصباح . ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ وقرأ أهل الحجاز « فاْسر » بوصل الألف . وكذلك ابن كثير؛ من سرى . الباقون « فأسِر » بالقطع؛ من أسرى . وقد تقدم[1] . وتقدّم خروج فرعون وراء موسى فى « البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس[2] » و إغراقه و إنجاء موسى؛ فلا معنى للإعادة .

الثانيــة — أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا . وسَيْرُ الليل فى الغالب إنما يكون عن خَوْف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدوّ فيتخذ الليـل سِترا مُسْـدِلًا ؛ فهو من أستار الله تعالى . و إما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّ أو جَدْب ؛ فيتخذ السُّرى مصلحةً من ذلك . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَسْرِى و يُدْلج[3] و يترفّق و يستعجل ، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم "إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطُوا الإبل حَظّها من الأرض و إذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيها[4]" . وقد مضى فى أول « النحل[5] » ؛ والحمد لله .

قوله تعالى : وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

---

(١) راجع ج ٩ ص ٧٩ (٢) راجع ج ١ ص ٣٨٩ وما بعـدها . و ج ٨ ص ٣٧٧ وما بعدها . و ج ١١ ص ٢٢٧ وما بعدها . و ج ١٣ ص ١٠٥ وما بعدها . (٣) قوله : « يسرى » أى يسير عامة الليل . و « يدلج » أى سار من أول الليل . و ربما استعمل لسير آخر الليل . (٤) قوله : « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنق (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ ؛ ومعناه أسرعوا فى السير الإبل لتصلوا الى المقصد وفيها بقية من قوتها . (٥) راجع ج ١٠ ص ٧٣

قال ٱبن عباس : ﴿ رَهْوًا ﴾ أى طريقا . وقاله كعب والحسن . وعن ٱبن عباس أيضا سمتا . الضحاك والربيع : سهلا . عكرمة : يَبَسًا ؛ لقوله : « فَٱضْرِبْ لهم طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » . وقيل : مفترقا . مجاهد : منفرجا . وعنه يابسا . وعنه ساكنا ؛ وهو المعروف فى اللغة . وقاله قتادة والهَرَوِىّ . وقال غيرهما : منفرجا . وقال ٱبن عرفة : وهما يرجعان إلى معنًى واحد وإن اختلف لفظاهما ؛ لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج . وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام . والرَّهْوُ عند العرب : الساكن ؛ يقال : جاءت الخيل رَهْوًا ؛ أى ساكنة . قال :

والخيل تَمْزَع رَهْوًا فى أعنّتها　*　كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَد[1]

الجوهرى : و يقال ٱفعل ذلك رَهْوًا ؛ أى ساكنا على هِينَتِك[2] . وعيشٌ راهٍ ؛ أى ساكن رافه . وخِمْسٌ راهٍ ؛ إذا كان سهلا . ورها البحر أى سكن . وقال أبو عبيد : رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا أى فتح ؛ ومنه قوله تعالى : « وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » . والرَّهْوُ : السير السهل ؛ يقال : جاءت الخيل رهوا . قال ٱبن الأعرابى : رَهَا يَرْهُو فى السير أى رَفَق . قال القطامى فى نعت الركاب :

يَمْشِين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذِلةٌ　*　ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ

والرَّهْوُ والرَّهْوة : المكان المرتفع ، والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء ؛ وهو من الأضداد . وقال أبو عبيد : الرَّهْو : الجَوْبة تكون فى مَحَلّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره . وفى الحديث أنه قضى أن "لا شفعة فى فِناء ولا طريق ولا مَنْقَبة ولا رُكْح ولا رَهْوٍ[3]" . والجمع رِهَاء . والرَّهْو : المرأة الواسعة الهَنِ ؛ حكاه النَّضْر بن شُمَيل . والرَّهْو : ضرب من الطير ؛ و يقال :

(١) البيت للنابغة الذبيانى . و « تمزع » : تمر مرًّا سريعا . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصل محرفة ؛ ففى بعضها « تمرح » بالراء والحاء . وفى البعض الآخر : « تمرع » بالراء والعين . ويروى : « غربا » بدل « رهوا » أى حدة . و « الشؤبوب » : السحاب العظيم القطر .　(٢) الهينة (بالكسر) : السكينة والوقار .

(٣) الفناء : فناء الدار، وهو ما امتد معها من جوانبها . والمنقبة : هى الطريق بين الدارين . وقيل : هو الطريق الذى يعلو أنشاز الأرض . والركح (بالضم) : ناحية البيت من ورائه ؛ وربما كان فضاء لا بناء فيه .

هو الكُرْكِيّ . قال الهَرَوِيّ : ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى — وقاله القشيريّ — أي سِرْ ساكنا على هِينَتِك ؛ فالرّهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر . وعلى الأول هو من نعت البحر؛ أي اتركه ساكنا كما هو قد انفرق فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لما قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هـذا . وقيل : ليس الرّهْو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين ؛ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أي فرج . فقوله : «رهوا» أي منفرجا . وقال الليث : الرهو مَشْيٌ في سكون؛ يقال : رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ . وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض . وافعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا؛ أي ساكنا بغير شدّة . وقد ذكرناه آنفا . ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي إن فرعون وقومه . ﴿جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُـونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء»[1] مستوفًى . ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ النَّعْمة (بالفتح) التنعيم؛ يقال : نعّمه الله وناعَمه فتنعّم . وامرأة مُنَعَّمة ومُنَاعَمَة؛ بمعنًى . والنِّعمة (بالكسر) اليَـدُ والصَّنِيعة والمِنة وما أنعم به عليـك . وكذلك النُّعْمَى . فإن فتحت النون مددت وقلت : النَّعماء . والنعيم مثله . وفلان واسع النِّعمة؛ أي واسع المـال . جميعه عن الجوهريّ . وقال ابن عمر : المراد بالنَّعمة نيل مصر . ابن لهِيعة : الفيوم . ابن زياد: أرض مصر لكثرة خيرها . وقيل : ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعَة . وقد يقال : نَعْمَة ونِعْمَة (بفتح النون وكسرها)؛ حكاه المـاورديّ . قال : وفي الفرق بينهما وجهان : أحدهما — أنها بكسر النون في المِلْك، وبفتحها في البَدَن والدِّين؛ قاله النَّضْر بن شُمَيل . الثاني — أنها بالكسر من المِنّة وهو الإفضال والعطيّة، وبالفتح من التنعيم وهو سَعة العيش والراحة؛ قاله ابن زياد .

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

قلت : هـذا الفرق هو الذى وقع فى الصّحاح وقد ذكرناه . وقـرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة « فَكِهِين » بغير ألف ؛ ومعناه أَشِرين بَطِرين . قال الجوهرى : فَكِه الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيِّب النفس مزّاحا . والفكِه أيضا الأَشِر البَطِر . وقرئ « ونَعْمَةٍ كانوا فِيها فَكِهِين » أى أَشِرين بَطِرين . و «فاكهين» أى ناعمين. القشيرى : «فاكهين» لاهين مازحين ؛ يقال : إنه لفاكه أى مَزّاح. وفيه فُكاهة أى مزح . الثعلبىّ : وهمـا لغتان كالحاذر والحَـذِر ، والفارِه والفَرِه . وقيـل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة . والفاكهة : فضـلٌ عن القوت الذى لا بدّ منه .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَـوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قال الزجاج : أى الأمر كذلك ؛ فيوقف على « كذلك » . وقيل : إن الكاف فى موضع نصب ، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه . وقال الكلبى : « كذلك » أفعـل بمن عصانى . وقيـل : « كذلك » كان أمرهم فأهلكوا . ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصاروا لها وارثين ؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث . ونظيره « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا[١] » الآية .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى لكفرهم . ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ . أى مؤخرين بالغرق . وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ؛ أى عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق ، وبكته الليالى الشاتيات . قال الشاعر :

---

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

فالريح تبكى شَجْوَها * والبرق يلمع فى الغمامه[1]

وقال آخر[2] :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة * تبكِى عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجية[3] :

أيا شجر الخابور مالك مُورِقًا * كأنك لم تجزع على ابن طَرِيف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً فى وجوب الجزع والبكاء عليه . والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْد . وقيل : فى الكلام إضمار ؛ أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : « وَٱسأل القرية » بل سرّوا بهلاكهم ؛ قاله الحسن . وروى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان باب ينزل منه رزقه و باب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ـ ثم تلا ـ «فما بكت عليهم السماء والأرض» ". يعنى أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم لأجله ، ولا صعِد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكى فَقْدَ ذلك . وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى : فعجبت من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكى على عبد يَعْمُرها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِىٌّ كدوِىّ النحل ! . وقال علىّ وابن عباس رضى الله عنهما : إنه يبكى عليه مُصَلّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء . وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض . وهو معنى قول سعيد بن جُبير . وفى بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان . ويشبه أن يكون قولَ مجاهد . وقال شُريح الحضرمى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغُرَباء يوم القيامة ـ

---

(١) البيت ليزيد بن مُفَرِّغ الحميرى . وقد ورد هذا البيت فى الأصول محرفا ؛ والتصويب عن وفيات الأعيان وشرح الكامل . (٢) هو جرير . (٣) الخارجية هى ليلى بنت طريف الشيبانى ترثى أخاها الوليد ابن طريف ؛ وكان رأس الخوارج وأشدّهم بأسا وصولة .

قيل : من هم يارسول الله؟ قال — هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا — ثم قال — ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن فى غُربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « فما بكت عليهم السماء والأرض » — ثم قال — ألا إنهما لا يبكيان على الكافر ".

قلت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال : حدثنا أبو شعيب الحَرّانى قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعىّ قال حدثنى عطاء الخراسانى قال : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقيل : بكاؤهما حمرة أطرافهما ؛ قاله علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — وعطاء والسُّدّى والترمذى محمد ابن علىّ وحكاه عن الحسن . قال السُّدّى : لما قُتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما بكت عليه السماء ؛ وبكاؤها حمرتها . وحكى جرير عن يزيد بن أبى زياد قال : لما قتل الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما احمرّ له آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد : واحمرارها بكاؤها . وقال محمد بن سِيرين : أخبرونا أن الحمرة التى تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقال سليمان القاضى : مُطِرْنا دمًا يوم قتل الحسين .

قلت : روى الدارَقُطنِىّ من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمرة " . وعن عُبادة بن الصامت وشداد ابن أوس قالا : الشفق شفقان، الحمرة والبياض ؛ فإذا غابت الحمرة حَلّت الصلاة . وعن أبى هريرة قال : الشفق الحمرة . وهذا يردّ ما حكاه ابن سِيرين . وقد تقدم فى « سبحان »[1] عن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن علىّ ، وحمرتها بكاؤها . وقال محمد بن على الترمذى : البكاء إدرار الشىء فإذا أدرّت العين بمائها قيل بكت ، وإذا أدرّت السماء بحمرتها قيل بكت ، وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت ؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله ؛ فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك ، فإن فقدت نور المؤمن اغبرّت فدرّت

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠ .

بإدبارها ؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك ، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن ؛ فإذا قبض المؤمن منها درّت بغبرتها . وقال أنس : لما كان اليوم الذى دخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء ، فلما كان اليوم الذى قبض فيه أظلم كلّ شيء ، وإنا لفى دفنه ما نفضنا الأيدى منه حتى أنكرنا قلوبنا . وأما بكاء السماء فحمرتها كما قال الحسن . وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر ، وإنما ذلك لدنو الساعة ، فتدرّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين . وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدلّ على أسف وحزن .

قلت : والقول الأول أظهر ؛ إذ لا استحالة فى ذلك . وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم — كما بيناه فى « سبحان ومريم وحم فصلت »[1] — فكذلك تبكى ؛ مع ما جاء من الخبر فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ ﴾

يعنى ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم إياهم وتكليفهم الأعمال الشاقة . ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من « العذابِ المهينِ » فلا تتعلق « مِن » بقوله : « مِنَ العذابِ » لأنه قد وصف ، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل . وقيل : أى أنجيناهم من العذاب ومن فرعون . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى جبارا من المشركين . وليس هذا عُلوّ مَدْح بل هو عُلُوٌّ فى الإسراف ؛ كقوله : « إِنّ فِرعون علا فِى الأرضِ »[2] . وقيل : هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولَقَد اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ يعنى بنى إسرائيل . ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أى على علم منا بهم لكثرة الأنبياء منهم . ﴿ على العالَمِينَ ﴾ أى عالمى زمانهم ؛ بدليل قوله لهذه الأمة : « كنتم خَيْرَ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ وجـ ١١ ص ١٥٧ وجـ ١٥ ص ٣٤٤ (٢) آية ٤ سورة القصص .

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[1] » . وهذا قول قتادة وغيره . وقيل على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزَّمَخْشَرِيّ وغيرهما . ويكون قوله : « كنتم خَيْرَ أمّةٍ » أى بعد بنى إسرائيل . والله أعلم . وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآياتِ ﴾ أى من المعجزات لموسى . ﴿ ما فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ قال قتادة : الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم وإنزال المَنّ والسَّلْوَى . ويكون هذا الخطاب متوجِّها إلى بنى إسرائيل . وقيل : إنها العصا واليد . ويشبه أن يكون قول الفرّاء . ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون . وقول ثالث — إنه الشر الذى كَفَّهم عنه والخير الذى أمرهم به ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معًا من قوم فرعون وبنى إسرائيل . وفى قوله : « بَلَاءٌ مُبِينٌ » أربعة أوجه : أحدها — نعمة ظاهرة ؛ قاله الحسن وقتادة . كما قال الله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا[2] » . وقال زُهير :

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذى يَبْلُو[3]

الثانى — عذاب شديد ؛ قاله الفرّاء . الثالث — اختيار يتميز به المؤمن من الكافر ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وعنه أيضا : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والخيرِ فِتنةً[4] » .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِءَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

---

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران .　(٢) آية ١٧ سورة الأنفال .　(٣) صدره :
* رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم *　(٤) آية ٣٥ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعنى كفار قريش ﴿ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ ابتداء وخبر . مثل « إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ »[١] ، « إن هِيَ إِلا حياتُنَا الدُّنيا »[٢] ﴿ وما نحن بِمُنْشَرِينَ ﴾ أى بمبعوثين . ﴿ فأْتُوا بآبائنا إِن كُنتُمْ صادِقِينَ ﴾ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدّم[٣] .
والمنشورون المبعوثون . قيل : إنّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال : يا محمد، إن كنت صادقا فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا، أحدهما — قُصَىّ بن كِلَاب فإنه كان رجلا صادقا، لنسأله عما يكون بعد الموت . وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف؛ فكأنه قال : إن كنت صادقا فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف . وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء؛ حكاه الماوردى . ثم قيل : «فأتوا بآبائنا» مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحده؛ كقوله : « رَبِّ ٱرجِعُونِ »[٤] قاله الفرّاء . وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

قوله تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أم قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هذا استفهام إنكار؛ أى إنهم مستحقون فى هذا القول العذاب؛ إذ ليسوا خيرا من قوم تبع والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء . وقيل : المعنى أهم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تُبّع . وقيل : أهم أعزّ وأشدّ وأمنع أم قوم تبع . وليس المراد بتُبّع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة . فتُبّع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين، وكِسْرَى للفُرْس، وقَيْصَر للروم . وقال أبو عبيدة : سُمِّىَ كل واحد منهم تُبّعا لأنه يتبع صاحبه . قال الجوهرى : والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبّع . والتُّبّع أيضا الظِّل؛ وقال :

---

(١) آية ١٥٥ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٩ سورة الأنعام . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٧٨
(٤) آية ٩٩ سورة المؤمنون .

يَرد المياه حَضِيرةً ونَفيضةً * وِرْدَ القطاة إذا اسْمَألَّ التُّبَّعُ[1]

والتبع أيضا ضرب من الطير . وقال السهيلي : تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر وحضرموت ، وإن مَلَكَ اليمن وحدها لم يقل له تبع ؛ قاله المسعودى . فمن التبابعة : الحارث الرائش ، وهو ابن همال ذى سدد[2] . وأبرهة ذو المنار . وعمرو ذو الأذعار . وشمر بن مالك ، الذى تنسب إليه سَمَرْقَنْد . وأفريقيس بن قيس ، الذى ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان ، وبه سميت إفريقية .

والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما أراد واحدا من هؤلاء ، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره ؛ ولذلك قال عليه السلام : "ولا أدرى أتُبّع لَعِينٌ أم لا" . ثم قد روى عنه أنه قال : "لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمنا" . فهذا يدلّك على أنه كان واحدا بعينه ، وهو — والله أعلم — أبو كرب الذى كسا البيت بعد ما أراد غَزْوَه ، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها ، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهاجَر نبيّ اسمه أحمد . وقال شعرا أودعه عند أهلها ؛ فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدَّوْه إليه . ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبى أيوب خالد بن زيد . وفيه :

شهدت على أحمد أنه * رسول من الله بارى النَّسَمْ
فلو مُدّ عمرى إلى عمره * لكنت وزيرًا له وابنَ عَمّ

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا والزمخشرى وغيرهم أنه حُفر قبر له بصنعاء — ويقال بناحية حمير — فى الإسلام ، فوجد فيه امرأتان صحيحتان ، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب "هذا قبر حُبَّى ولَمِيس" ويروى أيضا : حبى وتماضر ، ويروى أيضا : هذا قبر رضوى وقبر حُبّى ابنتا تبع ، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئا ؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

(١) البيت لسعدى — وقيل لسلمى — الجهنية ترثى أخاها أسعد . والحضيرة والنفيضة : جماعة القوم . وقيل : النفر يغزى بهم . وقيل غير هذا . واسمأل الظل : قصر وضمر ؛ وذلك عند نصف النهار .

(٢) وردت هذه الأسماء محرّفة .

قلت : وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فى الكتاب الذى كتبه : « أما بعد، فإنى آمنت بك و بكتابك الذى أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنّتك ، وآمنت بربّك وربّ كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربّك من شرائع الإسلام؛ فإن أدركتُك فبها ونِعْمَت ، و إن لم أدركك فاشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة ؛ فإنى من أمتك الأوّلين و بايعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملّة أبيك إبراهيم عليه السلام » . ثم ختم الكتاب ونقش عليه : « لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » . وكتب على عنوانه « إلى محمد بن عبد الله نبيّ الله ورسوله، خاتم النبيّين ورسول ربّ العالمين صلى الله عليه وسلم . من تُبّع الأول » . وقد ذكرنا بقيّة خبره وأوله فى « اللمع اللؤلؤية فى شرح العشر بينات النبوية »[1] للفارابى رحمه الله . وكان من اليوم الذى مات فيه تبع إلى اليوم الذى بعث فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا يزيد ولا ينقص .

واختلف هل كان نَبِيًّا أو ملِكا؛ فقال ابن عباس : كان تبع نبيًّا . وقال كعب : كان تبع ملِكا من الملوك، وكان قومه كُهّانًا وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمر الفريقين أن يقرّب كل فريق منهم قُرْبَانًا ففعلوا، فتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تسبّوا تُبّعًا فإنه كان رجلا صالحا . وحكى قتادة أن تبعًا كان رجلا من حِمير، سار بالجنود حتى عَبَر الحِيرة وأتى سَمَرْقَنْد فهدمها؛ حكاه الماوردى . وحكى الثعلبى عن قتادة أنه تبع الحِميرى، وكان سار بالجنود حتى عبر الحِيرة . و بنى سَمَرْقَنْد وقتل وهدم البلاد . وقال الكلبي : تبع هو أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب ، و إنما سمى تبعا لأنه تَبِع مَن قبله . وقال سعيد بن جُبير : هو الذى كسا البيت الحِبَرات[2] . وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمّه، وضرب بهم لقريش مثلًا لقربهم من دارهم وعِظَمهم فى نفوسهم ؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم — لأنهم كانوا مجرمين — كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك . وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تبع خيرا من قريش . وقيل : سُمّىَ أوّلهم تبعًا لأنه اتبع قرن الشمس وسافر فى الشرق مع العساكر .

---

(١) اضطربت الأصول فى هذا الكتاب وفى اسم مؤلفه، ولم نعثر عليه .

(٢) الحبرات (بكسر فقتح جمع حِبَرة وحِبَرة) : ضرب من برود اليمن مُنَمَّر .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع عطف على « قَوْمُ تُبَّعٍ » . « أهلكناهم » صلته . و يكون « مِنْ قبلِهِم » متعلقًا به . و يجوز أن يكون « مِن قبلهم » صلة « الذين » ويكون فى الظرف عائد إلى الموصول . و إذا كان كذلك كان « أهلكناهم » على أحد أمرين : إمّا أن يقدّر معه « قد » فيكون فى موضع الحال . أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكناهم . والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاءِ المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين . و يجوز أن يكون « والذين مِن قبلِهم » ابتداء خبره « أهلكناهم » . و يجوز أن يكون « الذين » فى موضع جر عطفا على « تبع » كأنه قال : قوم تبع المهلكين من قبلهم . و يجوز أن يكون « الذين » فى موضع نصب باضمار فعل دل عليه « أهلكناهم » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى غافلين ؛ قاله مقاتل . وقيل : لاهين ؛ وهو قول الكلبي . ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل . وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن . وقيل : إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنبياء »[(١)] . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى أكثر الناس . ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . دليله قوله تعالى : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ »[(٢)] . ونظيره قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »[(٣)] . فـ« يوم الفصل » ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »[(٤)] أى الوقت المجعول لتمييز المسىء من المحسن ، والفصل بينهما : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهذا غاية فى التحذير والوعيد . ولا خلاف بين القراء فى رفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٦ .	(٢) آية ٣ سورة الممتحنة .	(٣) آية ١٤ سورة الروم .
(٤) آية ١٧ سورة النبأ .

« مِيقَاتُهُـمْ » على أنه خبر « إنّ » واسمها « يَوْمَ الفَصْـلِ » . وأجاز الكسائى والفرّاء نصب « ميقاتهم » . بـ « إن » و « يوم الفصل » ظرف فى مـوضع خبر « إن » ؛ أى إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعـالى : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُـوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول . والمَوْلَى : الوَلِيُّ وهو ابن العمّ والناصر . أى لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ، ولا قريبٌ عن قريبه ، ولا صديقٌ عن صديقه . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته . ونظير هذه الآية « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا [(١)] » الآية . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ « مَن » رفع على البدل من المضمر فى « يُنْصَرُونَ » ؛ كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان . أو على الابتداء والخـبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فمغفور له ؛ أو فيغنى عنـه ويشفع وينصر . أو على البدل من « مَوْلًى » الأول ؛ كأنه قال : لا يغنى إلا من رحم الله . وهو عند الكسائى والفرّاء نصب على الاسـتثناء المنقطع ؛ أى لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغنيهم من المخلوقين . ويجوز أن يكون اسـتثناء متصلا ؛ أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم فى شـفاعة بعضهم لبعض . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى المنتقم من أعدائه الرحيمُ بأوليائه ؛ كما قال « شَدِيدِ العِقَابِ ذِى الطَّوْلِ [(٢)] » فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعـالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّـومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ كل ما فى كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهـاء ؛ إلا حرفا واحدا فى سـو رة الدخان « إن شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » ؛ قاله

(١) آية ٤٨ سورة البقرة . (٢) آية ٣ سورة غافـر .

ابن الأنبارى . و ﴿ الْأَثِيمِ ﴾ الفاجر ؛ قاله أبو الدرداء . وكذلك قرأ هو وابن مسعود . وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرئ رجلا « إن شجرة الزقومِ طعام الأثِيم » والرجل يقول : طعام اليتيم ؛ فلما لم يفهم قال له : « طعام الفاجر » . قال أبو بكر الأنبارىّ : حدّثنى أبى قال حدّثنا نصر قال حدّثنا أبو عبيد قال حدّثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : عَلّم عبد الله بن مسعود رجلا « إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم ؛ فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ؛ فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر؟ قال بلى ؛ قال فافعل . ولا حجة فى هذا للجهال من أهل الزَّيْغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للتعلّم ، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزمخشرىّ : « وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤديةً معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهى أن يؤدّى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأن فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعانى والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى علىّ بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية » . وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسمّاها الشجرة الملعونة ؛ فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغليت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار . وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحاس المذاب . وقراءة العامة « تَغْلِى » بالتاء حملًا على الشجرة . وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيصِن ورُوَيس عن يعقوب « يغلى » بالياء حملًا على الطعام ؛ وهو فى معنى الشجرة . ولا يُحمل على المُهْل لأنه

ذكر للتشبيه . و « الأثيم » الآثم ؛ من أثِم يأثَم إثْماً ؛ قاله القشيرى وابن عيسى . وقيل هو المشرك المكتسب للإثم ؛ قاله يحيي بن سلام . وفى الصحاح : وقد أثِم الرجل (بالكسر) إثما ومأثما إذا وقع فى الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضا . فمعنى « طَعَامُ الْأَثِيمِ » أى ذى الإثم الفاجر ؛ وهو أبو جهل . وذلك أنه قال : يَعِدُنا محمد أن فى جهنم الزقوم ، وإنما هو الثريد بالزُّبد والتمر ؛ فبيّن الله خلاف ما قاله . وحكى النقّاش عن مجاهد أن شجرة الزّقوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد . وهو مردود بما ذكرناه فى هذه الشجرة فى سورة « الصافات وسبحان »(١) أيضا .

قوله تعالى : خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أى يقال للزبانية خذوه ؛ يعنى الأثيم . ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أى جُرّوه وسُوقوه . والعَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِله ؛ أى تجره إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة . عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلاً إذا جذبته جَذْبا عنيفا . ورجل مِعْتَل (بالكسر) . وقال يصف فرسًا :

* نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعْتِلُه(٢) *

وفيه لغتان : عَتَله وعَتَنه (باللام والنون جميعا) ؛ قاله ابن السكيت . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « فآعتِلوه » بالكسر. وضم الباقون . ﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ وسط الجحيم . ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ . قال مقاتل : يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبى جهل بمقمع من حديد ؛ فيتفتّت رأسه عن دماغه ، فيجرى دماغه على جسده ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ وجـ ١٥ ص ٨٥

(٢) القائل هو أبو النجم ؛ وقبله :

طار عن المهر نَسيل ينسله * عن مفرع الكتفين حُرٍّ عَطَله

ثم يصبّ الملك فيه ماء حميما قد انتهى حره فيقع فى بطنه؛ فيقول الملَك: ذُقِ العذاب. ونظيره «يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ»[(١)].

قوله تعالى: ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنبارى: أجمعت العوام على كسر «إنّ». وروى عن الحسن عن علىّ رحمه الله «ذق أنك» بفتح «أن»، وبها قرأ الكسائىّ. فمن كسر «إن» وقف على «ذُقْ». ومن فتحها لم يقف على «ذق»؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم. قال قتادة: نزلت فى أبى جهل وكان قد قال: ما فيها أعزّ منّى ولا أكرم؛ فلذلك قيل له: ذق إنك أنت العزيز الكريم. وقال عكرمة: التقى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إن الله أمرنى أن أقول لك أَوْلَى لك فأولى" فقال: بأى شىء تهدّدنى! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه على قومه؛ فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية. أى يقول له الملك: ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أى قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شعيب لشعيب: «إنّك لأنت الحليمُ الرَّشِيدُ»[(٢)] يعنون السفيه الجاهل فى أحد التأويلات على ما تقدّم[(٣)]. وهذا قول سعيد بن جبير. ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أى تقول لهم الملائكة: إن هذا ما كنتم تشكون فيه فى الدنيا.

قوله تعالى: إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

---

(١) آية ١٩ سورة الحج. (٢) آية ٨٧ سورة هود. (٣) راجع جـ ٩ ص ٨٧

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ لما ذكر مستقر الكافرين وعذابهم ذكر نزل المؤمنين ونعيمهم . وقرأ نافع وابن عامر « في مُقام » بضم الميم . الباقون بالفتح . قال الكسائى : المَقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال :

* عفَتِ الديارُ محلُّها فمُقَامُها * (١)

قال الجوهرى : وأما المَقام والمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج وهذا مُدَحْرَجُنا . وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس، و (بالضم) يمكن أن يراد به المكان، و يمكن أن يكون مصدرا و يقدّر فيه المضاف، أى فى موضع إقامة . ﴿ أمينٍ ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بدل « من مقام أمين » . ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا . والسُّنْدُس : مارقّ من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه . وقد مضى فى « الكهف » (٢) .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كذلك الذى ذكرناه . فيوقف على « كذلك » . وقيل : أى كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم حُورًا عِينًا . وقد مضى الكلام فى العِين فى « والصافات » (٣) . والحُور : البِيض؛ فى قول قتادة والعامة، جمع حوراء . والحَوْراء : البيضاء التى يرى ساقها من وراء ثيابها، و يرى الناظر وجهه فى كعبها؛ كالمرآة من دقة الجلد و بضاضة البشرة وصفاء اللون . ودليل هذا التأويل أنها فى حرف ابن مسعود « بعِيس عِين » (٤) . وذكر أبو بكر الأنبارى أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدّثنا حسين

---

(١) هذا أوّل معلقة لبيد . وتمامه : * بمِنًى تأبد غولها فرجامها *

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٥

(٤) العيس (بالكسر) : بياض يخالطه شىء من شقرة .

قال حدّثنا عمار بن محمد قال : صلّيت خلف منصور بن المعتمر فقرأ فى « حم » الدخان « بعِيس عِين . لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى » . والعِيس : البيض ؛ ومنه قيل للإبل البيض : عيس ، واحدها بعير أعْيَس وناقة عَيْساء . قال امرؤ القيس :

يَرُعْنَ إلى صوتى إذا ما سمعنه * كما ترْعَوِى عِيطٌ إلى صوت أعْيَسا (١)

فمعنى الحور هنا : الحسان الثاقبات (٢) البياض بحسن . وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحُور العين ليرى مُخّ ساقها من وراء اللحم والعظم ، ومن تحت سبعين حُلّة ، كما يُرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال مجاهد : إنما سُمّيت الحُور حورا لأنهنّ يحار الطرف فى حسنهنّ و بياضهنّ وصفاء لونهنّ . وقيل : إنما قيل لهنّ حور لحَوَر أعينهنّ . والحَوَر : شدّة بياض العين فى شدّة سوادها . امرأة حَوْراء بيّنة الحَوَر . يقال : احورّت عينه احورارا ، واحورّ الشىء ابيض . قال الأصمعى : ما أدرى ما الحَوَر فى العَين؟ وقال أبو عمرو : الحَوَر أن تسودّ العين كلّها مثل أعين الظباء والبقر . قال : وليس فى بنى آدم حَوَر ؛ و إنما قيل للنساء : حُور العين لأنهنّ يشبّهن بالظباء والبقر . وقال العَجّاج :

* بأعْينٍ مُحَوَّراتٍ حُورِ (٣) *

يعنى الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحَدَق . والعِين جمع عَيْناء ؛ وهى الواسعة العظيمة العينين . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مهور الحُور العين قبضات التمر وفِلَق الخبز " . وعن أبى قِرصافة (٤) سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إخراج القُمَامة من المسجد مهور الحور العِين " . وعن أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) العيط (جمع عيطاء) . الناقة الفتية التى لم تحمل . (٢) الثاقب : المضىء .

(٣) فى الأصول : * بأعين محورات بيض *

والتصويب عن أراجيز العجاج . وقبله : * إذ ترمى من خلل الخدور *

وبعده : * خزر بألباب إلىّ صُور *

(٤) أبو قرصافة (بكسر أوله) اسمه جندرة بن خيشنة الكنانى .

قال : "كنس المساجد مهور الحور العين" ذكره الثعلبي رحمه الله . وقد أفردنا لهذا المعنى بابا مفردا فى (كتاب التذكرة) والحمد لله .

واختلف أيما أفضل فى الجنة، نساء الآدميات أم الحور ؟ فذكر ابن المبارك قال : وأخبرنا رِشْدِين عن ابن أنْعُم عن حِبّان بن أبي جَبَلة قال : إن نساء الآدميات من دخل منهنّ الجنة فُضّلن على الحُور العِين بما عملن فى الدنيا . وروى مرفوعا إن "الآدميات أفضل من الحُور العِين بسبعين ألف ضعف" . وقيل : إن الحور العين أفضل، لقوله عليه السلام فى دعائه : "وأبدله زوجًا خيرا من زوجه". والله أعلم . وقرأ عكرمة « بِحُورِ عِينٍ » مضاف . والإضافة والتنوين فى « بحور عين » سواء .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ ﴾

قال قتادة : « آمنين » من الموت والوَصَب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ أى لا يذوقون فيها الموت ألْبَتّة لأنهم خالدون فيها . ثم قال : ﴿ إلّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ على الاستثناء المنقطع ؛ أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وأنشد سيبويه :

من كان أسرع فى تَفَرُّق فالج * فلَبُونه جَرِبتْ معًا وأغدّتِ [(١)]

---

(١) فى كتاب سيبويه : * من كان أشرك *
والقائل هو عنز بن دجاجة المازنى . وفالج هذا ؛ هو فالج بن مازن بن مالك . سعى عليه بعض بنى مازن وأساء اليه حتى رحل عنهم ، ولحق ببنى ذكوان بن بهثة فنسب اليهم . وكانت بنو مازن قد ضيقوا على رجل منهم يسمى « ناشرة » حتى انتقل عنهم الى بنى أسد ، فدعا هذا الشاعر المازنى على بنى مازن حيث اضطروه فألجئ الى الخروج عنهم . واستثنى « ناشرة » منهم ؛ لأنه لم يرض فعلهم ، ولأنه قد امتحن محنة « فالج » بهم . واللبون : ذوات اللبن ، وتقع للواحد والجماعة . ومعنى « أغدت » صارت فيها الغدة ، وهى من أدواء الإبل كالذبحة . والغلواء : النماء والارتفاع . والمتنبت : المنمى والمغذى . و يروى بكسر الباء ، ومعناه النابت النامى . (عن شرح الشواهد) .

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال :

إلا كناشِرةَ الذى ضيّعتمُ * كالغصن فى غُلوائه المتنبِّتِ

وقيل : إن « إلا » بمعنى بعد؛ كقولك : ما كلّمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك؛ أى بعد رجل عندك . وقيل : « إلا » بمعنى سوى؛ أى سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »(١) . وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس . وقال القتبى : « إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلقى الرَّوح والرَّيحان، وكان موته فى الجنة لاتصافه بأسبابها؛ فهو استثناء صحيح . والموت عَرَض لا يذاق ، ولكن جعل كالطعام الذى يكره ذوقه ، فاستعير فيه لفظ الذوق . ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم . ف « فضلا » مصدر عمل فيه « يدعون » . وقيل : العامل فيه « ووقاهم » . وقيل فعل مضمر . وقيل : معنى الكلام الذى قبله؛ لأنه تفضل منه عليهم ، إذ وفّقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة . وقيل : هو من قولك فاز بكذا؛ أى ناله وظفر به .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يعنى القرآن؛ أى سهّلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى يتعظون وينزجرون . ونظيره « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »(٢) . فختم السورة بالحثّ على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا؛ كما قال فى مفتتح السورة : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » ، « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ » على ما تقدم . ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ أى انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ؛ حكاه

---

(١) آية ٢٢ سورة النساء .

(٢) آية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ سورة القمر .

النقاش . وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان . والمعنى متقارب . وقيل : ارتقب ما وعدتك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة؛ جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم .

سورة الجاثية

مكّيّة كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، هي : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ »[1] نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ ذكره الماورديّ ، وقال المهدويّ والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت في عمر رضى الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عزّ وجلّ « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ » ثم نسخت بقوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[2] . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهى سبع وثلاثون آية . وقيل ست .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ مبتدأ و﴿ تَنْزِيلُ ﴾ خبره . وقال بعضهم : « حمٓ » اسم السورة . و« تنزيل الكتاب » مبتدأ . وخبره « من الله » . والكتاب القرآن . و« العزيز » المنيع . « الحكيم » في فعله . وقد تقدّم جميع هذا[3] .

قوله تعالى : إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ

(١) آية ١٤ . (٢) آية ٥ سورة التوبة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ وجـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى فى خلقهما ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ يعنى المطر . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدّم جميعه مستوفًى فى «البقرة»(١) وغيرها . وقراءة العامة « وما يَبُثُّ من دابة آياتٌ » « وتَصريف الرِّياح آياتٌ » بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائى بكسر التاء فيهما . ولا خلاف فى الأوّل أنه بالنصب على اسم « إنّ » وخبرها «فى السموات» . ووجه الكسر فى «آيات» الثانى العطف على ما عملت فيه ؛ التقدير : وإن فى خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ . فأما الثالث فقيل : إن وجه النصب فيه تكرير « آيات » لما طال الكلام ؛ كما تقول : ضربت زيدا زيدا . وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه «إنّ» على تقدير حذف «فى» ؛ التقدير: وفى اختلاف الليل والنهار آيات . فحذفت « فى » لتقدّم ذكرها . وأنشد سيبويه فى الحذف :

أَكُلَّ امرئٍ تَحْسِبِينَ امرأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا(٢)

فحذف « كل » المضاف إلى نار المجرورة لتقدّم ذكرها . وقيل : هو من باب العطف على عاملين . ولم يجزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف «اختلاف» على قوله : « وفى خلقكم » ثم قال : « وتصريف الرياح آيات » فيحتاج إلى العطف على عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا فى حال . وأما قراءة الرفع فحملا على موضع « إن » مع ما عملت فيه . وقد ألزم النحويون فى ذلك أيضا العطف على عاملين ؛ لأنه عطف على « واختلاف » على «وفى خلقكم» ، وعطف « آيات » على موضع « آيات » الأوّل ، ولكنه يقدّر على تكرير «فى» . ويجوز أن يرفع

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ وما بعدها . وجـ ١٤ ص ٥٨ (٢) البيت لأبى دؤاد الأيادى .

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة . وحكى الفراء رفع «اختلاف» و«آيات» جميعا، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آياتُ اللهِ ﴾ أى هذه آيات الله ؛ أى حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى بالصدق الذى لا باطل ولا كذب فيه . وقرئ «يتلوها» بالياء . ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ ﴾ وقيل بعد قرآنه ﴿ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر . وقرأ ابن مُحَيْصِن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائى «تؤمنون» بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ «ويل» وادٍ فى جهنم . توعّد من ترك الاستدلال بآياته . والأفّاك : الكذاب . والإفك الكذب . «أثيم» أى مرتكب للإثم . والمراد فيما رُوى النضرُ بن الحارث . وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة . وحكى الثعلبى أنه أبو جهل وأصحابه . ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ يعنى آيات القرآن . ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد ؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدّها . قال معناه ابن عباس وغيره . وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة[(١)]، وهو أن ينحى عليها صارًّا أذنيه . و«أنْ» من «كأنْ» مخففة من الثقيلة ؛ كأنه لم يسمعها ، والضمير ضمير الشأن ؛ كما فى قوله : * كأنْ ظَبْيَة تَعْطُو إلى ناضر السَّلَم[(٢)] *

---

(١) العانة : الأتان (الحمارة) . (٢) ويروى : الى وارق السلم . وهذا عجز بيت لابن صريم اليشكرى . وصدره كما فى كتاب سيبويه والمقاصد النحوية : * ويوما توافينا بوجه مقسم * والمقسم : المحسن . و«تعطو» : تتناول . و«السلم» : شجر بعينه . وصف امرأة حسنة الوجه فشبهها بظبية مخصبة المرعى .

ومحل الجملة النصب؛ أى يصرّ مثل غير السامع . وقد تقدّم فى أوّل « لقمان » القول فى معنى هذه الآية (١) . وتقدّم معنى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فى « البقرة » (٢) .

قوله تعالى : وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ نحو قوله فى الزقوم : إنه الزبد والتمر، وقوله فى خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذلٌّ مُخزٍ . ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ما هم فيه من التعزز فى الدنيا والتكبر عن الحق جهنمُ . وقال ابن عباس : « من ورائهم جهنم » أى أمامهم ؛ نظيره « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ » (٣) أى من أمامه . قال :

أليس ورائى إن تراخت منيّتى * أدُبّ مع الولدان أزْحَفُ كالنَّسْر

﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أى من المال والولد ؛ نظيره « لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شيئا » (٤) أى من المال والولد . ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى دائم مؤلم .

قوله تعالى : هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر ؛ يعنى القرآن . وقال ابن عباس : يعنى كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى جحدوا دلائله .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٥٧ (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ١٦ سورة إبراهيم . (٤) آية ١٠ سورة آل عمران .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز العذاب ؛ أى لهم عذاب من عذاب أليم ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السماءِ » (١) أى عذابا . وقيل : الرجز القذر مثل الرجس ؛ وهو كقوله تعالى : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ » (٢) أى لهم عذاب من تجرع الشراب القذر . وضم الراء من الرجز ابن مُحَيْصِن حيث وقع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحفص « اليم » بالرفع ؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز . الباقون بالخفض نعتا للرجز .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ يعنى أن ذلك فعله وخلقه وإحسانٌ منه وإنعام . وقرأ ابن عباس والجَحْدَرِى وغيرهما « جميعا مِنَّةً » بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوبا على المصدر . قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها « مِنَّةً » أى تفضلا وكرما . وعن مسلمة بن محارب أيضا « جميعا مَنُّهُ » على إضافة المَنّ إلى هاء الكناية . وهو عند أبى حاتم خبر ابتداء محذوف ؛ أى ذلك، أو هو مَنُّه . وقراءة الجماعة ظاهرة . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ جزم على جواب « قل » تشبيها بالشرط والجزاء ؛ كقولك : قم تُصِب خيرا . وقيل : هو على حذف اللام . وقيل : على معنى قل

(١) آية ٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٦ سورة إبراهيم .

لهم اغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه ؛ قاله علىّ بن عيسى واختاره ابن العربىّ . ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به. قال ابن العربىّ : وهـذا لم يصح . وذكر الواحدىّ والقشيرىّ وغيرهما عن ابن عبـاس أن الآية نزلت فى عمر مع عبد الله بن أُبَىّ فى غَزْوة بنى المُصْطَلِق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لهـا المُرَيْسِيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى ، وأبطأ عليه فقال : ما حبسك؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قِرب النبىّ صلى الله عليه وسلم وقِرب أبى بكر ، وملأ لمولاه . فقـال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيـل : سَمِّن كلبك يأكلك . فبلغ عمرَ رضى الله عنه قولُه ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية . هذه رواية عطاء عن ابن عباس . وروى عنه ميمون بن مِهران قال : لمـا نزلت « مَنْ ذا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا »[(١)] قال يهودىّ بالمدينة يقال له فِنْحاص : احتاج ربّ محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج فى طلبـه ؛ فجاء جبريل عليـه السلام إلى النبىّ صـلى الله عليه وسلم فقال : "إن ربّك يقول لك قُلْ لِلذين آمنوا يَغْفِرُوا لِلذين لا يَرْجُون أيّامَ اللهِ" . وأعلم أن عمـر قد اشتمل على سيفه وخرج فى طلب اليهودى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه ، فلما جاء قال : "يا عمر ، ضع سيفك" قال : يا رسول الله ، صدقت ، أشهد إنك أرسلت بالحق . قال : "فإن ربك يقول قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله" قال : لاجرم ! والذى بعثك بالحق لا ترى الغضب فى وجهى .

قلت : وما ذكره المهـدوىّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عبـاس ، وهو قول القُرَظىّ والسُّدِّى وعليـه يتوجه النسخ فى الآية . وعلى أن الآية نزلت بالمدينـة أو فى غزوة بنى المُصْطَلِق فليست بمنسوخة . ومعنى « يغفروا » : يعفوا و يتجاوزوا . ومعنى « لا يرجون أيام الله » : أى لا يرجون ثوابه . وقيل : أى لا يخافون بأس الله ونقمه . وقيل : الرجاء بمعنى الخوف ؛ كقوله : « مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا »[(٢)] أى لا تخافون له عظمة . والمعنى : لا تخشون

(١) آية ٢٤٥ سورة البقرة .	(٢) آية ١٣ سورة نوح .

مثل عذاب الأمم الخالية . والأيام يعبّر بها عن الوقائع . وقيل : لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه . وقيل : المعنى لا يخافون البعث .﴿ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ قراءة العامة «لِيَجْزِىَ» بالياء على معنى ليجزى الله . وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر «لنجزى» بالنون على التعظيم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة « لِيُجْزَى » بياء مضمومة وفتح الزاى على الفعل المجهول ، «قوما» بالنصب . قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر . وقال الكسائى : معناه ليجزى الجزاءُ قوما ، نظيره « وَكَذَلِكَ نُجِّى الْمُؤْمِنِينَ » على قراءة ابن عامر وأبى بكر فى سورة « الأنبياء »(١) . قال الشاعر :

ولو وَلَدَتْ قُفَيْرةُ جَرْوَ كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا(٢)

أى لَسُبَّ السَّبُّ .

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

تقدّم(٣) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة .﴿ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الحكم : الفهم فى الكتاب . وقيل : الحكم على الناس والقضاء . « والنبوة » يعنى الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام .﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الحلال

---

(١) راجع ج ١١ ص ٣٣٤ (٢) قائله جرير يهجو الفرزدق . وقفيرة (بجهينة) : أم الفرزدق .

(٣)

من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام . وقيل : يعني المَنّ والسَّلوى في التِّيه .
﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي على عالَمِي زمانهم ؛ على ما تقدّم في « الدخان »(١) بيانه .
﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ قال ابن عباس : يعني أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب ، وينصره أهل يثرب . وقيل : بيّنات الأمرِ شرائعُ واضحات في الحلال والحرام ومعجزات . ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يريد يُوشَع بن نُون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : « إلا من بعد ما جاءهم العلم » نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسدًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : معنى « بَغْيًا » أي بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة ، وقتلوا الأنبياء ؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد ، قد جاءتهم البينات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الشريعة في اللغة : المذهب والمِلّة . ويقال لمشرعة الماء — وهي مورد الشاربة — : شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ؛ والجمع الشرائع . والشرائع في الدين : المذاهب التي شرعها الله لخلقه . فمعنى « جعلناك على شريعة من الأمر » أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق . وقال ابن عباس : « على شريعة » أي على هدًى من الأمر . قتادة : الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض . مقاتل : البيّنة ؛ لأنها

(١) راجع جـ ١٦ ص

طريق إلى الحق . الكلبي : السُّنة ؛ لأنه يُستن بطريقة مَن قبله من الأنبياء . ابن زيد : الدِّين ؛ لأنه طريق النجاة . قال ابن العربي : والأمر يرد في اللغة بمعنيين : أحدهما — بمعنى الشأن كقوله : « فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »(١) . والثاني — أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي . وكلاهما يصح أن يكون مرادا ها هنا ؛ وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدِّين وهي ملة الإسلام ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »(٢) .

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح ، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانيـــة — قال ابن العربي : ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة ، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة ، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين . وقال ابن عباس : قُريظة والنَّضير . وعنه : نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب . قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود . ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي ناصرهم ومعينهم . والمتقون هنا : الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

---

(١) آية ٩٧ سورة هود . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل .

قوله تعالى : هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ابتداء وخبر؛ أى هذا الذى أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس فى الحدود والأحكام . وقرئ « هذه بصائر » أى هذه الآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشد وطريق يؤدّى إلى الجنة لمن أخذ به . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ فى الآخرة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى اكتسبوها . والاجتراح : الاكتساب؛ ومنه الجوارح ، وقد تقدّم فى المائدة [1] . ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ ﴾ قال الكلبى : « الذين اجترحوا » عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليد بن عُتبة . و « الذين آمنوا » علىّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث — رضى الله عنهم — حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم . وقيل : نزلت فى قوم من المشركين قالوا : إنهم يعطون فى الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن؛ كما أخبر الرب عنهم فى قوله : «ولئن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى» [2] . وقوله « أم حسب » استفهام معطوف معناه الإنكار . وأهل العربية يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب . وقوم يقولون : فيه إضمار؛ أى والله ولىّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّى بينهم . وقيل : هى أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . وقراءة العامة « سواءٌ » بالرفع على أنه خبر ابتداء مقدّم ، أى محياهم ومماتهم سواء . والضمير فى «محياهم ومماتهم» يعود على الكفار؛ أى محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش « سواء » بالنصب؛ واختاره أبو عبيد قال : معناه

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٦ .		(٢) آية ٥٠ سورة فصلت .

نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضا وعيسى بن عمر «ومماتهم» بالنصب؛ على معنى سواء في محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب. ويجوز أن يكون «محياهم ومماتهم» بدلا من الهاء والميم في نجعلهم؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم. ويجوز أن يكون الضمير في «محياهم ومماتهم» للكفار والمؤمنين جميعا. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا. وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي الضحا عن مسروق قال قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكي «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية كلها. وقال بشير: بتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمرّ بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرا ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أول الليل إلى آخره هذه الاية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة.

قوله تعالى: وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالأمر الحق. ﴿وَلِتُجْزَى﴾ أي ولكي تجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن

شيئا وَهوِيَه اتخذه إلهـا . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبـد الآخر . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن قيس السهمى أحد المستهزئين ؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه . وقال سفيان بن عيينة : إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبودِه تعجيبا لذوى العقول من هذا الجهل . وقال الحسن بن الفضل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ؛ مجازه : أفرأيت من اتخذ هواه إلٰهه . وقال الشَّعْبِيّ : إنما سُمِّى الهوى [هَوًى] لأنه يهـوى بصاحبه فى النـار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هَوًى فى القرآن إلا ذمّه ؛ قال الله تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ» (١) . وقال تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (٢) . وقال تعالى «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ» (٣) . وقال تعالى : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» (٤) . وقال تعالى : «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (٥) . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لمـا جئت به" . وقال أبو أمامة سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى" . وقال شدّاد بن أوس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "الكَيِّس من دان نفسه وعمِل لمـا بعد الموت . والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله" . وقال عليه السـلام : "إذا رأيت شُحًّا مطاعا وهوًى مُتَّبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة" . وقال صلى الله عليه وسـلم : "ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شُحٌّ مطاع وهوًى متبع وإعجاب المرء بنفسه . والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب" . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ؛ فإن كان عمله

---

(١) آية ١٧٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) آية ٢٩ سورة الروم . (٤) آية ٥٠ سورة القصص .
(٥) آية ٢٦ سورة ص .

تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، و إن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح . وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب آسمه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونه ؛ فأخذه شاعر فنظمه وقال :

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ * فإذا هَوِيت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه * فإذا هويت فقد كَسَبت هوانا
و إذا هويت فقد تعبّدك الهوى * فآخضع لحبّك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة * ألا يُرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها * والحر يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة * وكان إليها للخلاف طريق
فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما * هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطُّوسيّ :

والنفس إن أعطيتها مناها * فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحَوارَى : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له : أنت عليل . قال نعم . قلت مذ كم؟ قال : مذ عرفت نفسي! قلت فتداوى ؟ قال : قد أعياني الدواء، وقد عزمت على الكيّ . قلت وما الكي ؟ قال : مخالفة الهوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هواك داؤك ؛ فإن خالفته فدواؤك . وقال وهب : إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته .

وللعلماء فى هذا الباب فى ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » [(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أى على علم قد علمه منه . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال ابن عباس : أى على علم قد سبق عنده أنه سيضل . مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ والمعنى متقارب . وقيل : على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر . ثم قيل : « على علم » يجوز أن يكون حالا من الفاعل ؛ المعنى : أضله على علم منه به ، أى أضله عالما بأنه من أهل الضلال فى سابق علمه . ويجوز أن يكون حالا من المفعول ؛ فيكون المعنى : أضله فى حال علم الكافر بأنه ضال . ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى . ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [(٢)] أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . وقرأ حمزة والكسائى « غَشْوة » بفتح الغين من غير ألف ، وقد مضى فى « البقرة » [(٣)] . وقال الشاعر :

أما والــذى أنا عبــدٌ له * يمينًا ومالك أبدى اليمــينا
لــئن كنت ألبستنى غَشْوة * لقد كنت أصــفيتك الوُدّ حينا

﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ أى من بعد أن أضله . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم فى الاعتقاد ؛ إذ هى مصرحة بمنعهم من الهداية . ثم قيل : « وختم على سمعه وقلبه » إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم . وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم ؛ كما تقدّم فى أول « البقرة » [(٤)] . وحكى ابن جريج أنها نزلت

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .   (٢) فى بعض نسخ الأصل : « الهوى » بالواو .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٨٦ .

فى الحـارث بن قيس من الغياطلة(١) . وحكى النقاش أنها نزلت فى الحـارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليـلة ومعه الوليد ابن المغـيرة ؛ فتحدّثا فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق ! فقال له مَهْ ! وما دلّك على ذلك ! ؟ قال : يا أبا عبـد شمس ، كنا نسمّيه فى صباه الصادق الأمين ؛ فلما تمّ عقله وكَمُل رشـده ، نسمّيه الكذاب الخائن ! ! والله إنى لأعلم أنه لصادق ! قال : فمـا يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدّث عنى بنـات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كِسرة ، واللات والعزّى إن اتبعته أبدا . فنزلت « وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِـهِ وَقَلْبِهِ » .

قوله تعـالى : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)

قوله تعـالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هـذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث و إبطال للجزاء . ومعنى « نموت ونحيا » أى نموت نحن وتحيا أولادنا ؛ قاله الكلبى . وقرئ « ونُحيا » بضم النون . وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى نحيا ونموت ؛ وهى قراءة ابن مسعود . ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال مجاهد : يعنى السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد . وقرئ « إلا دهر يمرّ » . وقال ابن عيينة كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذى يهلكنا وهو الذى يحيينا و يميتنا ؛ فنزلت هـذه الآية . وقال قُطْرُب : وما يهلكنا إلا الموت ؛ وأنشد قول أبى ذُؤيب :

أمِنَ المَنُـونِ وريْبِها تتوجّعُ * والدهرُ ليس بمعتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوربا) : « بنو قيس بن عدى كانوا من رجال قريش يلقبون الغياطل ، وكان قيس سـيد قريش فى دهره غير مدافع » . قال : « والغياطل : جمع غيطلة ، وهو الشـجر الملتف ، واختلاط الظلام » .

وقال عكرمة : أى وما يهلكنا إلا الله . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "كان أهل الجاهلية يقولون ما يُهْلِكنا إلا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبّون الدهر قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يسب الدّهْرَ وأنا الدّهْرُ بيدى الأمر أقلّب الليل والنهار".

قلت : قوله "قال الله" إلى آخره نَصُّ البخارى ولفظه . وخرجه مسلم أيضا وأبو داود. وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقولَنّ أحدكم ياخَيْبَةَ الدهر فإن الله هو الدهر" . وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله . وقال : من لم يجعـله من العلماء اسمـا إنما خرج ردا على العـرب فى جاهليتها ؛ فإنهـم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهـم فى هـذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فَنُهُوا عن ذلك . ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى يؤذينى ابن آدم ... " الحديث . ولقد أحسن من قال، وهو أبو علىّ الثقفىّ :

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ * لا تَلُم الدهرَ على غَدْرِهِ
الدهرُ مأمـورٌ له آمرٌ * وينتهى الدهرُ إلى أمره
كم كافـرٍ أموالُهُ جَمّـةٌ * تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهـمٌ * يزداد إيمـانًا على فَقْـره

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بنىّ وذِكْرَ الدهر ! وأنشد :

فمـا الدهر بالجانى لشىء لحَيْنِـه * ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدّهْرَا
ولكن متى ما يبعث الله باعثًـا * على معشر يجعـلْ مياسيرهم عُسْرَا

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر" ! ؟ فقلت : وهل كان أحد يسب الله فى آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إنّ محَلّاً وإنّ مُرْتَحَلا * وإنّ فى السّفْر إذ مَضَوْا مَهَلا

استأثر الله بالوفاء وبالعد * ل وولّى الملامةَ الرّجُلا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذمّوا الدهر عند المصائب والنوائب ؛ حتى ذكروه فى أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه . قال عمرو بن قَمِيئة :

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى * فكيف بمن يُرْمَى وليس برام

فلو أنها نَبْل إذًا لاتّقيتها * ولكننى أُرْمَى بغير سهام

على الراحتين مرّة وعلى العصا * أُنُوءُ ثلاثًا بعدهن قيامى

ومثله كثير فى الشعر . ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا ربّ سواه . ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى علم . و«من» زائدة ؛ أى قالوا ما قالوا شاكين . ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى ما هم إلا يتكلمون بالظن . وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك فى البعث ولا يقطع بإنكاره . وحدث فى الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين ؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن ، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم ؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار ؛ لأن هؤلاء يلبسون على الحق ، ويُغترّ بتلبيسهم الظاهر . والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم . وقيل : نموت وتحيا آثارنا ؛ فهذه حياة الذكر . وقيل أشاروا إلى التناسخ ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه فى موات فتحيا به .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى وإذ تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة فى جواز البعث لم يكن ثَمَّ دَفْعٌ ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبر كان، والاسم «إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا» الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردّ الله عليهم بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعنى بعد كونكم نُطَفًا أمواتا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ كما أحياكم فى الدنيا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم . الزمخشرى : « فإن قلت لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدْلَوْا به كما يُدْلِى المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسُمّيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله :

* تَحِيَّـةُ بينهم ضَرْبٌ وَجِيعُ *[1]

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجـة أَلْبَتّة . فإن قلت : كيف وقـع قوله « قل الله يحييكم » جواب « ائتـوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ؟ قلت : لمـا أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكّت ألزموا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصـغَوْا إلى داعى الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شىء عليه » .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ « يوم » الأول منصوب بـ « يَخْسَر » و « يومئذ » تكرير للتأكيد

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب . وصدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *
يقول : إذا تلاقوا فى الحرب جعلوا بدلا من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع . ودلفت : زحفت . والدليف : مقاربة الخطو فى المشى .

أو بدل . وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل فى « يومئذ » « يَخْسَر » ، ومفعول « يَخْسَر » محذوف ؛ والمعنى يَخْسَرُون منازلهم فى الجنة .

قوله تعالى : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى من هَوْل ذلك اليوم . والأُمّة هنا : أهل كل ملة . وفى الجاثية تأويلات خمس : الأوّل — قال مجاهد : مستوفزة . وقال سفيان : المستوفز الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله . الضحاك : ذلك عند الحساب . الثانى — مجتمعة ؛ قاله ابن عباس . الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين . الثالث — متميزة ؛ قاله عكرمة . الرابع — خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مُؤَرِّج . الخامس — باركة على الركب ؛ قاله الحسن . والجَثْوُ : الجلوس على الركب . جثا على ركبتيه يجثو ويجثى جُثُوًّا وجُثِيًّا ؛ على فعول فيهما ، وقد مضى فى « مريم »[1] : وأصل الجثوة[2] : الجماعة من كل شىء . قال طَرَفة يصف قبرين :

ترى جُثْوَتَين من تراب عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيح مُنَضَّدِ[3]

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إنه عام للمؤمن والكافر انتظارا للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "كأنى أراكم بالكُوم[4] جاثين دون جهنم" ذكره الماوردى . وقال سلمان : إن فى يوم القيامة لساعةً هى عشر سنين يخرّ الناس فيها جُثاةً على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادى "لا أسألك اليوم إلا نفسى" . ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ قال يحيى ابن سلام : إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذى كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر ؛

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣٢ . (٢) مثلثة الجيم .

(٣) الصم : الصلب . والمنضد : الذى جعل بعضه على بعض .

(٤) الكوم : المواضع المشرفة .

قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد . وقيل : « كتابها » ما كتبت الملائكة عليها . وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ . وقرأ يعقوب الحضرمى « كُلَّ أمةٍ » بالنصب على البدل من « كل » الأولى لما فى الثانيـة من الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جُثُوها شىء من حال شرح الجثو كما فى الثانيـة من ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها . وقيل : انتصب بإعمال « ترى » مضمرا . والرفع على الابتداء . ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

قوله تعالى : هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة . ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى يشهد . وهو استعارة؛ يقال : نطق الكتاب بكذا أى بيّن . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكأنه ينطق عليهم؛ دليله قوله : « وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »(١) . وفى المؤمنين : « وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(٢) وقد تقدّم(٣) . و « يَنْطِقُ » فى موضع الحال من الكتاب، أو من ذا ، أو خبر ثان لذا ، أو يكون « كتابنا » بدلا من « هذا » و « ينطق » الخبر . ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى نأمر بنسخ ما كنتم تعملون . قال علىّ رضى الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشىء يكتبون فيـه أعمال بنى آدم . وقال ابن عباس : إن الله وكّل ملائكة مطهّرين فينسَخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمـال بنى آدم فيعارضـون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العبـاد موافقا لما فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيـه ولا نقصان . قال ابن عباس : وهـل يكون النسخ إلا من كتاب . الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظة

---

(١) آية ٤٩ سورة الكهف   (٢) آية ٦٢ سورة المؤمنون .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ و جـ ١٢ ص ١٣٤ .

على بنى آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نُسخ منه الحسنات والسيئات ؛ ولا تحوّل المباحات إلى النسخة الثانية . وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم ذلك . وهو استفهام توبيخ . ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن قبولها . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين تكسبون المعاصى . يقال : فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم ؛ فالمجرم من أكسب نفسه المعاصى . وقد قال الله تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ »(1) فالمجرم ضدّ المسلم فهو المذنب بالكفر إذاً .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى البعث كائن . ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة « والساعةَ » بالنصب عطفا على « وَعْدَ » . الباقون بالرفع على الابتداء، أو العطف

---

(1) آية ٣٥ سورة القلم .

على موضع « إن وعد الله » . ولا يحسن على الضمير الذى فى المصدر ؛ لأنه غير مؤكد ، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد فى الشعر . ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ هل هى حق أم باطل . ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ تقديره عند المبرد : إن نحن إلا نظن ظنًّا . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أن الساعة آتية .

قوله تعالى : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أى ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى نزل بهم وأحاط . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من عذاب الله .

قوله تعالى : وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ ﴾ أى نترككم فى النار كما تركتم لقاء يومكم هذا ؛ أى تركتم العمل له . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى مسكنكم ومستقركم . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ من ينصركم .

قوله تعالى : ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ هُزُوًا ﴾ لعبا . ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى خدعتكم بأباطيلها و زخارفها ؛ فظننتم أن ليس ثَمّ غيرها ، وأن لابعث . ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون . وقد تقدّم[1] . وقرأ حمزة والكسائى « فاليوم لا يَخْرُجُون » بفتح الياء وضم الراء ؛ لقوله تعالى :

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٦٢ و جـ ١٤ ص ٤٩ و جـ ١٥ ص ٣٥٣

« كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا »(١) الباقون بضم الياء وفتح الراء ؛ لقوله تعالى : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا » . ونحوه .

قوله تعالى : فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قرأ مجاهد وحميد وابن مُحَيْصِن « رَبُّ السموات وربُّ الأرض رَبُّ العالمين » بالرفع فيها كلها على معنى هو رَبُّ . ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ والله أعلم .

سورة الأحقاف

مكية فى قول جميعهم . وهى أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدّم(٢) . ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ تقدّم أيضا . ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى القيامة ؛ فى قول ابن عباس وغيره . وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات والأرض . وقيل : إنه هو الأجل

---

(١) آية ٢٠ سورة السجدة . (٢) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

المقدور لكل مخلوق . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا ﴾ خُوِّفوه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ مُوَلُّون لاهون غير مستعدّين له . ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ؛ أى عن إنذارهم ذلك اليوم .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله . ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى هل خلقوا شيئا من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أى نصيب ﴿ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أى فى خلق السموات مع الله . ﴿ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أى من قبل هذا القرآن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ قراءة العامة « أو أثارة » بألف بعد الثاء . قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو خط كانت تخطه العرب فى الأرض " . ذكره المهدوى والثعلبي . قال ابن العربى : ولم يصح . وفى مشهور الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " كان نبيّ من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك " ولم يصح أيضا .

قلت : هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمى ؛ خرجه مسلم . وأسند النحاس : حدّثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجى[1]) قال حدّثنا محمد بن بندار قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثورى عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل « أو أثارة من علم » قال " الخط " وهذا صحيح أيضا . قال ابن العربى : واختلفوا فى تأويله ؛ فمنهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

---

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه النسبة .

ومنهم من قال جاء للنهى عنـه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " فمن وافق خطه فذاك " ولا سبيل إلى معرفة طريق النبيّ المتقدّم فيه ؛ فإذًا لا سبيل إلى العمل به . قال :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصا (١) * ولا زاجراتُ الطـير ما الله صانـع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب ، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليـه تلك الكواكب من سـعد أو نحس يحلّ بهم ، فصار ظنًّا مبنياً على ظن ، وتعلقًا بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها فى درك الأشياء المغيبة ؛ فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز مزاحمته فى ذلك ، ولا يحل لأحد دعواه . وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهى ؛ فإذ وقـد ورد النهى فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قلت : ما اختاره هو قول الخطابى . قال الخطابى : قوله عليـه السلام : " فمن وافق خطه فذاك " هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علما لنبوته وقد انقطعت ، فنهينا عن التعاطى لذلك . قال القاضى عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرّص وآدعاء الغيب جملة — فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذى يجدون إصابتـه ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم . وحكى مكى فى تفسـير قوله : "كان نبى من الأنبياء يخط" أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى فى الرمل ثم يزجر . وقال ابن عباس فى تفسير قوله " ومنا رجال يخطون" : هو الخط الذى يخطه الحازى (٢) فيعطى حُلوانا فيقول : آقعد حتى أخط لك ؛ وبين يدى الحازى غلام معه ميـل ثم يأتى إلى أرض رِخوة فيخط الأسـتاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين ، فإن بقى خطان فهو علامة النجح ، وإن بقى خط فهو علامة الخيبة . والعرب تسميه الأسحم وهو مشئوم عندهم .

(١) البيت للبيد . والرواية فيه : « الطوارق » بدل « الضوارب » . والطرق : الضرب بالحصا . والطوارق المتكهنات .

(٢) الحازى : الكاهن .

الثالثة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبْق من الأسباب الدالة على الغيب التى أذن فى التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ؛ فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوة وكذلك الفأل ؛ وأما الطِّيَرة والزجر فإنه نهى عنهما . والفأل : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ؛ فإن سمع مكروها فهو تطيّر ؛ أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضى على أمره مسرورا . وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجْله ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهُمّ لا طَيْرَ إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك". وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلهم * مضلّلون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح ، إلا فى الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ؛ فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

قلت : قد مضى فى الطِّيَرة والفأل وفى الفرق بينهما ما يكفى فى « المائدة »[1] وغيرها . ومضى فى « الأنعام »[2] أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب ، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على جَرْى العادة . وقد يختلف مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر . وقد يجوز أن يأتى عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التى تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر. وكما أنه جائز أيضا ألا يلى شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت . إلى غير ذلك مما تقدم فى « الأنعام » بيانه .

الرابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنداد : قوله تعالى : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » يريد الخط . وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه . وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر فى الناس ما ظهر من الحِيَل والتزوير . وقد روى عنه أنه قال : "يحدِث الناس فجورا فتحدث لهم أقضية" . فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به ؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه ، أشهدنا على

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٩ وما بعدها .   (٢) راجع جـ ٧ ص ٢

ما فيه وإن لم يعلموا ما فى الكتاب . وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك — فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به . وقيل : « أو أثارة من علم » أو بقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم . وفى الصحاح «أو أثارة من علم» بقية منه . وكذلك الأَثَرة (بالتحريك) . ويقال : سمِنت الإبل على أثارة ؛ أى بقية شحم كان قبل ذلك . وأنشد الماوردى والثعلبى قول الراعى :

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها * نباتا فى أكِمَّته فقارا

وقال الهَرَوِىّ : والأثارة والأثر : البقية ؛ يقال : ما ثَمّ عين ولا أثر . وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » خاصة من علم . وقال مجاهد : روايةٍ تأثرونها عمن كان قبلكم . وقال عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء . وقال القُرَظِى : هو الإسناد . الحسن : المعنى شىء يثار أو يستخرج . وقال الزجاج : « أَوْ أَثَارَةٍ » أى علامة . والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة . وأصل الكلمة من الأَثْر ، وهى الرواية ؛ يقال : أثرت الحديث آثُره أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر ؛ إذا ذكرته عن غيرك . ومنه قيل : حديث مأثور ؛ أى نقله خَلَف عن سَلَف . قال الأعشى :

إن الذى فيه تَمَارَيْتُمَا * بُيِّنَ للسامع والآثر

ويروى « بَيِّن » وقرئ « أَوْ أُثْرَة » بضم الهمزة وسكون الثاء . ويجوز أن يكون معناه بقية من علم . ويجوز أن يكون معناه شيئا مأثورا من كتب الأولين . والمأثور : ما يتحدّث به مما صح سنده عمن تحدث به عنه . وقرأ السُّلَمى والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ؛ أى خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم . وروى عن الحسن أيضا وطائفة « أَثْرة » مفتوحة الألف ساكنة الثاء ؛ ذكر الأولى الثعلبى والثانيةَ الماوردى . وحكى الثعلبى عن عكرمة : أو ميراث من علم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ اِئْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها ؛ فأولها المعقول ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع . ثم قال : « ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِن قَبلِ هذا » فيه بيان أدلة السمع « أو أثارة من علم » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهي الأوثان . ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم ؛ إذ قد مثّلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تُخدم .

قوله تعالى : وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أي هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . فالملائكة أعداء الكفار ، والجنّ والشياطين يتبرءون غدًا من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليله قوله تعالى : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »[1] . وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

---

(١) آية ٦٣ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ الميم صلة ؛ التقدير : أيقولون افتراه ؛ أى تقوّله محمد . وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا . ومعنى الهمزة فى « أم » الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضىّ منه العجب . وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله و يفتريَه على الله، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، و إذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا ؛ والضمير للحق ، والمراد به الآيات . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ على سبيل الفرض . ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ أى لا تقدرون على أن تردّوا عنى عذاب الله ؛ فكيف أفترى على الله لأجلكم . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تقولونه ؛ عن مجاهد . وقيل : تخوضون فيه من التكذيب . والإفاضة فى الشيء : الخوض فيه والاندفاع . أفاضوا فى الحديث أى اندفعوا فيه . وأفاض البعير أى دفع جِرّته من كَرِشه فأخرجها ؛ ومنه قول الشاعر :

* وأفضن بعد كُظُومهنّ بجِرّة [(١)] *

---

(١) هذا عجز بيت للراعى ، وصدره كما فى معجم البلدان لياقوت فى « حقيل » :

* من ذى الأبارق إذ رعين حقيلا *

وذو الأبارق وحقيل : موضع واحد . يقول : كن كظوما من العطش (والكاظم من الإبل الذى أمسك عن الجرة) ، فلما ابتل ما فى بطونها أفضن بجرة .

وأفاض الناس من عرفات إلى منًى أى دفعوا، وكل دَفعة إفاضة . ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا ﴾ نصب على التمييز . ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى هو يعلم صدقى وأنكم مبطلون . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى أوّل من أرسل، قد كان قبلى رسل ؛ عن ابن عباس وغيره . والبِدْع : الأوّل . وقرأ عكرمة وغيره « بِدَعا » بفتح الدال ، على تقدير حذف المضاف ؛ والمعنى : ما كنت صاحب بدَع . وقيل : بِدْع وبديع بمعنًى ؛ مثل نصف ونصيف . وأبدع الشاعر : جاء بالبديع . وشىء بِدْع (بالكسر) أى مبتدَع . وفلان بِدْعٌ فى هذا الأمر أى بديع . وقوم أبداع ؛ عن الأخفش . وأنشد قُطْرُب قولَ عدىّ بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادثَ تعترى ❊ رجالا غدت من بعد بؤسى بأسعد[1]

﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ يريد يوم القيامة . ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبيًّا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يُفعل به؛ فنزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[2] فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»[3] الآية . ونزلت «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا»[4] . قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك . وقالت أم العلاء امرأةٌ من الأنصار : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان

---

(١) هذا رواية البيت كما فى نسخ الأصل . والذى فى شعراء النصرانية :

فلست بمن يخشى حوادث تعترى ❊ رجالا فبادوا بعد بؤس وأسعد

(٢) آية ٢ سورة الفتح . (٣) آية ٥ سورة الفتح . (٤) آية ٤٧ سورة الأحزاب .

ابن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا فتُوُفِّيَ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب!
إن الله أكرمك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك أن الله أكرمه" ؟ فقلت :
بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟! قال: "أمّا هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إني
لأرجو له الجنة ووالله إني لرسول الله وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم" . قالت : فوالله
لا أزكّى بعده أحدًا أبدًا . ذكره الثعلبي، وقال : وإنما قال هذا حين لم يعلم بغفران ذنبه،
وإنما غفر الله له ذنبه فى غَزْوَة الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين .

قلت : حديثُ أمِّ العلاء خرّجه البخاريّ ، وروايتي فيه: "وما أدرى ما يُفعل به" ليس
فيه "بى ولا بكم" وهو الصحيح إن شاء الله، على ما يأتى بيانه . والآية ليست بمنسوخة؛
لأنها خبر. قال النحاس : محال أن يكون فى هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما
أنه خبر، والآخر أنه من أوّل السورة إلى هذا الموضع خطاب للشركين واحتجاج عليهم
وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن
يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين "ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم" فى الآخرة؛ ولم يزل
صلى الله عليه وسلم من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد فى النار، ومن
مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو فى الجنة؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبهم
فى الآخرة. وليس يجوز أن يقول لهم ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الآخرة؛ فيقولون كيف
نتبعك وأنت لا تدرى أتصير إلى خفض ودَعة أم إلى عذاب وعقاب . والصحيح فى الآية
قول الحسن ، كما قرأ على بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدّثنا وكيع
قال حدّثنا أبو بكر الهذلى عن الحسن «وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا» قال أبو جعفر :
وهذا أصح قولٍ وأحسنه ، لا يدرى صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة
ورخص وغلاء وغنى وفقر . ومثله «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ
السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»[1] . وذكر الواحدى وغيره عن الكلبي عن أبى صالح عن

---

(١) آية ١٨٨ سورة الأعراف .

ابن عباس : لما اشتدّ البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله ، متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وما أدرِى ما يُفعل بِي ولا بِكم » أى لا أدرى أ أخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أم لا . ثم قال : " إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحَى إلىّ " أى لم يوح إلىّ ما أخبرتكم به . قال القُشَيرى : فعلى هذا لا نسخ فى الآية . وقيل : المعنى لا أدرى ما يفرض علىّ وعليكم من الفرائض . واختار الطبرى أن يكون المعنى : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا ، أتؤمنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخّرون .

قلت : وهو معنى قول الحسن والسُّدّى وغيرهما . قال الحسن : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه فى الجنة حين أخذ ميثاقه فى الرسل ، ولكن قال ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى ، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلى ؛ ولا أدرى ما يفعل بكم ؛ أأمتى المصدّقة أم المكذّبة ، أم أمتى المرمية بالحجارة من السماء قَذْفًا ، أو مخسوفٌ بها خَسْفًا ؛ ثم نزلت « هو الذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[1] . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال فى أمته : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »[2] فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته ؛ ولا نسخ على هذا كله ، والحمد لله . وقال الضحاك أيضا : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " أى ما تؤمرون به وتنهون عنه . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للؤمنين ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى القيامة ؛ ثم بيّن الله تعالى ذلك فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » وبيّن فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين .

قلت : وهذا معنى القول الأول ؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان ، وأنه أمر أن يقول ذلك للؤمنين ؛ والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره . و « ما » فى « ما يفعل » يجوز أن

(١) آية ٣٣ سورة التوبة . (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وقرئ « يوحِى » أى الله عز وجل . تقدّم فى غير موضع .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعنى القرآن . ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقال الشعبي : المراد محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سَلَام ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور فى التوراة، وأنه نبيّ من عند الله . وفى الترمذى عنه : ونزلت فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فِيّ « وشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » . وقد تقدّم فى آخر سورة «الرعد»(١) . وقال مسروق : هو موسى والتوراة، لا ابن سَلَام؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية . وقال : وقوله « وكفرتم به » مخاطبة لقريش . الشعبي : هو من آمن من بنى إسرائيل بموسى والتوراة؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين، والسورة مكية . قال القُشَيْرِىّ : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية، وأسلم ابن سَلَام قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بعامين . ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع فى سورة مكية؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ضعوها فى سورة كذا . والآية فى محاجة المشركين ، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود فى أشياء؛ أى شهادتهم لهم وشهادة نبيّهم لى من أوضح الحجج . ولا يبعد أن تكون السورة فى محاجة اليهود، ولما جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله، اجعلنى حَكَمًا بينك وبين اليهود؛ فسألهم عنه : "أىّ رجلٍ هو فيكم" قالوا : سَيِّدُنا وعالمنا . فقال : "إنه قد آمن بى" فأساءوا القول فيه .. الحديث ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥

وقد تقدّم[1] . قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سلام ، وقالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك ؛ فسئل فشهد ثم أسلم . ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ أى على مثل ما جئتكم به ؛ فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن . وقال الجُرْجَانى . « مِثْل » صلة ، أى وشهد شاهد عليه أنه من عند الله . ﴿ فَآمَنَ ﴾ أى هذا الشاهد . ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن الإيمان . وجواب « إن كان » محذوف تقديره : فآمن أتؤمنون ؛ قاله الزجاج . وقيل : « فآمن واستكبرتم » أليس قد ظلمتم ؛ يبيّنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقيل : « فآمن واستكبرتم » أفتأمنون عذاب الله . و « أرأيتم » لفظ موضوع للسؤال والاستفهام ؛ ولذلك لا يقتضى مفعولا . وحكى النقاش وغيره : إن فى الآية تقديما وتأخيرا ، وتقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بنى إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (١١)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ اختلف فى سبب نزولها على ستة[2] أقوال :

الأول — أن أبا ذَرّ الغفارى دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشا فقالوا : غفارُ الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله أبو المتوكل .

الثانى — أن زِنِّيرة[3] أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللاتُ والعُزّى ؛ فردّ الله عليها بصرها . فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زِنِّيرة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عروة بن الزبير .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥　(٢) كذا فى نسخ الأصل . ويلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر خمسة أقوال .

(٣) زنيرة (بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة) : رومية ، وكانت من السابقات الى الاسلام ، وممن يعذب فى الله ، وكان أبو جهل يعذبها ، وهى من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصدّيق وأنقذهم من التعذيب .

الثـالث — أن الذين كفروا هم بنو عامر وغَطَفان وتميم وأَسَد وحَنْظَلة وأشجع ، قالوا لمن أسلم من غِفار وأسلم وجُهينة ومُزينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رُعاة البَهْم إذ نحن أعزّ منهم ؛ قاله الكلبي والزّجاج ، وحكاه القُشيري عن ابن عباس . وقال قتادة : نزلت في مشركي قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه بِلال وصُهيب وعَمّار وفلان وفلان . وهو القول الرابع .

القول الخامس — أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعني عبد الله بن سَلَام وأصحابه : لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه ؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الثعلبي . وقال مسروق : إن الكفار قالوا لو كان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود ؛ فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار في قولهم : لو كان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم ؛ حتى يقال لهم : لو كان ما أنتم عليه خيرا ما عدلنا عنه ، لو كان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه ؛ ذكره الماوردي . ثم قيل : قوله « ما سبقونا إليه » يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى « حَتّى إذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »(١) . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ يعني الإيمان . وقيل القرآن . وقيل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي لما لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادَوْه ونسبُوه إلى الكذب ، وقالوا هذا إفك قديم ؛ كما قالوا : أساطير الأولين . وقيل لبعضهم : هل في القرآن : من جهل شيئا عاداه ؟ فقال نعم ؟ قال الله تعالى : « وإذ لم يَهْتَدُوا بِهِ فسيقولون هذا إِفْكٌ قدِيمٌ » ومثله « بل كَذّبُوا بِما لم يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ »(٢) .

قوله تعالى : وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(١) آية ٢٢ سورة يونس . (٢) آية ٣٩ سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى ومن قبل القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ أى التوراة ﴿ إِمَامًا ﴾ يقتدى بما فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من الله . وفى الكلام حذف ؛ أى فلم تهتدوا به . وذلك أنه كان فى التوراة نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم والإيمانُ به فتركوا ذلك . و « إماماً » نصب على الحال ؛ لأن المعنى : وتقدمه كتاب موسى إمامًا . «ورحمةً» معطوف عليه . وقيل : انتصب بإضمار فعل ؛ أى أنزلناه إماما ورحمة . وقال الأخفش : على القطع ؛ لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة ، لأن النكرة إذا أعيدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألفا ولاما صارت معرفة . ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ يعنى للتوراة ولما قبله من الكتب . وقيل : مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ منصوب على الحال ؛ أى مصدّق لما قبله عربيا ، و « لسانا » توطئة للحال أى تأكيد ؛ كقولهم : جاءنى زيد رجلا صالحا ؛ فتذكر رجلا توكيدا . وقيل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهذا كتاب مصدّق أعنى لسانا عربيا . وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربى . وقيل : إن لسانا مفعول والمراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى وهذا كتاب مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه معجزته ؛ والتقدير : مصدّق ذا لسان عربى . فاللسان منصوب بمصدّق ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم . ويبعد أن يكون اللسان القرآن ؛ لأن المعنى يكون يصدّق نفسه . ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة « لينذر » بالياء خبرا عن الكتاب ؛ أى لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقرأ نافع وٱبن عامر والبزّى بالتاء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ « بشرى » فى موضع رفع ؛ أى وهو بشرى . وقيل : عطفًا على الكتاب ؛ أى وهذا كتاب مصدّق وبشرى . ويجوز أن يكون منصوبا بإسقاط حرف الخفض ؛ أى لينذر الذين ظلموا وللبشرى ؛ فلما حذف الخافض نصب . وقيل : على المصدر ؛ أى وتبشر المحسنين بشرى ؛ فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب ؛ كما تقول : أتيتك لأزورك ، وكرامة لك وقضاء لحقك ؛ يعنى لأزورك وأكرمك وأقضى حقك ؛ فنصب الكرامة بفعل مضمر .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّـةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ الآية تقدم معناها[1] . وقال ابن عباس : نزلت فى أبى بكر الصديق . والآية تعم . ﴿ جَزَاءً ﴾ نصب على المصدر .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه ، فقد يطيعهما وقد يخالفهما ؛ أى فلا يبعد مثل هذا فى حق النبىّ صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض . فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض ؛ قاله القشيرىّ .

الثانيــة — قوله تعالى : « حسنا » قراءة العامة « حُسْنًا » وكذا هو فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إِحْسَانًا » وحجتهم قوله تعالى فى سورة (الأنعام وبنى إسرائيل) : « وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[2] وكذا هو فى مصاحف الكوفة . وحجة القراءة الأولى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »[3]

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧ (٢) آية ١٥١ سورة الأنعام ، ٢٣ سورة الإسراء . (٣) آية ٨

ولم يختلفوا فيها . والحُسْن خلاف القُبح . والإحسان خلاف الإساءة . والتوصية الأمر . وقد مضى القول فى هذا وفيمن نزلت [١] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أى بكره ومشقة . وقراءة العامة بفتح الكاف . واختاره أبو عبيد، قال : وكذلك لفظ الكره فى كل القرآن بالفتح إلا التى فى سورة البقرة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » [٢] لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر . وقرأ الكوفيون « كُرْهًا » بالضم . قيل : هما لغتان مثل الضَّعْف والضُّعف والشَّهْد والشُّهْد؛ قاله الكسائى، وكذلك هو عند جميع البصريين . وقال الكسائىّ أيضا والفرّاء فى الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره؛ أى قهرا وغصبا؛ ولهذا قال بعض أهل العربية : إن كرها (بفتح الكاف) لحن .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا، و إن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا . و روى أن عثمان قد أُتِىَ بامرأة قد ولدت لستة أشهر؛ فأراد أن يقضى عليها بالحدّ؛ فقال له علىّ رضى الله عنه : ليس ذلك عليها، قال الله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها . وقد مضى فى « البقرة » [٣] . وقيل : لم يعدّ ثلاثة أشهر فى ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نُطْفَة وعَلَقَة ومُضْغَة فلا يكون له ثقل يُحَس به ، وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ » [٤] . والفِصال الفِطام . وقد تقدّم فى « لقمان » [٥] الكلام فيه . وقرأ الحسن و يعقوب وغيرهما « وفَصْله » بفتح الفاء وسكون الصاد . و روى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق، وكان حمله وفصاله فى ثلاثين شهرا ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا . وفى الكلام إضمار؛

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ (٢) آية ٢١٦ (٣) راجع جـ ٣ ص ١٦٠ وما بعدها .
(٤) آية ١٨٩ سورة الأعراف . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٦٤ وما بعدها .

أى ومدّة حمله ومدّة فصاله ثلاثون شهرا ؛ ولولا هـذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغيّر المعنى .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال ابن عباس : ثمانى عشرة سنة . وقال فى رواية عطاء عنه : إن أبا بكر صحب النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبىّ صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سـنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا منزلا فيـه سِدرة ، فقعد النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسأله عن الدِّين . فقال الراهب : مَن الرجل الذى فى ظل الشـجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبـد الله ابن عبد المطلب . فقال : هذا والله نبىّ ، وما آستظل أحد تحتها بعد عيسى . فوقع فى قلب أبى بكر اليقين والتصديق ؛ وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره وحضره . فلما نُبِّئ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو ابن أربعين سـنة ، صدّق أبو بكر رضى الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم وهو ابن ثمانية وثلاثين سـنة . فلما بلغ أربعين سـنة قال : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » الآية . وقال الشـعبىّ وابن زيد : الأشُدّ الحُلُم . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين . وعنه قيام الحجة عليه . وقد مضى فى « الأنعام » الكلام[1] فى الآية . وقال السدى والضحاك : نزلت فى سعد بن أبى وقاص . وقد تقدّم[2] . وقال الحسن : هى مرسلة نزلت على العموم . والله أعلم .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أى ألهمنى . ﴿ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ فى موضع نصب على المصـدر ؛ أى شكر نعمتك ﴿ عَلَيَّ ﴾ أى ما أنعمت به علىّ من الهـداية ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربيانى صغيرا . وقيـل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية وعلى والدىّ بالغنى والثروة . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ! أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك مَن بعده . ووالده هو أبو قحـافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم . وأمّه

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ و جـ ١٤ ص ٦٣

أم الخير ، واسمها سَلْمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد . وأم أبيه أبي قحافة « قَيْلة » (بالياء المعجمة باثنتين من تحتها) . وامرأة أبي بكر الصديق اسمها « قُتيلة » (بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها) بنت عبد العُزّى . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ قال ابن عباس : فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذَّبون في الله منهم بلال وعامر بن فُهيرة ؛ ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح منكم اليوم صائما " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن تبع منكم اليوم جنازة " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن أطعم منكم اليوم مسكينا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن عاد منكم اليوم مريضا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما اجتمعن في آمرئ إلا دخل الجنة " .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أي آجعل ذريتي صالحين . قال ابن عباس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده و بناته كلهم إلا أبو بكر . وقال سهل بن عبد الله : المعنى اجعلهم لي خَلَف صِدق ، ولك عبيد حق . وقال أبو عثمان : اجعلهم أبرارا لي مطيعين لك . وقال ابن عطاء : وفقهم بصالح أعمال ترضى بها عنهم . وقال محمد بن علي : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا . وقال مالك بن مِغْوَل : اشتكى أبو معشر آبنه إلى طَلْحة بن مُصَرِّف؛ فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه . ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي المخلصين بالتوحيد .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما . وقرئ « يَتَقَبَّلُ ، وَيَتَجَاوَزُ » بفتح الياء ؛ والضمير فيهما يرجع لله عز وجل . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نتقبل ، ونتجاوز » بالنون فيهما ؛ أى نغفرها ونصفح عنها . والتجاوز أصله من جزت الشيء إذا لم تقف عليه . وهذه الآية تدل على أن الآية التى قبلها « ووصينا الإنسان » إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم . وهو قول الحسن . ومعنى « نتقبل عنهم » أى نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات . قال زيد بن أسلم — ويحكيه مرفوعا — : إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم . وقيل : الأحسن ما يقتضى الثواب من الطاعات ، وليس فى الحسن المباح ثواب ولا عقاب ؛ حكاه ابن عيسى . ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ « فى » بمعنى مع ، أى مع أصحاب الجنة ، تقول : أكرمك وأحسن إليك فى جميع أهل البلد ، أى مع جميعهم . ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله ؛ أى وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق . وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذى وعده الله ؛ وهو كقوله تعالى : « حَقُّ الْيَقِينِ »(١) . وهذا عند الكوفيين ، فأما عند البصريين فتقديره : وعد الكلام الصدق أو الكتاب الصدق ، فحذف الموصوف . وقد مضى هذا فى غير موضع(٢) . ﴿ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ فى الدنيا على ألسنة الرسل ؛ وذلك الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) ﴾

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٥٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى أن أبعث .
﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرهما « أفٍّ » مكسور منون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضل عن عاصم « أفَّ » بالفتح من غير تنوين . الباقون بالكسر غير منون ؛ وكلها لغات ، وقد مضى فى « بنى إسرائيل »[١] . وقراءة العامة « أتعدانِنِى » بنونين مخففتين . وفتح ياءه أهل المدينة ومكة . وأسكن الباقون . وقرأ أبو حَيْوَة والمغيرة وهشام « أتعدانّى » بنون واحدة مشدّدة ؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل الشام . والعامة على ضم الألف وفتح الراء من « أن أُخرج » . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء . قال ابن عباس والسُّدِّى وأبو العالية ومجاهد : نزلت فى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما ، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل . وقال قتادة والسدى أيضا : هو عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث ؛ فيردّ عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه ؛ وكان هذا منه قبل إسلامه . وروى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت أن تكون نزلت فى عبد الرحمن . وقال الحسن وقتادة أيضا : هى نعت عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه . وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ » أى العذاب ، ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين ؛ فالصحيح أنها نزلت فى عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه . وقال محمد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان ابن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد ؛ فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هِرَقْلِيّة[٢] ، أتبايعون لأبنائكم ! فقال مروان : هو الذى يقول الله فيه «والذى قال لوالديه أُفٍّ لكما» الآية . فقال : والله ما هو به ، ولو شئت لسمّيت ، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فَضَضٌ[٣] من لعنة الله . قال المهدوىّ : ومن جعل الآية فى عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك « أولئك الذين

---

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٤٢ .
(٢) أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .
(٣) كل ما انقطع من شىء أو تفرّق فهو فضض ؛ أراد أنك قطعة وطائفة منها .

حَقّ عليهم القول» يراد به من اعتقد ما تقدّم ذكره؛ فأوّل الآية خاص وآخرها عام . وقيل : إن عبد الرحمن لما قال « وقد خلت القرون من قبلى » قال مع ذلك : فأين عبد الله ابن جُدْعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون . فقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبى بكر فى سورة « الأنعام » عند قوله « له أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إلى الهُدَى »(١) ما يدل على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافرا وعند إسلامه وفضله تعيّن أنه ليس المراد بقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » . ﴿ وَهُمَا ﴾ يعنى والديه . ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى يدعوان الله له بالهداية . أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . وقيل : الاستغاثة الدعاء ؛ فلا حاجة إلى الباء . قال الفرّاء : أجاب الله دعاءه وغُواثه . ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أى صدّق بالبعث . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى صدْق لا خلف فيه . ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا ﴾ أى ما يقوله والداه . ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعنى الذين أشار إليهم ابن أبى بكر فى قوله أَحْيُوا لى مشايخ قريش ، وهم المعنيّون بقوله « وقد خلت القرون من قبلى » . فأما ابن أبى بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه فى قوله « وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» على ما تقدّم . ومعنى «حَقّ عليهم القولُ» أى وجب عليهم العذاب، وهى كلمة الله : "هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى" . ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أى مع أمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ تقدّمت ومضت . ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الكافرين ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى تلك الأمم الكافرة ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ لأعمالهم ؛ أى ضاع سعيهم وخسروا الجنة .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ أى ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ٱبن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سِفالا، ودرج أهل الجنة عُلُوًّا . ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن وعاصم وأبو عمرو و يعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : « إنّ وعد اللهِ حقٌّ » واختاره أبو حاتم . الباقون بالنون ردًّا على قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ » وهو ٱختيار أبى عبيد . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يزاد على مسىء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ أى ذكّرهم يا محمد يوم يعرض . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يكشف الغطاء فيقرّبون من النار وينظرون إليها . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم ؛ فالقول مضمر . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية و يعقوب وابن كثير « أأذهبتم » بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حَيْوة وهشام « آذهبتم » بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام . الباقون بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ؛ وقد تقدّم . واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبى عمرو وحمزة والكسائى، مع من وافقهم شيبة والزهرى وابن محيصن والمغيرة بن أبى شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلّة الناس . وترك الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضا ؛ يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ؛ يُوَبِّخ و يقول : أذهبت فعلت ! كل ذلك جائز . ومعنى

« أذهبتم طَيِّبَاتِكُم » أى تمتعتم بالطيبات فى الدنيا وآتبعتم الشهوات واللذات؛ يعنى المعاصى . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى عذاب الخزى والفضيحة. قال مجاهد : الهون الهوان. قتادة : بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فى أفعالكم بَغْيًا وظلمًا . وقيل : « أذهبتم طيباتكم » أى أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوة؛ مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه؛ أى شبابه وقوته . قال الماوردِىّ : ووجدت الضحاك قاله أيضا .

قلت : القول الأول أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاءً وصِنابا وصَلائِقَ، ولكنى استبقى حسناتى؛ فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » وقال أبو عبيد فى حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة . وفى بعض الحديث : وأفلاذٍ. قال أبو عمرو وغيره : الصلاء (بالمدّ والكسر) : الشواء؛ سُمِّىَ بذلك لأنه يُصْلَى بالنار . والصِّلاء أيضا : صلاء النار؛ فإن فتحت الصاد قصرت وقلت : صَلَى النارِ . والصِّناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب . قال أبو عمرو : ولهذا قيل للبِرذَوْن : صِنابِىّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك . قال : والسلائق (بالسين) هو مايسلق من البقول وغيرها . وقال غيره : هى الصلائق بالصاد؛ قال جرير :

تُكَلِّفُنِى معيشةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالصَّلائق والصِّناب

والصلائق : الخبز الرقاق العريض . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف »[1] . وأما الكراكر فكراكر الإبل، واحدتها كِرْكِرة وهى معروفة؛ هذا قول أبى عبيد . وفى الصحاح : والكِرْكِرة رَحَى زَوْر البعير، وهى إحدى الثفنات الخمس . والكِرْكِرة أيضا الجماعة من

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩٨

الناس . وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجل من علماء اللغة . قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهى القطعة من الكَبِد . قال أعشى باهلة :

تكفيه حُزَّةُ فِلْذٍ إن ألمّ بها * من الشواء ويُروِى شُربَه الغُمَرُ (١)

وقال قتادة : ذكر لنا أن عمر رضى الله عنه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما ، وألينكم لباسا ، ولكنى أستبقى طيباتى للآخرة . ولما قدم عمر الشام صُنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ! فقال خالد ابن الوليد : لهم الجنة؛ فاغْرَوْرَقت عَيْنا عمرَ بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام ، وذهبوا هم فى حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيدا . وفى صحيح مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى مَشْرُبَته (٢) حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يردّ البصر إلا أهبًا (٣) جلودا معطونة قد سطع ريحها؛ فقلت : يارسول الله، أنت رسول الله وخِيرته ، وهذا كِسرى وقيصر فى الدِّيباج والحرير ؟ قال : فاستوى جالسا وقال : "أفى شكٍّ أنت يابن الخطاب . أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا" فقلت : استغفر لى ! فقال : "اللّهمّ اغفر له" . وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدّى عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخبز والزيت ، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقَدِيد، وأقلّ ذلك اللحم الغريض (٤) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كلّه ؛ فجىء بخبز متفلع (٥) غليظ ؛ فجعل يأكل ويقول : كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال : يابن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أن لو أمرتُ بعَناق (٦) سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تُخرج مَصْليّة (٧) كأنها كذا وكذا ،

---

(١) الغمر (بضم الأول وفتح الثانى) : القدح الصغير .

(٢) المشربة (بفتح الميم والراء) : الموضع الذى يشرب منه الناس . (وبضم الراء وفتحها) : الغرفة .

(٣) بضم الهمزة والهاء، وبفتحهما على غير قياس؛ جمع إهاب؛ وهو الجلد . (٤) الغريض : الطرى .

(٥) فى نسخة من الأصل : « متقلع » بالقاف . والمتفلع : المشقق . (٦) العناق : الأنثى من ولد المعز؛ والجمع أعنق وعنوق . (٧) الصلاء (بالكسر) : الشواء .

أمَا ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشُنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل[١] ! ما تنعت العيش ؛ قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم فى العيش! ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : « أذهبتم طيّباتِكم فِي حياتِكم الدنيا واستمتعتم بِها » . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله . ﴿ وبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ تخرجون عن طاعة الله . وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما هذا يا جابر؟ فأخبرته ؛ فقال : أوكلما اشتهى أحدكم شيئا جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الآية . قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمّارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبًا كان أو قَفارا[٢] ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدِم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللّحم إذا تيسّر، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دَيْدَنًا . ومعيشة النبىّ صلى الله عليه وسلم معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهَب الإخلاص ، ويُعين على الخلاص برحمته . وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحللة ، وهو حسن ؛ فإن

(١) فى بعض نسخ الأصل : «أجاد» .

(٢) القفار (بالفتح) : الطعام بلا أدم .

تناول الطيب الحلال مأذون فيه ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين . ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ أى آذكر لهؤلاء المشركين قصة عادٍ ليعتبروا بها . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود ليقتدى به ، ويهون عليه تكذيب قومه له . والأحقاف : ديار عاد ، وهى الرمال العظام ؛ فى قول الخليل وغيره . وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم . والأحقاف جمع حِقْف ، وهو ما استطال من الرمل العظيم وآعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا ، والجمع حِقاف وأحقاف [وحقوف] . وآحقوقف الرمل والهلال أى آعوج . وقيل : الحقف جمع حِقاف . والأحقاف جمع الجمع . ويقال : حِقْفٌ أحقف . قال الأعشى :

* بات إلى أرطاة حِقف أحْقَفَا[(١)] *

أى رمل مستطيل مشرف . والفعل منه آحقوقف . قال العجاج :

طَىّ الليالى زُلَفًا فزلفا * سَمَاوَةَ الهلال حتى احقوقفا

أى انحنى واستدار . وقال امرؤ القيس :

يَحقف النقا[(٢)] يمشى الوِلْيدَانِ فوقه * بما احتسبا من لِين مَسٍّ وتَسْهالِ

وفيما أريد بالأحقاف هاهنا مختلف فيه . فقال ابن زيد : هى رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ؛ وشاهده ما ذكرناه . وقال قتادة : هى جبال

---

(١) هذا الرجز نسبه الطبرى فى تفسيره الى العجاج ؛ ولم نعثر عليه فى شعر الأعشى ولا فى أراجيز العجاج . والأرطاة : جمعه أرطى ، وهو شجر من شجر الرمل . (٢) النقا : الكثيب من الرمل .

مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْرُ قريب من عدن؛ يقال: شِحْرُ عُمَان وشَحْرُ عمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن . وعنه أيضا : ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن ، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشّحْر . وقال مجاهد : هى أرض من حِسْمَى تسمى بالأحقاف . وحِسْمَى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها . قال النابغة :

فأصبحَ عاقِلًا بجبالِ حِسْمَى * دُقاقَ التُّرْبِ مُحْتَزِمَ القَتَامِ [(١)]

قاله الجوهرى . وقال ابن عباس والضحاك : الأحقاف جبل بالشام . وعن ابن عباس أيضا : وادٍ بين عُمان ومهرة . وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بواد يقال له مهرة، و إليه تنسب الإبل المَهْرِيّة [(٢)]؛ فيقال : إبل مَهْرِيّة ومَهارِى . وكانوا أهل عُمُد سيّارة فى الربيع فإذا هاجَ [(٣)] العود رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم . وقال الكلبى : أحقاف الجبل ما نَضب عنه المـاء زمان الغرق ، كان يَنْضُب المـاء من الأرض ويبقى أثره . وروى الطُّفيل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : خيرُ وادِيَيْن فى الناس وادٍ بمكة ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند. وشرُّ وادِيَيْن فى الناس وادٍ بالأحقاف ووادٍ بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواح الكفار . وخير بئر فى الناس بئر زمزم . وشر بئر فى الناس بئر بَرَهُوت، وهو فى ذلك الوادى الذى بحضرموت . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أى مضت الرسل . ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى من قبل هود . ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى ومن بعده ؛ قاله الفرّاء . وفى قراءة ابن مسعود « من بين يديه ومن بعده » . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ هذا من قول المرسل ، فهو كلام معترض . ثم قال هود ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقيل «ألا تعبدوا إلا الله» من كلام هود ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم

(١) قال ابن بَرّى : «أى حسمى قد أحاط به القتام كالحزام له» . (٢) فى معجم البلدان لياقوت وكتب اللغة أن الإبل المهرية تنسب الى مهرة بن حيدان أبو قبيلة . (٣) هاج البقل : إذا أخذ فى اليبس .

مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ فيه وجهان : أحدهما — لتزيلنا عن عبادتها بالإفك . الثاني — لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع ؛ قاله الضحاك . قال عُرْوة بن أُذَيْنَة :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ * فُوكًا ففى آخرين قد أُفِكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا . ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد . ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنك نبىّ ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت مجىء العذاب . ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ لا عندى . ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ عن ربكم . ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ فى سؤالكم استعجال العذاب . ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ قال المبرد : الضمير فى « رأوه » يعود إلى غير مذكور ؛ وبيّنه قولُه : « عَارِضًا » فالضمير يعود إلى السحاب ؛ أى فلما رأوا السحاب عارضا . فـ« عارضا » نصب على التكرير ؛ سُمّىَ بذلك لأنه يبدو فى عرض السماء . وقيل : نصب على الحال . وقيل : يرجع الضمير إلى قوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » فلما رأوه حسبوه سحابا يمطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عنهم ، فلما رأوه « مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » استبشروا . وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال الجوهرى : والعارض السحاب يعترض فى الأفق ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ أى ممطر لنا ؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة . والعرب إنما تفعل مثل هذا فى الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها . قال جرير :

يارُبَّ غابِطِنا لوكان يطلبكم * لاقَى مباعدةً منكم وحِرْمَانَا

ولا يجوز أن يقال : هذا رجل غلامنا . وقال أعرابى بعد الفطر : رُبَّ صائمة لن تصومه وقائمة لن تقومه ؛ فجعله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

قلت : قوله : « لا يجوز أن يكون صفة لعارض » خلاف قول النحويين ، والإضافة في تقدير الانفصال ، فهي إضافة لفظية لا حقيقية ؛ لأنها لم تفد الأوّل تعريفا ، بل الاسم نكرة على حاله ؛ فلذلك جرى نعتا على النكرة . هـذا قول النحويين في الآية والبيت . ونعت النكرة نكرة . و « رُبّ » لا تدخل إلا على النكرة . ﴿ بَلْ هُـوَ ﴾ أي قال هُودٌ لهم . والدليل عليه قراءة من قرأ « قال هود بل هـو » وقرئ « قل بل ما استعجلتم به هي ريح » أي قال الله قل بل هو ما استعجلتم به ؛ يعني قولهم : « فَأْتِنَا بِمَـا تَعِدُنَا » ثم بيّن ما هو فقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والريح التي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ، وخرج هـود من بين أظهرهم ، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظَّعِينة[(١)] فترفعها كأنها جرادة ، ثم تضرب بها الصخور . قال ابن عباس : أوّل ما رأو العارض قاموا فمـدّوا أيديهم ، فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهـم الريح ما بين السماء والأرض مثـل الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهـم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما[(٢)] ، ولهم أنين ؛ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر ؛ فهي التي قال الله تعـالى فيها : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها . قال ابن عباس : أي كل شيء بُعثت إليه ، والتدمير : الهلاك . وكذلك الدَّمار . وقرئ « يَدْمُرُ كُلُّ شيء » من دَمَر دمارًا . يقال : دمّره تدميرا ودمارا ودمّر عليـه بمعنًى . ودَمَر يَدْمُرُ دُمورا دخل بغير إذن . وفي الحديث : "من سبق طَرْفُهُ استئذانه فقد دَمَر" مخفّف الميم . وتَدْمُر : بلد بالشام . ويَرْبُوع تَدْمُرِيّ إذا كان صغيرا قصيرا . ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ بإذن ربها . وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لَهَوَاتِهِ[(٣)] إنما كان يتبسّم . قالت : وكان إذا رأى غيمًا أو رِيحًا

---

(١) الظعينة : الجمل يظعن عليه . والهودج فيه امرأة أم لا . (٢) الأيام الحسوم : الدائمة في الشر .

(٣) جمع لهاة ، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

عُرف فى وجهه . قالت : يارسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرف فى وجهك الكراهية ؟ فقال : "ياعائشة ، مايُؤَمِّننِي أن يكون فيه عذاب عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هـذا عارِضٌ مُمْطِرُنا " خرّجه مسلم والترمذي ، وقال فيه : حديث حسن . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نُصِرت بالصَّبا[1] وأهلِكت عادٌ بالدبور" . وذكر الماوردى أن القائل « هذا عارِضٌ مُمْطِرنا » من قوم عاد : بكر بن معاوية ؛ ولما رأى السحاب قال : إنى لأرى سحابا مرمدا ، لا تدع من عاد أحدا[2] . فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه فى ناديهم . قال ابن إسحاق : واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يُلين أعلى ثيابهم . وتلتذ الأنفس به ؛ و إنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتَدْمَغُهم بالحجارة حتى هلكوا . وحكى الكلبى أن شاعرهم قال فى ذلك :

فـدعا هـود عليهـم * دعوةً أضحَوْا همـودا

عصفت ريح عليهـم * تركت عادًا خمـودا

سخّرت سبع ليـال * لم تدع فى الأرض عودا

وعمر هود فى قومه بعدهم مائة وخمسين سنة . ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة « لا يرى إلا مساكنهم » بالياء غير مسمى الفاعل . وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ « ترى » بالتاء . وقد روى ذلك عن أبى بكر عن عاصم . الباقون « تَرَى » بتاء مفتوحة . « مساكنَهم » بالنصب ؛ أى لا ترى يا محمد إلا مساكنهم . قال المهدَوِى : ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذى هو المساكن المؤنثة ؛ وهو قليل لا يستعمل إلا فى الشعر . وقال أبو حاتم : لا يستقيم هـذا فى اللغة إلا أن يكون فيها إضمار ؛ كما تقول فى الكلام ألا تُرى النساء إلا زينب . ولا يجوز لا ترى إلا زينب .

(١) الصبا (بالفتح) : ريح الشمال . والدبور : ريح الجنوب .

(٢) فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة (رمد) وتاريخ الطبرى : « خذها رمادا رمددا ، لا تذر من عاد أحدا » والرمدد (بالكسر) : المتناهى فى الاحتراق والدقة .

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة . قال الكسائى : معناه لا يرى شىء إلا مساكنهم، فهو محمول على المعنى؛ كما تقول : ما قام إلا هند، والمعنى ما قام أحد إلا هند . وقال الفرّاء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة . ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فيه﴾ قيل : إن « إنْ » زائدة؛ تقديره ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه . وهذا قول القُتَبى .

وأنشد الأخفش :

يُرَجّى المرءُ ما إن لا يراه * وتعرِض دون أدناه الخطوب

وقال آخر :

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكن * منايانا ودَوْلةُ آخرينا[1]

وقيل : إن « ما » بمعنى الذى . و « إن » بمعنى ما، والتقدير ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّد . وقيل : شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير ولقد مكناهم فى ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشدّ ؛ وتمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ يعنى قلوبا يفقهون بها . ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من عذاب الله . ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾ يكفرون . ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أحاط بهم . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

(١) البيت لفروة بن مسيك المرادى . والطب : الشأن والعادة والشهوة والإرادة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾ يريد حِجْر ثمود وقُرَى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ يعنى الحجج والدلالات وأنواع البيّنات والعظات ؛ أى بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلم يرجعوا . وقيل : أى صرفنا آيات القرآن فى الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمْ ﴾ «لولا» بمعنى هَلّا ؛ أى هلّا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : «هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»(١) ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكِسائىّ : القُرْبان كلُّ ما يُتقرّب به إلى الله تعالى من طاعة ونَسيكة ؛ والجمع قرابين ؛ كالرهبان والرهابين . وأحد مفعولى اتخذ الراجع(٢) إلى الذين المحذوف ، والثانى « آلِهَةً » . و « قُرْبَانًا » حال ، ولا يصح أن يكون « قربانا » مفعولا ثانيا . و « آلهة » بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشرىّ . وقرئ «قُرُبانا» بضم الراء . ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أى هلكوا عنهم . وقيل : « بل ضلوا عنهم » أى ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هى جماد . وقيل : ضلوا عنهم ؛ أى تركوا الأصنام وتبرءوا منها . ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أى والآلهة التى ضلّت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زُلْفَى . وقراءة العامة « إِفْكُهُمْ » بكسر الهمزة وسكون الفاء ؛ أى كذبهم . والإفك : الكذب ، وكذلك الأَفيكة ، والجمع الأفائك . ورجل أفاك أى كذاب . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير «وذلك أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) الضمير الراجع .

والفاء والكاف، على الفعل؛ أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد . والأَفْكُ (بالفتح) مصدر قولك : أَفَكَه يأْفِكه أَفْكًا ؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء . وقرأ عكرمة « أَفَّكهم » بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير. قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم . وذكر المهدوىّ عن ابن عباس أيضا « آفِكهم » بالمد وكسر الفاء ؛ بمعنى صارفهم . وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه « آفَكهم » بالمدّ؛ فجاز أن يكون أفعلهم ، أى أصارهم إلى الإفك . وجاز أن يكون فاعلهم كخادعهم . ودليل قراءة العامة « إفْكُهم » قوله ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يكذبون . وقيل « إفْكُهم » مثل « أَفَكَهُم » . الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر ؛ قاله المهدوىّ .

قوله تعالى : وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ﴾ هذا توبيخ لمشركى قريش ؛ أى إن الجنّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصِرّون على الكفر . ومعنى « صَرَفنا » وجهنا إليك وبعثنا . وذلك أنهم صُرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب — على ما يأتى — ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرِفوا عنه إلا عند مبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرُهم : لما مات أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثَقيف النُّصْرة فقصد عبدَ ياليل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بنى جُمَح ؛ فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم : هو يَمْرُط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : ما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبدا ؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام ، وإن كنت تكذِب فما ينبغى لى أن أكلمك . ثم أغرَوْا به سفهاءهم

---

(١) يمرط : ينزع .

وعبيدهم يسبّونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعُتْبة وشَيْبة ابنى ربيعة . فقال للجُمَحِيّة : "ماذا لقينا من أحمائك" ؟ ثم قال : "اللّهُمّ إنى أشكو إليك ضَعْف قوتى وقلّة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربى ؛ لمن تكِلُنى ! إلى عبد(١) يَتَجَهّمُنى(٢) ، أو إلى عدوّ ملكته أمرى ! إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضبك ، أو يحلّ على سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك" . فرحمه ٱبنا ربيعة وقالا لغلام لهما نصرانىّ يقال له عدّاس : خذ قِطْفًا من العنب وضعه فى هذا الطبق ثم ضعه بين يدى هذا الرجل ؛ فلما وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبى صلى الله عليه وسلم "بٱسم الله" ثم أكل ؛ فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "مِن أىّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك" ؟ قال : أنا نصرانى من أهل نِينَوَى . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى" ؟ فقال : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال : "ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبىّ" فٱنكبّ عدّاس حتى قبّل رأس النبى صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه . فقال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا ! ؟ فقال : يا سَيِّدَىَّ ما فى الأرض خير من هذا ، أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبىّ . ثم ٱنصرف النبىّ صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان ببطن نَخْلة قام من الليل يصلى فمرّ به نفر من جنّ أهل نَصِيبِين . وكان سبب ذلك أن الجنّ كانوا يسترِقون السمع ، فلما حُرِست السماء ورُمُوا بالشهب قال إبليس : إن هذا الذى حدث فى السماء لِشىء حدث فى الأرض ؛ فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أوّلهم رَكْب نَصِيبين وهم أشراف الجنّ إلى تِهامة ، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبىّ صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا . وقالت طائفة : بل أمِر النبى صلى الله عليه وسلم أن ينذر

---

(١) فى سيرة ابن هشام : «بعيد» . (٢) أى يلقانى بالغلظة والوجه الكريه .

الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن؛ فصرف الله عز وجل إليه نفرا من الجنّ من نِينَوَى وجمعهم له؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنى أريد أن أقرأ القرآن على الجنّ الليلة فأيكم يتبعنى"؟ فأطرقوا، ثم قال الثانية فأطرقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا؛ فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله؛ قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحد غيرى؛ فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم شِعْبًا يقال له «شِعْب الحَجُون» وخطّ لى خطا وأمرنى أن أجلس فيه وقال: "لا تخرج منه حتى أعود إليك". ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها، وسمعت لَغَطًا وغَمْغَمَةً حتى خِفْت على النبيّ صلى الله عليه وسلم، وغَشِيَته أَسْوِدة[1] كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم طَفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرغ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الفجر فقال: "أنمت"؟ قلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا؛ فقال: "لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم" ثم قال: "هل رأيت شيئا"؟ قلت: نعم يا رسول الله، رأيت رجالًا سُودًا مُسْتَثْفِرِى[2] ثيابًا بيضًا؛ فقال: "أولئك جِنّ نَصِيبين سألونى المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل[3] ورَوْثة وبعرة". فقالوا: يا رسول الله يَقْذَرها الناس علينا. فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث. قلت: يا نبيّ الله، وما يغنى ذلك عنهم! قال: "إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبّها يوم أُكِل" فقلت: يا رسول الله، لقد سمعت لغطا شديدا؟ فقال: "إن الجنّ تدارأت[4] فى قَتِيل بينهم فتحاكموا إلىّ فقضيت بينهم بالحق". ثم تبرز النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم أتانى فقال: "هل معك ماء"؟ فقلت يا نبيّ الله، معى إداوة[5] فيها شىء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال: "تمرة طيّبة وماء طهور". روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضا عن ابن مسعود. وليس

---

(١) أسودة (جمع السواد) والسواد والأسودات والأساود: جماعة الناس. وقيل هم الضروب المتفرقون.

(٢) الاستثفار: أن يدخل الانسان إزاره بين فخذيه ملويا ثم يخرجه. (٣) العظم الحائل: المتغير؛ قد غيره البلى.

(٤) تدارأ: اختلف. (٥) الإداوة: إناء صغير من جلد.

فى حديث معمر ذكر نبيذ التمر. وروى عن أبى عثمان النَّهْدِىّ أن ابن مسعود أبصر زُطًّا[1] فقال: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزُّطّ. قال: ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ فكانوا مستفزّين يتبع بعضهم بعضا. وذكر الدَّارَقُطْنِىّ عن عبد الله بن لَهِيعة حدّثنى قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه وضأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ بنبيذ فتوضأ به وقال: "شراب وطهور". ابنُ لَهِيعة لا يحتج به. وبهذا السند عن ابن مسعود أنه خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمعك ماء يابن مسعود"؟ فقال: معى نبيذ فى إداوة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صُبّ علىّ منه". فتوضأ وقال: "هو شراب وطهور" تفرّد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث. قال الدارقطنى: وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ. كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال: ما شهدت ليلة الجنّ. حدّثنا أبو محمد بن صاعد حدّثنا أبو الأشعث حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا داود بن أبى هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجنّ؟ قال لا. قال الدارقطنى: هذا إسناد صحيح لا يختلف فى عدالة راويه. وعن عمرو بن مُرّة قال قلت لأبى عبيدة: حضر عبدالله بن مسعود ليلة الجنّ؟ فقال لا. قال ابن عباس: كان الجنّ سبعة نفر من جنّ نَصِيبين فجعلهم النبىّ صلى الله عليه وسلم رسلا إلى قومهم. وقال زِرّ بن حُبيش: كانوا تسعةً أحدهم زَوْبعة. وقال قتادة: إنهم من أهل نِينَوَى. وقال مجاهد: من أهل حران. وقال عكرمة: من جزيرة الموصل. وقيل: إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين. وروى ابن أبى الدنيا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى هذا الحديث وذكر فيه نصيبين فقال: "رفعت إلىّ حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يُغزر نهرها". وقال السهيلى: ويقال كانوا سبعة، وكانوا يهودا فأسلموا؛ ولذلك قالوا «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى»[2]. وقيل فى أسمائهم: شاصر وماصر ومنشى

(١) الزط: جيل أسود من السند. وقيل: إعراب «جتّ» بالهندية، وهم جيل من أهل الهند.
(٢) فى كتب اللغة: «شصار» ككتاب.

وماشى والأحقب ؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد . ومنهم عمرو بن جابر ؛ ذكره ابن سلام من طريق أبى إسحاق السَّبِيعى عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان فى نفر من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حَيّة قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقّه وكفن الحية ببعضه ودفنها؛ فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيّكم دفن عمرو بن جابر؟ فقلنا : ما ندرى من عمرو بن جابر! فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه ، إن فَسَقة الجنّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو ، وهو الحيّة التى رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم وَلَّوْا إلى قومهم منذرين . وذكر ابن سلام رواية أخرى : أن الذى كفّنه هو صفوان بن المُعَطّل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبى بنحوه فقال : وقال ثابت بن قطبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إنا كنّا فى سفر فرأينا حية متشحّطة فى دمائها ، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا : أيّكم دفن عَمْرًا ؟ قلنا : وما عمرو! قالوا الحية التى دفنتم فى مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبىّ صلى الله عليه وسلم وكان بين حَيّيْن من الجنّ مسلمين وكافرين قتال فقتل . ففى هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن فى سفر ولا حَضَر الدفن ؛ والله أعلم . وذكر ابن أبى الدنيا عن رجل من التابعين سمّاه : أن حية دخلت عليه فى خِبائه تَلْهث عطشا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها ، فأتِى من الليل فسلّم عليه وشكر ، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلا من جنّ نَصِيبِين اسمه زوبعة . قال السُّهَيْلىّ : وبلغنا فى فضائل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه مما حدّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلى أن عمر بن عبد العزيز كان يمشى بأرض فلاة ، فإذا حية ميّتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها ؛ فإذا قائل يقول : ياسرق ، أشهد لسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح" . فقال : ومن أنت يرحمك الله ! فقال : رجل من الجنّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق منهم إلا أنا وسرق ، وهذا سرق قد مات . وقد قتلت

عائشة رضى الله عنها حية رأتها فى حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتيت فى المنام فقيل لها : إنك قتلت رجلا مؤمنا من الجنّ الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لو كان مؤمنا ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة ، وما جاء إلا ليستمع الذكر . فأصبحت عائشة فزعة ، واشترت رقابا فأعتقتهم . قال السهيلى : وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنّ ما حضرنا ؛ فإن كانوا سبعة فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم ، وليس بآسم علم ؛ فإن الأسماء التى ذكرناها آنفا ثمانية بالأحقب . والله أعلم .

قلت : وقد ذكر الحافظ آبن عساكر فى تاريخه : هامة بن الهيم[1] بن الأقيس بن إبليس ؛ قيل : إنه من مؤمنى الجنّ وممن لقى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلّمه سورة «إذا وقعت الواقعة» و «المرسلات» و«عمّ يتساءلون» و«إذا الشمس كُوّرت» و«الحمد» و«المعوّذتين» . وذكر أنه حضر قتل هابيل وشَرِك فى دمه وهو غلام ابن أعوام ، وأنه لقى نُوحًا وتاب على يديه ، وهودًا وصالحا و يعقوب و يوسف و إلياس وموسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام . وقد ذكر الماوردىّ أسماءهم عن مجاهد فقال : حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم . وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدّثنا محمد آبن البراء قال حدّثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عتبة بن أبى لهب يُسَمِّى جِنّ نَصِيبِين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسى ومسى وشاصر وماصر والأخر والأرد وأنيان[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أى حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو من باب تلوين الخطاب . وقيل : لما حضروا القرآن واستماعه . ﴿ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض اسكتوا لآستماع القرآن . قال آبن مسعود : هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى بعض الأصول : «الأهيم» .

(٢) لم نوفق لتحقيق هذه الأسماء . والأصول والمصادر التى بين أيدينا مضطربة فيها .

وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه « قالوا أنصتوا » قالوا صه . وكانوا سبعة : أحدهم زوبعة؛ فأنزل الله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا » الآية إلى قوله : « فى ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقيل : « أنصتوا » لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ والمعنى متقارب . ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير « فَلَمَّا قَضَى » بفتح القاف والضاد؛ يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة . وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاءوا وادى نخلة والنبىّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى صلاة الفجر، وكانوا سبعة، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين، ولم يعلم بهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : بل أمِر النبىّ صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفرا من الجنّ ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنّ، منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا . وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، وأنه أرسلهم . ويدل على هذا قولهم : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ » ولولا ذلك لما أنذروا قومهم . وقد تقدّم عن ابن عباس أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلا إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلةُ الجنّ ليلتان، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى . وفى صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتى بيانه فى « قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ » . وفى صحيح مسلم عن معْن قال : سمعت أبى قال سألت مسروقا من آذن[1] النبىّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثنى أبوك — يعنى ابن مسعود — أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : قَالُوا يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

(١) آذن : أعلم .

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أى القرآن ؛ وكانوا مؤمنين بموسى . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ؛ ولذلك قالوا : « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وعن ابن عباس أن الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى ، فلذلك قالت : « أُنزِل من بعدِ موسى » . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى ما قبله من التوراة . ﴿ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ ﴾ دين الحق . ﴿ وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الله القويم . ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ وهـذا يدل على أنه كان مبعوثا إلى الجنّ والإنس . قال مُقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : يدل على قوله ما فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطيت خمساً لم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبلى كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى كلّ أحمر وأسود وأحِلّت لِيَ الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلى وجُعلت لِيَ الأرض طيّبةً طهورا ومسجدًا فأيّما رجلٍ أدركته الصلاة صلّى حيث كان ونُصِرْتُ بالرُّعْب بين يَدَىْ مَسِيرةِ شَهْرٍ وأُعْطِيتُ الشفاعةَ" . قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجنّ والإنس . وفى رواية من حديث أبى هريرة "وبُعثت إلى الخلق كافّةً وخُتِم بى النبيّون" . ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أى بالداعى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « به » أى بالله ؛ لقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا ؛ فرجعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء ؛ فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم .

مسألة — هذه الآى تدلّ على أن الجنّ كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وبه قال أبو حنيفة قال : ليس ثواب الجنّ إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون

فى الإساءة يجازَوْن فى الإحسان مثل الإنس . وإليه ذهب مالك والشافعي وابن أبى ليلى .
وقد قال الضحاك : الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . قال القشيرى : والصحيح
أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء، والعلم عند الله .

قلت : قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »[1] يدل على أنهم يثابون ويدخلون
الجنة؛ لأنه قال فى أوّل الآية : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ[2]
آيَاتِي — إلى أن قال — وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » . والله أعلم؛ وسيأتى لهذا فى سورة
« الرحمن » مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى لا يفوت الله
ولا يسبقه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله . ﴿ أُولَٰئِكَ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الرؤية هنا بمعنى
العلم . و « أنّ » واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ احتجاج على منكرى البعث . ومعنى « لَمْ يَعْيَ » يعجز ويضعف عن
إبداعهن . يقال : عيّ بأمره وعَيِيَ إذا لم يهتد لوجهه ؛ والإدغام أكثر . وتقول فى الجمع
عَيُوا ، مخففا ، وعيّوا أيضا بالتشديد . قال :

(١) آية ١٣٢ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة الأنعام .

عَيُّوا بِأَمرِهِمُ كما * عَيَّتْ ببيضتها الحمامةْ[1]

وعَيِيت بأمرى إذا لم تهتد لوجهه . وأعيانى هو . وقرأ الحسن « ولم يَعى » بكسر العين وإسكان اليـاء ؛ وهو قليل شاذ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا فى أسماء قليلة ؛ نحو غاية وآية . ولم يأت فى الفعل سوى بيت أنشده الفرّاء ؛ وهو قول الشاعر :

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ * تمشِى بِسُـدّة بَيْتِها فتـَعِى[2]

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء فى قوله : « وَكَفَى بِاللهِ شهيدا » ، وقوله : « تَنْبُتُ بالدُّهْنِ »[3] . وقال الكسائىّ والفرّاء والزجاج : الباء فيـه خَلَف الاستفهام والجحد فى أوّل الكلام . قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجحد تقول : ما ظننت أن زيدا بقـائم . ولا تقول : ظننت أن زيدا بقائم . وهو لدخول « ما » ودخول « أنّ » للتوكيد . والتقـدير : أليس الله بقادر؛ كقوله تعـالى : « أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ »[4] . وقرأ ابن مسعود والأعرج والجَحْدرِىّ وابن أبى إسحاق و يعقوب « يَقدر » واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول البـاء فى خبر « أنّ » قبيح . واختار أبو عبيد قراءة العامة ؛ لأنها فى قراءة عبد الله « خَلَقَ السّمواتِ والأرض قَادِرٌ » بغير باء . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى ذكّرهم يوم يعرضون فيقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم المقرّر : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفركم .

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص .
(٢) السدّة : الفناء .
(٣) آية ٢٠ سورة المؤمنون .
(٤) آية ٨١ سورة يس .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قال ابن عباس : ذوو الحزم والصبر ؛ قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : إن أولى العزم : نوح ، وهود ، وإبراهيم . فأمر الله عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم . وقال السدّى : هم ستة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق فى سورة « الأعراف والشعراء » . وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدّة . وإبراهيم صبر على النار . وإسحاق صبر على الذبح . ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر . ويوسف صبر على البئر والسجن . وأيوب صبر على الضرّ . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم . وقال الشعبيّ والكلبيّ ومجاهد أيضا : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة . وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة « الأنعام » وهم ثمانية عشر : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكرياء ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط . واختاره الحسن بن الفضل لقوله فى عقبه : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[1] . وقال ابن عباس أيضا : كل الرسل كانوا أولى عزم . واختاره علىّ بن مهدى الطبرىّ ، قال : وإنما دخلت « من » للتجنيس لا للتبعيض ؛ كما تقول : اشتريت أردية من البزّ وأكسية من الخزّ . أى اصبر كما صبر الرسل . وقيل : كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متّى ؛ ألا ترى أن

(١) آية ٩٠ سورة الأنعام .

النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله ؛ لخفّة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مُغاضِباً لقومه ، فابتلاه الله بثلاث : سلّط عليه العمالقــة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولده فأكله ، وسلط عليـه الحُوت فابتلعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم . وقال بعض العلماء : أولو العزم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله إلى الأنبياء أنى مرسِل عذابى إلى عصاة بنى إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بنى إسرائيل ، وإن شئتم نجيتكم وأنزلت العـذاب ببنى إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى الله بنى إسرائيل ؛ فأنجى الله بنى إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب . وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فمنهم من نُشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ، ومنهم من حُرّق بالنار . والله أعلم . وقال الحسن : أولو العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ؛ فأما إبراهيم فقيل له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين »(١) ثم ٱبتلِيَ فى ماله وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقا وافيـا فى جميع ما ابتلى به . وأما موسى فعزمه حين قال له قومه : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »(٢) . وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبِّه عليها ، فأقام يبكى أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجـرة ، فقعد تحت ظلها . وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال : "إنها مَعْبَر فٱعبروها ولا تعمروها" . فكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اصبر ؛ أى كن صادقا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ، واثقا بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمًّا بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ، زاهدا فى الدنيا مثل زهد عيسى . ثم قيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : مُحْكَمَة ؛ والأظهر أنها منسوخة ؛ لأن السورة مكية . وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ؛ فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل ، تسهيلا عليه وتثبيتا له . والله أعلم . ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ قال مقاتل : بالدعاء

---

(١) آية ١٣١ سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة الشعراء .

عليهم . وقيل : فى إحلال العذاب بهم ، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة . ومفعول الاستعجال محذوف ، وهو العذاب . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال يحيى : من العذاب . النقاش : من الآخرة . ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أى فى الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى . وقال النقاش : فى قبورهم حتى بعثوا للحساب . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ يعنى فى جنب يوم القيامة . وقيل : نسّاهم هَوْل ما عاينوا من العذاب طول لبثهم فى الدنيا . ثم قال : ﴿ بَلَاغٌ ﴾ أى هذا القرآن بلاغ ؛ قاله الحسن . ف« بلاغ » رفع على إضمار مبتدأ ؛ دليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ »[(١)] ، وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ »[(٢)] . والبلاغ بمعنى التبليغ . وقيل : أى إن ذلك اللبث بلاغ ؛ قاله ابن عيسى ، فيوقف على هذا على « بلاغ » وعلى « نهار » . وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على « وَلَا تَسْتَعْجِلْ » ثم ابتدأ « لهم » على معنى لهم بلاغ . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام ، — وهى رافعة — بشىء ليس منهما . ويجوز فى العربيـة : بلاغا وبلاغٍ ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغا ؛ على المصدر أو على النعت للساعة . والخفض على معنى من نهارٍ بلاغٍ . وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن . وروى عن بعض القـرّاء « بَلِّغ » على الأمر ؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على « من نهار » ثم يبتدئ « بلغ » . ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى الخارجون عن أمر الله ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقرأ ابن مُحَيْصِن « فهل يَهْلِك إلا القوم » على إسناد الفعل إلى القـوم . وقال ابن عباس : إذا عَسُر على المـرأة وَلَدُها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين فى صحيفة ثم تغسل وتسقى منها ؛ وهى : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[(٣)] . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » صدق الله العظيم . وعن قتادة : لا يهلك إلا هالك مشرك[(٤)] . وقيل : هذه أقوى آية فى الرجاء . والله أعلم .

---

(١) آخر سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٦ سورة الأنبياء . (٣) آخر سورة النازعات .

(٤) فى تفسير الطبرى : « تعلموا ما يهلك على الله الا هالك ولّى الإسلام ظهره ، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله » .

سورة القتال، وهى سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنيـة فى قول ابن عباس ؛ ذكره النحاس . وقال الماوردىّ : فى قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعـد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه ؛ فنزل عليه « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ »[1] . وقال الثعلبىّ : إنها مكية ؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسـعيد ابن جُبَير . وهى تسع وثلاثون . وقيل ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهـل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدّوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسـلام بنهيهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدّى . وقال الضحاك : « عن سَبِيلِ اللهِ » عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطل كيدهم ومكرهم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطلَ ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام وفكّ الأسارى وقِرَى الأضياف وحفظ الجوار . وقال ابن عباس : نزلت فى المُطْعِمين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث ابن هشام ، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبَىّ وأميّـة ابنا خلف ، ومُنَبّه ونُبَيْه ابنا الحجاج ، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام ، وزَمْعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن عامر بن نوفل .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

(١) آية ١٣

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت خاصة فى ناس من قريش . وقيل : هما عامّتان فيمن كفر وآمن . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطلها . وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من قال إنهم الأنصار فهى المواساة فى مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهى الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التى ترضى الله تعالى . ﴿ وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه فى شىء ؛ قاله سفيان الثَّوْرِىّ . وقيل : صدّقوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم . وقيل : أى إن القرآن هو الحق من ربهم ، نسخ به ما قبله ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان . ﴿ وأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أى شأنهم ؛ عن مجاهد وغيره . وقال قتادة : حالهم . ابن عباس : أمورهم . والثلاثة متقاربة وهى متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم ؛ ومنه قول الشاعر :

فإن تُقبِلى بالودّ أقبِل بمثله * و إن تدبرى أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم . « والبال » كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا فى ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . المبرد : قد يكون البال فى موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال : ما يخطر فلان على بالى ؛ أى على قلبى . الجوهرى : والبال رخاء النفس ؛ يقال فلان رَخِىّ البال . والبال : الحال ؛ يقال ما بالك . وقولهم : ليس هذا من بالى ؛ أى مما أباليه . والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر ، وليس بعربى . والبالة : وعاء الطِّيب ، فارسى معرّب ، وأصله بالفارسية پيلة . قال أبو ذؤيب :

كأنّ عليها بالةً لَطِمِيَّةً * لها من خلال الدَّأْيَتَيْن أَرِيجُ [(١)]

---

(١) اللطمية : العنبرة التى لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها . والدأى : فقر الكاهل والظهر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ (٣)

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وأنّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع؛ أى الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدّم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق . والباطلُ : الشركُ . والحقُّ : التوحيد والإيمان . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى كهذا البيان الذى بُيّن يُبيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير فى « أَمْثَالَهُمْ » يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا .

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٤)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان . وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذمّة؛ ذكره الماوَرْدىّ . وآختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه؛ « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » مصدر . قال الزجاج أى فاضربوا الرقاب ضربا . وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقيلَ : نصب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولك يانفسُ صبراً . وقيل : التقدير

اقصدوا ضرب الرقاب. وقال: «فضرب الرقاب» ولم يقل فاقتلوهم؛ لأن فى العبارة بضرب الرقاب من الغِلْظة والشّـدة ما ليس فى لفظ القتل؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره؛ وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعُلْوه وأَوْجَهُ أعضائه.

الثانيـــة ــ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أى أكثرتم القتل. وقد مضى فى «الأنفال» عند قوله تعالى: «حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ»(1). ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أى إذا أسرتموهم. والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا؛ يقال: أوثقته إيثاقا ووثاقا. وأما الوِثاق (بالكسر) فهو اسم الشىء الذى يوثق به كالرِّباط؛ قاله القشيرى. وقال الجوهرى: وأوثقه فى الوثاق أى شـدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثاق». والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيـه. وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يُفلتوا. ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾. ولم يذكر القتل هاهنا اكتفاء بما تقدّم من القتل فى صدر الكلام، و«مَنًّا» و«فِدَاءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء؛ أى فإما أن تمنُّوا عليهم منًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً. روى عن بعضهم أنه قال: كنت واقفا على رأس الحجاج حين أُتِىَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِنْدة فقال: يا حجاج، لاجازاك الله عن السنة والكرم خيرا! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال «فإذا لقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْـدُ وَإِمّا فِدَاءً» فى حق الذين كفروا؛ فوالله! ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ؟ وقـد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهـم * إذا أثقل الأعناقَ حِمْـلُ المغارم

فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام!؟ خَلُّوا سبيل من بقى. فخُـلِّىَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زُهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها.

الثالثة — واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول — أنها منسوخة ، وهى فى أهل الأوثان ، لا يجوز أن يُفادوا ولا يُمَنّ عليهم . والناسخ لها عندهم قوله تعالى : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(١) وقوله : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ »(٢) وقوله : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً »(٣) الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والسدّى وابن جُرَيج والعَوْفى عن ابن عباس ، وقاله كثير من الكوفيين . وقال عبد الكريم الجَوْزىّ : كُتب إلى أبى بكر فى أسير أُسِر ، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا ؛ فقال : اقتلوه ، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إلىّ من كذا وكذا .

الثانى — أنها فى الكفار جميعا . وهى منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر ، منهم قتادة ومجاهد قالوا : إذا أُسِر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه ، ولا أن يفادى به فيرد إلى المشركين ؛ ولا يجوز أن يفادَى عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تقتل . والناسخ لها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجِزْية . وهو المشهور من مذهب أبى حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حَرْبًا للمسلمين . ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة « فإمّا مَنًّا بَعْدُ وإمّا فِدَاء » قال نسخها « فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ » . وقال مجاهد : نسخها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . وهو قول الحكم .

الثالث — أنها ناسخة ؛ قاله الضحاك وغيره . روى الثّورى عن جُوَيْبِر عن الضحاك « فاقتلوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » قال نسخها « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فداءً » . وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِداءً » فلا يقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفَادى ؛ كما قال الله عز وجل . قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير ، ويتلو « فإمّا مَنًّا بعدُ وإمّا فِداء » . وقال الحسن أيضا : فى الآية تقديم وتأخير ؛ فكأنه قال : فَضَرْبَ الرِّقاب حتى تضع الحرب أوزارها . ثم قال : « حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » .

(١) آية ٥ سورة التوبة .   (٢) آية ٥٧ سورة الأنفال .   (٣) آية ٣٦ سورة التوبة .

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير فى يديه أن يقتله ؛ لكنه بالخيار فى ثلاثة منازل : إما أن يَمُنّ ، أو يفادى ، أو يسترق .

الرابــع — قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف ؛ لقوله تعـالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »(١) . فإذا أُسِر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بمـا رآه من قتل أو غيره .

الخامس — أن الآية محكمة ، والإمام مخيّر فى كل حال ؛ رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيـد وغيرهم . وهو الاختيار ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ؛ قَتل النبيّ صلى الله عليه وسلم عُقْبَةَ بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْرًا ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومَنّ على ثُمـامة بن أُثَال الحنفى وهو أسير فى يده ، وأخذ من سلمة بن الأَكْوَع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين ، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم ، وقد منّ على سَبْيِ هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح ، وقد مضى جميعه فى (الأنفال(٢)) وغيرها . قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ، لأن النسخ إنمـا يكون لشىء قاطع ، فإذا أمكن العمـل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسـخ ، إذا كان يجوز أن يقـع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسـترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على ما فيـه الصلاح للمسـلمين . وهـذا القول يروى عن أهل المدينـة والشافعى وأبى عبيد ، وحكاه الطحاوى مذهبًا عن أبى حنيفة ، والمشهور عنه ما قدّمناه ، وبالله عن وجل التوفيق .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَـرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السـلام . وعن مجاهـد أيضا : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسـلام ؛ فيُسْـلِم كلّ يهودىّ ونصرانى وصاحب مِلّة ، وتأمن الشاة من الذئب . ونحـوه

---

(١) آية ٦٧ سورة الأنفال . (٢) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

عن الحسن والكلبي والفرّاء والكسائي . قال الكسائي : حتى يُسْلِم الخلق . وقال الفرّاء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقال الكلبي : حتى يظهر الإسلام على الدِّين كله . وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله . وقيل : معنى الأوزار السلاح ؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . وقيل : معناه حتى تضع الحرب ، أى الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . ويقال للكراع أوزار . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها * رماحا طوالا وخيلا ذكورا
ومن نَسْج داود يحدى بها * على أثر الحَىّ عِيرًا فعيرا[1]

وقيل : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى أثقالها . والوِزْر الثِّقل ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال . وأثقالها السلاح لثقل حملها . قال ابن العربي : « قال الحسن وعطاء : فى الآية تقديم وتأخير ؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق ؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمَرَنا الله ؛ وقرأ « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » . قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس فى تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره ؛ فقد بيّن الله فى الزنى حكم الجلد ، وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم حكم الرجم ؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم » .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع على ما تقدّم ؛ أى الأمر ذلك الذى ذكرت وبينت . وقيل : هو منصوب على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ ؛ المعنى ذلك حكم الكفار . وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام ؛ وهو كما قال تعالى : « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ »[2] . أى هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا . ومعنى « لانتصر منهم » أى أهلكهم بغير قتال . وقال

---

(١) هذه رواية البيت فى الأصول . وروايته فى كتاب « الأعشين » :

ومن نسج داود موضونة * تساق مع الحى عيرا فعيرا

والموضونة : الدرع المنسوجة . وفى شعراء النصرانية : ... على أثر العيس ...

(٢) آية ٥٥ سورة ص .

ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة . ﴿ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى أمركم بالحرب ليبلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين ؛ كما فى السورة نفسها . ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قراءة العامة « قاتلوا » وهى اختيار أبى عبيد . وقرأ أبو عمرو وحفص « قُتِلوا » بضم القاف وكسر التاء ، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدد التاء على التكثير . وقرأ الجَحْدَرى وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة « قَتَلُوا » بفتح القاف والتاء من غير ألف ؛ يعنى الذين قتلوا المشركين . قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هُبَلُ . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يومٌ بيوم بَدْر والحرب سِجال . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا سواء . قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذبون " . فقال المشركون : إن لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم . وقد تقدم ذكر ذلك فى (آل عمران[1]) .

قوله تعالى : سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾

قال القشيرى : قراءة أبى عمرو « قُتِلوا » بعيدة ؛ لقوله تعالى : « سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ » والمقتول لا يوصف بهذا . قال غيره : يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة ، أو سيهدى من بقى منهم ؛ أى يحقق لهم الهداية . وقال ابن زياد : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير فى القبر . قال أبو المعالى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : « فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ » . ومنه قوله تعالى : « فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ[2] » معناه فاسلكوا بهم إليها .

قوله تعالى : وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٤ . (٢) آية ٢٣ سورة الصافات .

أى إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم . قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين . وفى البخارى ما يدل على صحة هذا القول عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا] (١) حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذِن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة [منه] (١) بمنزله فى الدنيا " . وقيل : « عرَّفها لهم » أى بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال . قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف ؛ أى عَرَّف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم ؛ فحذف المضاف . وقيل : هذا التعريف بدليل ، وهو المَلَك الموكّل بعمل العبد يمشى بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتى العبد منزله ، ويعرّفه المَلَك جميع ما جعل له فى الجنة . وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ يردّه . وقال ابن عباس « عرّفها لهم » أى طيّبها لهم بأنواع الملاذ ؛ مأخوذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة . وطعام مُعَرَّف أى مطيَّب ؛ تقول العرب : عرّفت القدر إذا طيّبتها بالملح والأبزار . وقال الشاعر يخاطب رجلا ويمدحه :

* عَرُفْتَ كإتْبٍ عرّفته اللَّطائم (٢) *

يقول : كما عَرُف الإتب ، وهو البَقِير والبَقِيرة ، وهو قميص لا كُمَّين له تلبسه النساء . وقيل : هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته ؛ يقال : حرير معرّف ؛ أى بعضه على بعض ، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس . وقيل : « عرفها لهم » أى وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة . وقيل : عرّف أهل السماء أنها لهم إظهارا لكرامتهم فيها . وقيل : عرف المطيعين أنها لهم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

---

(١) زيادة عن صحيح البخارى .		(٢) اللطائم (جمع لطيمة) : قطعة مسك .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . نظيره « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقد تقدم (١) . وقال قُطْرُب : إن تنصروا نبىّ الله ينصركم الله؛ والمعنى واحد . ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أى عند القتال . وقيل على الإسلام . وقيل على الصراط . وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة فى موطن الحرب . وقد مضى فى « الأنفال » (٢) هذا المعنى . وقال هناك : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » (٢) فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا؛ كقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ » (٣) ثم نفاها بقوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » (٤) . « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » (٥) ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسّره « فَتَعْسًا لَهُمْ » كأنه قال : أَتْعَسَ الذين كفروا . و « تعسًا لهم » نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفرّاء، مثل سَقْيًا له ورَعْيًا . وهو نقيض لَعًا (٦) له . قال الأعشى :

* فالتَّعْسُ أَوْلَى لها من أن أقول لَعَا (٧) *

وفيه عشرة أقوال : الأول — بُعْدًا لهم؛ قاله ابن عباس وابن جُرَيج . الثانى — حزنًا لهم؛ قاله السدى . الثالث — شقاء لهم؛ قاله ابن زيد . الرابع — شَتْمًا لهم من الله؛ قاله الحسن . الخامس — هلاكا لهم ؛ قاله ثعلب . السادس — خَيْبةً لهم؛ قاله الضحاك وابن زيد . السابع — قبحا لهم؛ حكاه النقاش . الثامن — رغما لهم؛ قاله الضحاك أيضا . التاسع —

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٣) آية ١١ سورة السجدة . (٤) آية ٤٠ سورة الروم . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع . (٧) فى اللسان وكتاب الأعشين : «أدنى» بدل «أولى» . وصدره :

* بذات لوث عفرناة إذا عثرت *

واللوث (بالفتح) : القوة» . وعفرناة : قوية .

شَرًّا لهم؛ قاله ثعلب أيضا . العاثر — شِقْوة لهم؛ قاله أبو العالية . وقيل : إن التَّعْس الانحطاط والعِثار . قال ابن السِّكِّيت : التعس أن يَخِر على وجهه . والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه . قال : والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهرى : وأصله الكَبّ ، وهو ضدّ الانتعاش . وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْسًا ، وأتعسه الله . قال مُجَمِّع بن هلال :

تقول وقد أفردْتُها من خَليلها * تَعِسْتَ كما أتْعَسْتَنِي يا مُجَمِّعُ

يقال : تعسًا لفلان ؛ أى ألزمه الله هلاكا . قال القُشَيْرِىّ : وجوّز قوم تَعِس (بكسر العين) .

قلت : ومنه حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تَعِس عَبْدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة[1] إن أُعطِى رَضِىَ وإن لم يُعْطَ لم يرض " خرّجه البخارى . فى بعض طرق هذا الحديث " تعس وٱنتكس وإذا شِيك فلا ٱنتقش[2] " خرّجه ابن ماجه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى أبطلها لأنها كانت فى طاعة الشيطان . ودخلت الفاء فى قوله « فَتَعْسًا » لأجل الإبهام الذى فى « الذين » ، وجاء « وأضل أعمالهم » على الخبر حملا على لفظ الذين ؛ لأنه خبر فى اللفظ ، فدخول الفاء حَمْلًا على المعنى ، وأضل حملا على اللفظ .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

أى ذلك الإضلال والإتعاس ؛ لأنهم ﴿ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ﴾ من الكتب والشرائع . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى مالهم من صور الخيرات ، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب ، ولا يقْبَل الله العمل إلا من مؤمن . وقيل : أحبط أعمالهم أى عبادة الصنم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾

(١) القطيفة : دثار . والخميصة : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط .

(٢) قوله « شيك » أى أصابته شوكة . و « فلا انتقش » أى فلا خرجت شوكته بالمنقاش .

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان ، ثم وصل هذا بالنظر ؛ أى ألم يَسر هؤلاء فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فَيَنظُرُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ كَيْفَ كَانَ ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . يقال : دمّره تدميرا، ودمّر عليه بمعنًى . ثم تواعد مشركى مكة فقال ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أى أمثال هذه الفعلة ؛ يعنى التدمير . وقال الزجاج والطبرى : الهاء تعود على العاقبة ؛ أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) ﴾

أى وليّهم وناصرهم . وفى حرف ابن مسعود « ذلك بأن الله ولِىّ الذين آمنوا » . فالمولى : الناصر هاهنا؛ قاله ابن عباس وغيره . قال :

فغدتْ كِلا الفرْجَيْن تحسب أنه * مَوْلَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[1]

قال قتادة : نزلت يوم أُحُد والنبىّ صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب، إذ صاح المشركون : يومٌ بيوم ، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " وقد تقدّم[2] . ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أى لا ينصرهم أحد من الله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾

---

(١) البيت من معلقة لبيد . ويروى : « فعدت » بالعين المهملة . أخبر أنها (أى البقرة) خائفة من كلا جانبيها من خلفها وأمامها . والفرج : الواسع من الأرض . والفرج : الثغر المخوف، وهو موضع المخافة .

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقدّم فى غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ فى الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما فى غدهم . وقيل: المؤمن فى الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع . ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى مقام ومنزل .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ تقدّم الكلام فى « كأين » فى (آل عمران)[1] . وهى هاهنا بمعنى كم ؛ أى وكم من قرية . وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة * ومفتاح قَيْدٍ للاسير المكبّل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية . ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أى أخرجك أهلها . ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إلىّ ولولا المشركون أَهْلُكِ أخرجونى لما خرجت منك " . فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبى، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الألف ألف تقرير. ومعنى « على بينة » أى على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس . أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة : الوَحْىُ . ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أى عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكفار .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى ما اشتهوا . وهذا التزيين من جهة الله خلقا . ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة . ويجوز أن يكون من الكافر؛ أى زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر . وقال « سُوء » على لفظ « مَن » « واتبعوا » على معناه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزوجل : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ » وصف تلك الجنات؛ أى صفة الجنة المعدّة للتقين . وقد مضى الكلام فى هذا فى «الرعد»[1]. وقرأ علىّ بن أبى طالب «مِثال الجنةِ التى وعِد المتقون» . ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أى غير متغيّر الرائحة . والآسِن من الماء مثلُ الآجن . وقد أَسَنَ الماء يأسُن ويأسِن [أسْنًا و] أُسُونا إذا تغيّرت رائحته . وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أَجْنًا وأُجُونًا . ويقال بالكسر فيهما : أَجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أسَنًا وأجَنًا؛ قاله اليزيدى . وأَسِن الرجل أيضا يأسَن (بالكسر لا غير)[2] إذا دخل البئر فأصابته ريح منتِنة من ريح البئر أو غير ذلك فغُشِى عليه أو دار رأسُه . قال زُهير :

قـد أترك القِرن[3] مُصْفَرًّا أنامله * يَميد فى الرُّمح مَيد المائح الأسِن

ويروى « الوسن » . وتأسّن الماء تغيّر . أبو زيد : تأسّن علىّ تأسُّنا اعتلّ وأبطأ . أبو عمرو : تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه . وقال اللّحيانى : إذا نزع إليه فى الشبه . وقراءة العامة « آسن » بالمدّ . وقرأ ابن كثير وحُميد « أسن » بالقصر، وهما لغتان؛ مثل حاذر وحذر . وقال الأخفش : أسن للحال، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال . ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ

---

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ (٢) أى فى الماضى . (٣) وفيه رواية أخرى : « يغادر القرن » .

﴿لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى لم يحمض بطول المقام كما تتغيّر ألبان الدنيا إلى الحموضة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى لم تدنّسها الأرجل ولم ترنّقها[1] الأيدى كخمر الدنيا؛ فهى لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون. يقال: شراب لَذّ ولذيذ بمعنًى. واستلذّه عدّه لذيذا. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النحل. «مُصَفًّى» أى من الشمع والقذَى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل. وفى الترمذى عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن فى الجنة بحر الماء و بحر العسل و بحر اللبن و بحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعدُ". قال: حديث حسن صحيح. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة". وقال كعب: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سَيْحان نهر عسلهم. وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر. والعسل: يذكر ويؤنث. وقال ابن عباس: «من عَسَلٍ مُصَفًّى» أى لم يخرج من بطون النحل. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ «مِن» زائدة للتأكيد. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قال الفرّاء: المعنى أفمن يخلد فى هذا النعيم كمن يخلد فى النار. وقال الزجاج: أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زُيّن له سوء عمله وهو خالد فى النار. فقوله «كمن» بدل من قوله «أفمن زين له سوء عمله». وقال ابن كيسان: مثل هذه الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم. ومثل أهل الجنة فى النعيم المقيم كمثل أهل النار فى العذاب المقيم. ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى حارا شديد الغليان، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مِعًى، والتثنية مِعيان، وهو جميع ما فى البطن من الحوايا.

---

(١) رنّق الماء: كدره.

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ (١٦) وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ (١٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أى من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وزُين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت[1] والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشُم ، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه؛ قاله الكلبى ومقاتل . وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين؛ فيستمعون منه ما يقول ، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر . ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى إذا فارقوا مجلسك . ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس . قال ابن عباس : كنت ممن يُسأل ، أى كنت من الذين أوتوا العلم . وفى رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود . وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء . وقال ابن زيد : إنهم الصحابة . ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى الآن ؛ على جهة الاستهزاء . أى أنا لم ألتفت إلى قوله . و «آنفا» يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات إليك ؛ من قولك : استأنفت الشيء إذا ابتدأت به . ومنه أَمْرٌ أُنُف ، ورَوْضة أُنُف؛ أى لم يرعها أحد . وكأس أنف : إذا لم يُشرب منها شيء ؛ كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . قال الشاعر[2] :

ويَحْرُمُ سِرُّ جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنفَ القِصاع

---

(١) كذا فى الأصول . وفى سيرة ابن هشام وابن الأثير طبع أوربا : « اللَّصيت » بالتاء المثناة من فوق . وفى تاريخ الطبرى (طبع أوربا قسم أول ص ١٦٩٩) : « اللصيب » بالباء الموحدة . (٢) هو الحطيئة .

وقال آخر[1] :

إن الشِّواء والنَّشيل والرُّغُف * والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

* للطاعنين الخيل والخيل قُطُفْ[2] *

وقال امرؤ القيس :

* قد غدا يحملني في أنفه[3] *

أى فى أوّله . وأَنُفُ كلّ شيء أوّله . وقال قتادة فى هؤلاء المنافقين : الناس رجلان : رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع ، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع . وكان يقال : الناس ثلاثة : فسامع عامل ، وسامع عاقل ، وسامع غافل تارك .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى الكفر . ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ أى للإيمان زادهم الله هدى . وقيل : زادهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هدى . وقيل : ما يستمعونه من القرآن هدى ؛ أى يتضاعف يقينهم . وقال الفرّاء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى . وفى الهدى الذى زادهم أربعة أقاويل : أحدها — زادهم علما ؛ قاله الربيع بن أنس . الثانى — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ؛ قاله الضحاك . الثالث — زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقا لنبيهم ؛ قاله الكلبيّ . الرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أى ألهمهم إياها . وقيل : فيه خمسة أوجه : أحدها — آتاهم الخشية ؛ قاله الربيع . الثانى — ثواب تقواهم فى الآخرة ؛ قاله السدّىّ . الثالث — وفقهم للعمل الذى فرض عليهم ؛ قاله مقاتل . الرابع — بيّن لهم ما يتقون ؛ قاله ابن زياد والسدّىّ أيضا . الخامس — أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ ؛ قاله عطية . الماوردىّ : ويحتمل . سادسا —

---

(١) هو لقيط بن زرارة . والنشيل : ما طبخ من اللحم بغير تابل . والرغف جمع رغيف . و يقال : أرغفة ورغفان .

(٢) فى الأصول : « حنف » والتصويب عن اللسان مادة « قطف » . وقد ورد هذا الشطر فى اللسان مادة « نشل » : « للضار بين الهام والخيل قطف » . وقطفت الدابة : أساءت السير وأبطأت .

(٣) تمامه : * لاحق الأيطل محبوك ممر *

أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم . وقرئ « وأعطاهم » بدل « وآتاهم » . وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . وهذا وعيد للكفار . ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أماراتها وعلاماتها . وكانوا قد قرءوا فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ؛ فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها ؛ قاله الضحاك والحسن . وفى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضمّ السبابة والوسطى ؛ لفظ مسلم . وخرّجه البخارىّ والترمذىّ وابن ماجه . ويروى "بعثت والساعة كَفَرَسَىْ رِهان" . وقيل : أشراط الساعة أسبابُها التى هى دون معظمها . ومنه يقال للدُّون من الناس : الشَّرَط . وقيل : يعنى علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ؛ قاله الحسن أيضا . وعن الكلبى : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام . وقد أتينا على هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفًى والحمد لله . وواحد الأشراط شَرَط ؛ وأصله الأعلام . ومنه قيل الشُّرَط ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعرفون بها . ومنه الشَّرْط فى البيع وغيره . قال أبو الأسود :

فإن كنتِ قد أزمَعْتِ بالصُّرْم بيننا * فقد جعلت أشراط أوله تبدو

ويقال : أشرط فلان نفسه فى عمل كذا أى أعلمها وجعلها له . قال أوْس بن حَجَر يصف رجلا تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعَة[1] يقطعها ليتّخذ منها قوْسا :

فأشْرَط نفسَه فيها وهو مُعْصِمٌ * وألْقَى بأسبابٍ له وتَوَكّلا

---

(١) النبعة (واحدة النبع) : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القِسِىّ .

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ «أن» بدل اشتمال من «الساعة»؛ نحو قوله : « أَنْ تَطَئُوهُمْ » من قوله : «رِجَالٌ مؤمِنون ونِساءٌ مؤمنات»[1] . وقرئ « بَغَتَّة » بوزن جَرَبَّة[2] ، وهى غريبة لم ترد فى المصادر أختها؛ وهى مَرْوِية عن أبى عمرو . الزمخشرىّ : وما أخوفنى أن تكون غلطة من الراوى عن أبى عمرو ، وأن يكون الصواب « بَغَتَة » بفتح الغين من غير تشديد؛ كقراءة الحسن . وروى أبو جعفر الرؤاسى وغيره من أهل مكة «إِنْ تَأْتِهِم بغتة» . قال المهدوىّ : ومن قرأ «إن تأتِهِم بغتة» كان الوقف على «الساعة» ثم استأنف الشرط . وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ؛ كأنه قال : إن شكُّوا فى مجيئها «فقد جاء أشراطها» .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ «ذِكراهم» ابتداء و«أَنَّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع فى « جاءتهم » للساعة؛ التقدير : فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؛ قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ؛ قاله ابن زيد . وفى الذكرى وجهان : أحدهما — تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر . الثانى — هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا ؛ روى أبان عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك" ذكره الماوردىّ .

قوله تعالى : فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قال الماوردىّ : وفيه — وإن كان الرسول عالما بالله — ثلاثة أوجه : يعنى اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . الثانى — ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا . الثالث — يعنى فاذكر أن لا إله إلا الله؛ فعبّر عن الذكر بالعلم

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) الجربة (بالفتح والتشديد) : القطيع من حُمُر الوحش . وقد يقال للأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين : جربة .

لحدوثه عنه . وعن سفيان بن عُيَيْنة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفِرْ لذنبك » فأمر بالعمل بعد العلم وقال : « آعلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ — إلى قوله — سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » (١) وقال : « وَآعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » (٢) . ثم قال بعدُ : « فَآحْذَرُوهُمْ » (٣) . وقال تعالى : « وَآعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » (٤) . ثم أمر بالعمل بعدُ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثاني — استغفر الله ليعصمك من الذنوب . وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ؛ أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار . وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة ؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين ؛ فنزلت الآية . أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله ، فلا تعلق قلبك بأحد سواه . وقيل : أمر بالاستغفار لتقتدى به الأمة . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي ولذنوبهم . وهذا أمر بالشفاعة . وروى مسلم عن عاصم الأَحْوَل عن عبد الله بن سَرْجِس المخزومىّ قال : أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ! فقال له صاحبى : هل استغفر لك النبىّ صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم ، ولك . ثم تلا هذه الآية « واستغفِرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، جُمْعًا (٥) [عليه] (٦) خِيلان كأنه الثآليل .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها — يعلم أعمالكم فى تصرفكم وإقامتكم . الثانى — « متقلبكم » فى أعمالكم نهارا « ومثواكم » فى ليلكم نياما . وقيل

(١) آية ٢٠ سورة الحديد . (٢) آية ٢٨ سورة الأنفال . (٣) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » آية ١٤ سورة التغابن . (٤) آية ٤١ سورة الأنفال . (٥) يريد مثل جُمع الكف ، وهو أن يجمع الأصابع و يضمها . (٦) زيادة عن صحيح مسلم . والخيلان : جمع خال ، وهو الشامة فى الجسد . والثآليل : جمع ثؤلول ، وهى حبيبات تعلو الجسد .

« متقلبكم » في الدنيا . « ومثواكم » في الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال عكرمة : « متقلبكم » في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات . « ومثواكم » مقامكم في الأرض . وقال ابن كَيْسان : « متقلبكم » من ظهر إلى بطن إلى الدنيا . « ومثواكم » في القبور .

قلت : والعموم يأتي على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم ، وكذا وجميع خلقه . فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أُولَى وأُخْرَى . سبحانه ! لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي المؤمنون المخلصون . ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقا للوحي وحرصا على الجهاد وثوابه . ومعنى «لولا» هلا . ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ لا نسخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين . وفي قراءة عبد الله « فإذا أنزلت سورة مُحْدَثَة » أي محدثة النزول . ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ أي فرض فيها الجهاد . وقرئ « فإذا أنزِلت سورة وذَكر فيها القِتالَ » على البناء للفاعل ونصب القتال . ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي شك ونفاق . ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق ؛ كمن يَشْخَص بصره عند الموت ؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا ، ولميلهم في السر إلى الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ « فأولى لهم » قال الجوهري : وقولهم : أَوْلَى لك ، تَهَدُّد ووعيد . قال الشاعر :

فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعى : معناه قاربه ما يُهْلكه ؛ أى نزل به . وأنشد :

فعادَى بين هادِيَتَيْن منها * وأَوْلَى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد فى « أوْلى » أحسن مما قال الأصمعى .
وقال المبرد : يقال لمن هَـمّ بالعَطَب ثم أفْلَت : أوْلى لك ؛ أى قاربت العطب . كما روى أن أعرابيا كان يوالى رَمْىَ الصيد فيُفْلِت منه فيقول : أوْلى لك . ثم رمى صيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال :

فلو كان أوْلَى يُطعِـم القومَ صِدْتُهم * ولكنّ أوْلَى يَتْرُكُ القـومَ جُوّعَا

وقيـل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أىّ شىء فاتك ! وقال الجُرْجَانِىّ : هو مأخوذ من الويل ؛ فهو أفعل ، ولكن فيه قلب ؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام . وقد تم الكلام على قوله : « فأوْلى لهم » . قال قتادة : كأنه قال العقاب أوْلَى لهم . وقيل : أى وَلِيَهـم المكروه . ثم قال : « طاعة وقول معروف » أى طاعة وقـول معروف أمثـل وأحسن ؛ وهو مذهب سيبويه والخليل . وقيل : إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف ؛ فحذف المبتدأ فيوقف على « فأوْلَى لهم » . وكذا من قدّر يقولون منا طاعة . وقيـل : إن الآية الثانيـة متصلة بالأولى . واللام فى قوله « لهم » بمعنى البـاء ؛ أى الطاعة أولى وأليق بهم ، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله . وهى قراءة أُبَىّ « يقولون طاعة » . وقيل : إن « طاعة » نعت لـ « سورة » ؛ على تقدير : فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على « فأوْلى لهم » . وقال ابن عباس : إن قولهم « طاعة » إخبار من الله عز وجل عن المنافقين . والمعنى لهم طاعة وقول معروف قبل وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها . فيوقف على هذا على « فأوْلَى » .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى جدّ القتال ، أو وجب فرض القتال ، كرهوه . فكرهوه جواب « إذا » وهو محذوف . وقيل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر . ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى الإيمان والجهاد . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اختلف فى معنى « إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » فقيل : هو من الولاية . قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاما أن تفسدوا فى الأرض بأخذ الرُّشا . وقال الكلبي : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم . وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا فى الأرض بالمعاصى وقطع الأرحام . وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضا . وقيل : من الإعراض عن الشيء . قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء الحرام ، وتقطّعوا أرحامكم . وقيل : « فهل عسيتم » أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا فى الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرئ بفتح السين وكسرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفًى[1] . وقال بكر المزنى : إنها نزلت فى الحَرُورِيّة والخوارج ؛ وفيه بُعْدٌ . والأظهر أنه إنما عنى بها المنافقون . وقال ابن حيان : قريش . ونحوه قال المسيب بن شريك والفرّاء ، قالا : نزلت فى بنى أمية و بنى هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فِى الأرض » — ثم قال — هم هذا الحىّ من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألا يفسدوا فى الأرض ولا يقطعوا أرحامهم " . وقرأ علىّ بن أبى طالب « إن تُوُلِّيتم أن تفسدوا فِى الأرض » بضم التاء والواو وكسر اللام . وهى قراءة ابن أبى إسحاق ، ورواها رُوَيْس عن

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٤٤

يعقوب . يقــول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم فى الفتنة وحار بتموهم . ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالبغى والظلم والقتــل . وقرأ يعقوب وسـلام وعيسى وأبو حاتم « وَتَقْطعوا » بفتح التــاء وتخفيف القاف ، من القطع؛ اعتبارا بقوله تعالى « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »[1] . وروى هذه القراءة هارون عن أبى عمرو . وقرأ الحسن « وَتَقَطَّعوا » مفتوحة الحروف مشدّدة؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بينهم »[2] . الباقون « وَتُقَطِّعوا » بضم التــاء مشدّدة الطاء ، من التقطيع على التكثير ؛ وهو اختيار أبى عبيد . وتقــدّم ذكر « عسيتم » فى (البقرة)[3] . وقال الزجاج فى قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز « عَسِى » بالكسر . قال الجوهرى : و يقال عَسَيت أن أفعل ذلك ، وعَسِيت بالكسر . وقرئ « فهل عَسِيتم » بالكسر .

قلت : و يدل قوله هذا على أنهما لغتان . وقد مضى القول فيه فى « البقرة »[3] مستوفى .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى طردهم وأبعــدهم من رحمتــه . ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحق . ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ أى قلوبهم عن الخير. فأتبع الأخبار بأن مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته ، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق و إن سمعه؛ فجعله كالبهيمة التى لا تعقل . وقال : « فهل عسيتم » ثم قال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » فرجع من الخطاب إلى الغَيْبة على عادة العرب فى ذلك .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام . ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهــم لا يعقلون . وهــذا يردّ على القــدرية والإمامية مذهبهم . وفى حديث مرفوع أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها" . وأصل القَفْل اليُبْس والصلابة . و يقال لما يبس من الشجر : القَفْل . والقفيل مثله . والقفيل أيضا نبت . والقفيل : الصوت . قال الراجز :

لما أتاك يابسا قِرْشَبّا * قمت إليه بالقفيل ضربا
* كيف قَرَيْتَ شَـيْخَك الأَزَبّا[4] *

---

(١) آية ٢٧ سورة البقرة . (٢) آية ٩٣ سورة الأنبياء . (٣) جـ ٣ ص ٢٤٤
(٤) الأزب (بالفتح والتشديد) : الكثير الشعر .

القِرْشَبّ (بكسر القاف) : المِسن؛ عن الأصمعي . وأقفله الصوم أى أيبسه؛ قاله القشيري والجوهري . فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوه عن الإيمان . أى لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال : « على قلوبٍ » لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم فى هـذه الجملة . والمراد أم على قـلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها .

الثالثــة — فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هـذا مَقام العائذ من القطيعة قال نعم أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وَصلكِ وأقطع مَن قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — اقرءوا إن شئتم «فهل عَسَيتم إن تَوَلّيتم أن تُفسِدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعْمَى أبصارهم . أفلا يتدبرون القـرآن أم على قلوبٍ أقفالها»" . وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار . وقال قتادة وغيره : معنى الآية فلعلكم ، أو يخاف عليكم ، إن أعرضتم عن الإيمـان أن تعودوا إلى الفساد فى الأرض لسفك الدماء . قال قتادة : كيف رأيتم القـوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى ! ألم يسفكوا الدماء الحرام و يقطعوا الأرحام وعصوا الرّحمن . فالرحم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان ، التى قـد سماها الله إخوة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة »[1] . وعلى قول الفرّاء أن الآية نزلت فى بنى هاشم وبنى أميـة؛ والمراد من أضمر منهم نفاقا؛ فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم و بين النبيّ صلى الله عليه وسلم من القرابة بتكذيبهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذلك يوجب القتال . و بالجمـلة فالرحم على وجهين : عامة وخاصة ؛ فالعامة رَحِم الدِّين ، و يجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم ، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم ، والنَّصَفة فى معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة ؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى مِن غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم ، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم . وأما الرحم الخاصة وهى رحم القرابة من طرفى الرجل أبيه وأمه ، فتجب لهم الحقوق الخاصة و زيادة ؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم ،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات .

وترك التغافل عن تعاهـدهم فى أوقات ضروراتهم ؛ وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب . وقال بعض أهل العـلم : إن الرحم التى تجب صلتها هى كل رَحِم مَحْـرَم ، وعليه فلا تجب فى بنى الأعمام و بنى الأخـوال . وقيل : بل هذا فى كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوى الأرحام فى المواريث، مَحْرَمًا كان أو غير محرم . فيخرج من هذا أن رحم الأم التى لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم . وهـذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله و يعمه الرحم تجب صلته على كل حال ، قربةً ودينية ؛ على ما ذكرناه أولا والله أعلم . وقد روى أبو داود الطيالسى فى مسنده قال : حدّثنا شعبة قال أخبرنى محمـد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحـدّث عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا رب ظُلمت يا رب أُسيء إلىّ فيجيبها ربُّها ألا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ " . وفى صحيح مسلم عن جُبير بن مُطْعِم عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " . قال ابن أبى عمر قال سفيان : يعنى قاطع رَحِم . ورواه البخارى .

الرابعـة — قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ... " «خلق» بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدّم (١) . والخلق هنا بمعنى المخلوق . ومنه قوله تعالى : « هـذا خَلْقُ اللهِ » (٢) أى مخلوقه . ومعنى " فرغ منهـم " كمل خلقهم . لا أنه اشـتغل بهم ثم فرغ من شـغله بهم ؛ إذ ليس فعـله بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُـه بآلة ولا محـاولة ؛ تعـالى عن ذلك . وقوله : " قامت الرّحم فقالت " يحمل على أحد وجهين : أحدهما — أن يكون الله تعـالى أقام من يتـكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها و يكتب ثواب مَن وصلها ووزر مَن قطعها ؛ كما وكل الله بسائر الأعمـال كراما كاتبين ، و بمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . وثانيهما —

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ (٢) آية ١١ سورة لقمان .

أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدّة الاعتناء . فكأنه قال : لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ — ثم قال — وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[1] . وقوله : " فقالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة " مقصود هـذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من ٱستجار به فأجاره ، وأدخله فى ذمتـه وخُفارته[2] . و إذا كان كذلك فجارُ الله غير مخذول وعهـدُه غير منقوض . ولذلك قال مخاطبا للرَّحِم : " أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع من قطعكِ " . وهذا كما قال عليه السـلام : " ومن صلى الصبح فهو فى ذمة الله تعـالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء فإنه من يطلبه بذمته بشىء يدركه ثم يَكُبّه فى النار على وجهه " .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

قال قتادة : هم كفار أهـل الكتاب ، كفروا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم بعـد ما عرفوا نعته عندهم ؛ قاله ابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدى : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه فى القرآن . ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أى زيّن لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن . ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ أى مَدّ لهم الشيطان فى الأمل ووعدهم طول العمر ؛ عن الحسن أيضا . وقال : إن الذى أملى لهم فى الأمل ومدّ فى آجالهم هو الله عز وجل ؛ قاله الفرّاء والمفضـل . وقال الكَلْبِىّ ومُقاتل : إن معنى « أملى لهم » أمهلهم ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال فى عذابهم . وقرأ أبو عمرو وٱبن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة « وَأُمْلِيَ لهم » بضم الهمزة وكسر اللام وفتح اليـاء ؛ على ما لم يسمّ فاعله . وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدَرِى ويعقوب ، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : وأنا أملى لهم . واختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

(١) آية ٢١ سورة الحشر .   (٢) الخفارة (بالضم والكسر) : الذمام .

يملى لهم ، وليس كذلك ؛ فلهذا عدل إلى الضم . قال المهدوى : ومن قرأ « وأُمْلِيَ لهم » فالفاعل اسم الله تعالى . وقيل الشيطان . واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؛ لقوله : « لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ »(١) ردّ التسبيح على اسم الله ، والتوقير والتعزير على اسم الرسول .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ أى ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا فى الكفر بأنهم قالوا ؛ يعنى المنافقين واليهود . ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ وهم المشركون . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أى فى مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره فى السر . وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه . وقراءة العامة « أسرارهم » بفتح الهمزة ، جمع سِرّ ؛ وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « إسرارهم » بكسر الهمزة على المصدر ؛ نحو قوله تعالى : « وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا »(٢) جُمع لاختلاف ضروب السّر .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ ﴾ أى فكيف تكون حالهم . ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ ﴾ أى ضاربين ؛ فهو فى موضع الحال . ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أى إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر . وقد مضى فى « الأنفال والنحل »(٣) . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه . وقيل : ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله

---

(١) آية ٩ سورة الفتح . (٢) آية ٩ سورة نوح . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٨ و جـ ١٠ ص ٩٩

صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب . وقيل : ذلك فى القيامة عند سَوْقهم إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك جزاؤهم . ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ قال ابن عباس : هو كتمانهم ما فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر . ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ يعنى الإيمان . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ نفاق وشك ؛ يعنى المنافقين . ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ الأضغان ما يضمر من المكروه . واختلف فى معناه ؛ فقال السدّى : غِشّهم . وقال ابن عباس : حسدهم . وقال قُطْرُب : عداوتهم . وأنشد قول الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق * ساء الصديق وشيّد الأضغانا

وقيل : أحقادهم . واحدها ضغن . قال :

* وذى ضِغن كففت النفس عنه *

وقد تقدّم . وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يفشو * عليك ويخرج الداء الدفينا

قال الجوهرى : الضغن والضغينة : الحقد . وقد ضغِن عليه (بالكسر) ضِغْناً . وتضاغن القوم واضْطَغَنُوا أبطنوا على الأحقاد . واضْطَغَنت الصبىّ إذا أخذته تحت حضنك . وأنشد الأحمر :

* كأنه مُضْطَغِنُ صَبِيّاً *

أى حامله فى حجره . وقال ابن مُقْبل :

إذا اضطغنتُ سلاحى عند مَغْرِضها * ومِرْفَقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفا[1]

وفرس ضاغنٌ لا يعطى ما عنده من الجَرْىِ إلا بالضرب . والمعنى : أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أى لعرّفناكهم . قال ابن عباس : وقد عرّفه إيّاهم فى سورة « براءة »[2] . تقول العرب : سأريك ما اصنع ؛ أى سأعلمك ؛ ومنه قوله تعالى : « بما أراكَ الله »[3] أى بما أعلمك . ﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى بعلاماتهم . قال أنس : ما خفى على النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؛ كان يعرفهم بسيماهم . وقد كنا فى غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم[4] الناس ، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سيماهم . وقال ابن زيد : قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأَبَوْا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله ، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها . ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أى فى فحواه ومعناه . ومنه قول الشاعر :

* وخير الكلام ما كان لَحْناً *

أى ما عُرِف بالمعنى ولم يُصَرَّح به . مأخوذ من اللحن فى الإعراب ، وهو الذهاب عن الصواب ، ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" أى أذهب بها فى الجواب لقوّته على تصريف الكلام . أبو زيد :

---

(١) المغرض : جانب البطن أسفل الأضلاع . و « رئاس السيف » : مقبضه . و « الشاسف » : اليابس من الضمر والهزال . (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٦ . (٣) آية ١٠٥ سورة النساء .

(٤) فى نسخ الأصل : « يشكونهم » .

لَحَنْتُ له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْنًا إذا قُلْتَ له قَوْلًا يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره . ولَحِنَه هو عَنّى (بالكسر) يلحنه لحنا أى فهمه . وألحنته أنا إياه ، ولاحنت الناس فاطنتهم ؛ قال الفَزَارِىّ :

وحدِيثٍ أَلَذُّه هــو مما * يَنْعَت الناعِتُون يُوزَن وزْنَا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا * نًا وخير الحديث ما كان لحنَا

يريد أنها تتكلم [بشىء] وهى تريد غيره ، وتُعَــرِّض فى حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها . وقد قال تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » . وقال القَتّال الكِلَابِىّ :

ولقد وَحَيْتُ(١) لكم لكيما تفهموا * ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتاب

وقال مرار الأسدى :

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابنى * صدودُكِ تُرْضين الوشاةَ الأعادِيَا

قال الكلبى : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبىّ صلى الله عليه وسلم منافق إلا عرفه . وقيل : كان المنافقون يخاطبون النبى صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم ؛ والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد ، فنبهه الله تعالى عليه ، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم . قال أنس : فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عَرّفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء منها .

قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أى نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور . وقيل : لنعاملنكم معاملة المختبرين . ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ عليه . قال ابن عباس : « حَتَّى نَعْلَمَ » حتى نميز . وقال علىّ رضى الله عنه . « حتى نعلم » حتى نرى . وقد مضى

(١) فى اللسان : « لحنت » .

فى « البقرة »[١]. وقراءة العامة بالنون فى « نَبْلُوَنَّكُمْ » و « نعلم » « ونَبْلُوَ ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهن . وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من « نبلو » على القطع مما قبل . ونصب الباقون ردًّا على قوله : « حَتَّى نَعْلَمَ » . وهذا العلم هو العلم الذى يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم . فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا ، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة . ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ نختبرها ونظهرها . قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللّهمّ لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود . وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . نظيرها « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ » الآية[٢]. ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ أى عادَوه وخالفوه . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى علموا أنه نبىّ بالحجج والآيات . ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ﴾ بكفرهم . ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ثواب ما عملوه .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ لما بيّن حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة فى أوامره والرسول فى سننه . ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى حسناتكم بالمعاصى؛ قاله الحسن . وقال الزُّهْرى : بالكبائر. ابن جُريج : بالرياء والسمعة .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية . (٢) آية ٣٦ سورة الأنفال .

وقال مقاتل والثُّمَالِيّ : بالمَنّ ؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسلامه . وكلّه متقارب ، وقول الحسن يجمعه . وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصى تخرج عن الإيمان .

الثانيــة — احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوّع — صلاةً كان أو صوما — بعــد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنــه . وقال من أجاز ذلك — وهو الإمام الشافعيّ وغيره — : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأمّا ما كان نفلا فلا ؛ لأنه ليس واجبا عليه . فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه . ووجه تخصيصه أن النفل تطوّع ، والتطوّع يقتضى تخييرا . وعن أبى العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب ؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال . وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود فى النار . وقــد مضى فى « البقــرة » الكلام فيه (١) . وقيل : إن المراد بالآية أصحاب القَليب (٢) . وحكمها عام .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أى تضعفوا عن القتال . والوَهْن : الضعف . وقد وَهَن الإنسانُ و وَهَنَهُ غيره ، يتعدّى ولا يتعدّى . قال :

* إننى لست بمَوْهُونٍ فَقِرٍ (٣) *

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ (٢) المراد به قليب بدر . (٣) هذا عجز بيت لطرفة ، وصدره :

* و إذا تلسننى ألسنها *

ووهِن أيضا (بالكسر) وَهْنًا أى ضعف، وقرئ « فما وهُنوا » بضم الهاء وكسرها . وقد مضى فى (آل عمران)[١] .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى الصلح . ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى وأنتم أعلم بالله منهم . وقيل : وأنتم الأعلون فى الحجة . وقيل : المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحوال . وقال قتادة : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى حكمها ؛ فقيل : إنها ناسخة لقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا »[٢] ؛ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح . وقيل : منسوخة بقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » . وقيل : هى محكمة . والآيتان نزلتا فى وقتين مختلفى الحال . وقيل : إن قوله « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » مخصوص فى قوم بأعيانهم ، والأخرى عامة . فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة ، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى[٢] . ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أى بالنصر والمعونة ؛ مثل « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »[٣] . ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى لن ينقصكم ؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه الموتور الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ؛ تقول منه : وَتَرَه يَتِره وَتْرًا وتِرَةً . ومنه قوله عليه السلام : "من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله" أى ذهب بهما . وكذلك وَتَرَه حقّه أى نقصه . وقوله تعالى : « ولَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » أى لن ينتقصكم فى أعمالكم ؛ كما تقول : دخلت البيت ، وأنت تريد فى البيت ؛ قاله الجوهرى . الفراء : « ولن يَتِرَكُمْ » هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٠ .

(٢) آية ٦١ سورة الأنفال . راجع جـ ٨ ص ٣٩

(٣) ٦٩ سورة العنكبوت .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ (٣٧)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تقدّم فى « الأنعام »[(١)] . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى لا يأمركم بإخراج جميعها فى الزكاة ، بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عُيينة وغيره . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » لنفسه أو لحاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق فى سبيله ليرجع ثوابه إليكم . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها . وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجرًا على تبليغ الرسالة . نظيره «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»[(٢)] الآية . ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يلحّ عليكم ؛ يقال : أحفى بالمسئلة وألحف وألحّ بمعنى واحد . والحَفِىّ المستقصِى فى السؤال ؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء فى الكلام والمنازعة . ومنه أحفى شاربه أى استقصى فى أخذه . ﴿ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أى يخرج البخل أضغانكم . قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن وحُمَيد « وتَخْرُجْ » بتاء مفتوحة وراء مضمومة . « أضغانُكُمْ » بالرفع لكونه الفاعل . وروى الوليد عن يعقوب الحضرمىّ « ونخرج » بالنون . وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبى عمرو « ويخرجُ » بالرفع فى الجيم على القطع والاستئناف . والمشهور عنه « ويُخْرِج » كسائر القرّاء ، عطف على ما تقدّم .

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم (٣٨)

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ (٢) آية ٥٧ سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ ﴾ أى هأنتم هؤلاء أيها المؤمنون تُدْعَوْن ﴿ لِتُنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى فى الجهاد وطريق الخير . ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى على نفسه ، أى يمنعها الأجر والثواب . ﴿ وَاللهُ الْغَنِيُّ ﴾ أى إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم . ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ إليها . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى أطوع لله منكم . روى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » قالوا : ومن يُستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَنْكِب سَلْمان ثم قال : "هذا وقومه . هذا وقومه" قال : حديث غريب فى إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد على بن المدينى أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تَوَلَّينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان ، قال : "هذا وأصحابه . والذى نفسى بيده لو كان الإيمان مَنُوطًا بالثُّرَيّا لتناوله رجال من فارس". وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسبىّ : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِينًا ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار ؛ قاله شريح بن عبيد . وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنه أنهم الملائكة . وعنه هم التابعون . وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ قال الطبرىّ : أى فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله . وحكى عن أبى موسى الأشعرىّ أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هى أحبّ إلىّ من الدنيا " . والله أعلم .

سـورة الفتـح

مدنية بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية.
روى محمد بن إسحاق عن الزهري عن عُرْوة عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِيَة من أولها إلى آخرها.
وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه؛ فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمّ عمر، نَزَرْتَ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كلّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحركت بعيري ثم تقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نَشِبْتُ[2] أن سمعت صارخًا يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه؛ فقال: "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس — ثم قرأ — «إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا»". لفظ البخاري. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال: لما نزلت «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا. لِيغفِر لك اللهُ ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخّر ويُتِمّ نِعمته عليك ويهدِيك صِراطا مستقِيما — إلى قوله — فوزا عظِيما» مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهَدْيَ بالحديبية، فقال: "لقد أنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا جميعا". وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شمتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به! فاشتد ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: «إنا فَتَحْنَا لك فَتْحًا مُبِينًا لِيغفِرَ لك اللهُ ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخر». ونحوه قال مقاتل

---

(١) أي ألححت عليه و بالغت في السؤال.
(٢) أي ما لبثت وما تعلقت بشيء.

ابن سليمان : لما نزل قوله تعالى : « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم »(١) فرح المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ولا بأصحابه ؛ فنزلت بعد ما رجع من الحديبية « إنّا فتحنا لك فتحًا مبينًا » أى قضينا لك قضاء . فنسخت هذه الآيةُ تلك . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلت على سورة ما يسرّنى بها حُمْرُ النَّعَم" . وقال المسعودى : بلغنى أنه من قرأ سورة الفتح فى أول ليلة من رمضان فى صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾

اختلف فى هذا الفتح ما هو؟ ففى البخارىّ حدّثنى محمد بن بشار قال حدّثنا غُنْدَر قال حدّثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » قال : الحُدَيْبِيَة . وقال جابر : ما كنا نَعُدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية . وقال الفرّاء(٢) : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا ونحن نَعُدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا نُعَدّ مع النبىّ صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة(٣) ، والحديبية بئر . وقال الضحاك : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » بغير قتال . وكان الصلح من الفتح . وقال مجاهد : هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه . وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح ماؤها فمجّ فيها فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال موسى بن عقبة : قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ؛ لقد صدّونا عن البيت . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح و يسألوكم القضية و يرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا" . وقال الشعبىّ فى قوله تعالى « إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا » قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها ما لم يُصب فى غزوة ؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، و بو يع بيعة الرضوان ،

---

(١) آية ٩ سورة الأحقاف . (٢) فى تفسير الطبرى : « البراء » .
(٣) فى تفسير الطبرى : « خمس مائة » .

وأطعِموا نخل خيبر، و بلغ الهَدْىُ مَحِلّه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف . وقال مجاهد أيضا والعَوْفى : هو فتح خَيْبر . والأول أكثر، وخَيْبر إنما كانت وعدًا وُعِدوه، على ما يأتى بيانه فى قوله تعالى : « سيقول المُخَلَّفونَ إذا انطَلَقْتُمْ »[1] ، وقوله «وَعَدَكُمُ الله مغانِمَ كثيرةً تأخُذُونها فعجَّلَ لكُمْ هذِهِ »[2] . وقال مُجَمِّع بن جارية — وكان أحد القرّاء الذين قرءوا القرآن — : شهدنا الحديبية مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر ؛ فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم . قال : فخرجنا نُوجِف[3] فوجدنا نبى الله صلى الله عليه وسلم عند كُراع الغَمِيم[4] ، فلما اجتمع الناس قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « إنا فتحنا لك فتحاً مُبِيناً » فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : "نعم ، والذى نفسى بيده إنه لفتح" . فقسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية . وقيل : إن قوله تعالى « فَتْحاً » يدل على أن مكة فتحت عنوة[5] ؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقا إلا على مافتح عَنْوةً . هذا هو حقيقة الاسم . وقد يقال : فُتِح البلد صُلْحاً ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح ، فصار الفتح فى الصلح مجازا . والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول فيها[6] ، ويأتى .

قوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

---

(١) آية ١٥ من هذه السورة. (٢) آية ٢٠ من هذه السورة. (٣) الإيجاف : سرعة السير.

(٤) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة . (٥) أى فتحت بالقتال ، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها . (٦) راجع جـ ٨ ص ٢

قال ابن الأنبارى : «فَتْحاً مُبيناً» غير تام؛ لأن قوله « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ » متعلق بالفتح . كأنه قال : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرّ به عينك فى الدنيا والآخرة . وقال أبو حاتم السجستانى : هى لام القَسَم . وهذا خطأ ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ؛ ولو جاز هذا لجاز : ليقوم زيد ؛ بتأويل ليقومن زيد . الزَّمَخْشَرِىّ : فإن قلت كيف جعـل فتح مكة علة للغفرة ؟ قلت : لم يجعـل علة للغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهـداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قال : يَسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع لك عِزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سببا للغفران والثواب . وفى الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسـلم « ليغفر لك الله ما تقـدم من ذنبك وما تأخّر » مَرْجِعَه من الحديبيـة ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "لقد أنزلت علىّ آية أحبّ إلى مما على وجه الأرض" . ثم قـرأها النبىّ صلى الله عليه وسـلم عليهم ؛ فقالوا : هنيئا مريئا يا رسـول الله ، لقد بيّن الله لك ماذا يُفعل بك ؛ فماذا يُفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزاً عَظِيماً » قال حديث حسن صحيح . وفيه عن مُجَمِّع ابن جارية . واختلف أهل التأويل فى معنى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » فقيل : « ما تقدّم من ذنبك » قبل الرسالة . « وما تأخر » بعدها ؛ قاله مجاهد . ونحوه قال الطبرى وسيفان الثورى ، قال الطبرى : هو راجع إلى قوله تعـالى « إذا جاء نصر الله والفتح — إلى قوله — تواباً » . « لِيَغفِرَ لك اللهُ ماتقدم مِن ذنبِك » قبل الرسالة « وَمَا تَأَخَّرَ » إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثورى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ » ماعملته فى الجاهلية من قبل أن يوحى إليك . « وَمَا تَأَخَّرَ » كل شىء لم تعمله ؛ وقاله الواحدى . وقد مضى الكلام فى جريان الصغائر على الأنبياء فى سورة « البقرة »(١) ؛ فهذا قول . وقيـل :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

« ما تقدّم » قبل الفتح . « وما تأخّر » بعد الفتح . وقيل : « ما تقدّم » قبل نزول هـذه الآية . « وما تأخّر » بعـدها . وقال عطاء الخُراسانىّ : « ما تقـدّم من ذنبك » يعنى من ذنب أبو يك آدم وحَوّاء . « وما تأخّر » من ذنوب أمتك . وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم . « وما تأخّر » من ذنوب النبيين . وقيل : « ما تقدّم » من ذنب يوم بَدْر . « وما تأخر » من ذنب يوم حُنَين . وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر ، أنه جعل يدعو و يقول : "اللّهُمّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبد فى الأرض أبدا" وجعل يردّد هـذا القول دفعات ، فأوحى الله إليه من أين تعلم أنى لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبدا؛ فكان هذا الذنب المتقدّم . وأما الذنب المتأخر فيوم حُنين ، لمـا انهزم الناس قال لعمه العباس ولأبن عمه أبى سفيان : "ناولانى كَفًّا من حَصْباء الوادى" فناولاه فأخذه بيده ورمى به فى وجوه المشركين وقال : "شاهت الوجوه . حَم . لا ينصرون" فانهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . ثم نادى فى أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : "لو لم أرمهم لم ينهزموا" فأنزل الله عز وجل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى »(1) فكان هذا هو الذنب المتأخر . وقال أبو على الرُّوذَبَارِىّ : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : فى الجنـة . وقيـل : بالنبوّة والحكمة . وقيـل : بفتح مكة والطائف وخيبر . وقيـل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبّر . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه . ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أى غالبًا منيعًا لا يتبعه ذل .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

(1) آية ١٧ سورة الأنفال .

« السكينة » : السكون والطمأنينة . قال ابن عباس : كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة إلا التى فى « البقرة »(١) . وتقدّم معنى زيادة الإيمان فى « آل عمران »(٢) . وقال ابن عباس : بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدّقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان . وقال الربيع بن أنس : خَشْيَةً مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينامع يقينهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة والجنّ والشياطين والإنس ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يريده .

قوله تعالى : لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا . ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة . وقيل : اللام فى «ليدخل» يتعلق بما يتعلق به اللام فى قوله : « لِيغفر لك الله ». ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . ﴿ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى نجاة من كل غم ، وظفرا بكل مطلوب . وقيل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه « لِيغفر لك الله ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخّر » قالوا : هنيئا لك يا رسول الله، فماذا لنا ؟ فنزل « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنّاتٍ » ولما قرأ « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليك » قالوا : هنيئا لك ؛ فنزلت « وأتممتُ عليكم نعمتِي »(٣) فلما قرأ «وَيَهْدِيَكَ صِراطا مستقيما» نزل فى حق الأمة « وَيَهْدِيَكُم صِراطًا مستقيمًا »(٤) . ولما قال « وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا » نزل « وَكَانَ حَقًّا علينا نصر

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٨ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠

(٣) آية ٣ سورة المائدة . (٤) آية ٢٠ من هذه السورة .

المؤمنين[1] » . وهو كقوله تعالى : « إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ يأيها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما[2] » . ثم قال : « هو الّذى يصلّى عليكم[3] » ذكره القشيرى .

قوله تعالى : وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أى بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين ، وبأن يسلط النبيّ عليه السلام قتلا وأسرا واسترقاقا . ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعنى ظنّهم أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم لا يرجع إلى المدينـة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبيـة ، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » . وقال الخليل وسيبويه : «السوء» هنا الفساد . ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فى الدنيا بالقتل والسَّبْى والأسر ، وفى الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمـرو « دائرة السوء » بالضم . وفتح الباقون . قال الجوهرى : ساءه يسوءه سَوْءا (بالفتح) ومَساءة ومَسَاية ؛ نقيض سره ، والاسم السُّوء (بالضم) . وقرئ «عليهم دائرة السُّوء » يعنى الهزيمة والشر . ومن فتح فهو من المساءة . ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . تقـدم فى غير موضع جميعه ، والحمـد لله . وقيل : لمـا جرى صلح الحديبية قال ابن أُبَىّ : أيظن محمـد أنه إذا صالح أهـل مكة أو فتحها لا يبـقى له عدوّ ، فأين فارس والروم ! فبين الله عز وجل أن جنـود السموات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيـل : يدخل فيه

---

(١) آية ٤٧ سورة الروم .　　(٢) آية ٥٦ سورة الأحزاب .
(٣) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : « ولله جنود السموات » الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون. وأعاد لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين . والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد . فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى .

قوله تعالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مُبَيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهدا عليهم يوم القيامة . فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة . وقد مضى فى «النساء» عن سعيد بن جبير(١) هذا المعنى مبيّنا . ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة . ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى فى « البقرة »(٢) اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما . وانتصب « شاهدا ومبشرا ونذيرا » على الحال المقدرة . حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا؛ فالمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة . وعلى هذا تقول : رأيت عمرا قائما غدا . ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو « ليؤمنوا » بالياء ، وكذلك « يعزِّروه ويوقِّروه ويسبِّحوه » كله بالياء على الخبر . واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ؛ فأما قبله فقوله « ليدخل » وأما بعده فقوله « إن الذين يبايعونك » الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أى تعظموه وتفخّموه؛ قاله الحسن والكلبي . والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . ومنه التعزير فى الحدّ ؛ لأنه مانع . قال القَطَامِىّ :

---

(١) يلاحظ أن الذى مضى فى سورة النساء هو : سعيد بن المسيب . راجع جـ ٥ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

ألا بَكَرَتْ مَىٌّ بغـير سَفَاهـةٍ * تُعاتِبُ والمَوْدُودُ ينفعه العَزْر

وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معـه بالسيف . وقال بعض أهـل اللغة : تطيعـوه .
﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أى تسوّدوه؛ قاله السدى . وقيل تعظموه . والتوقير : التعظيم والتَّرْزِين أيضا .
والهاء فيهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وهنا وقف تام، ثم تبتدئ « وتسبحوه » أى تسبحوا
الله ﴿ بُكْرَةً وأَصِـيلًا ﴾ أى عَشِيًّا . وقيـل : الضمائر كلّها لله تعالى ؛ فعلى هـذا يكون تأويل
« تعزروه وتوقروه » أى تثبتوا له صحـة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك .
وآختار هذا القول القشيرى . والأوّل قول الضحاك ، وعليه يكون بعض الكلام راجعا إلى الله
سبحانه وتعالى وهو « وتسبّحوه » من غير خلاف . وبعضه راجعا إلى رسـوله صلى الله عليه
وسلم وهو « وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوه » أى تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة . وفى « تسبحوه »
وجهان : أحدهما — تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح . والثانى — هو فعل الصلاة
التى فيها التسبيح . « بُكْرَةً وأَصِيلًا » أى غُدْوة وعشيًّا . وقد مضى القول فيه [(١)] . وقال الشاعر :

لَعَمْرِى لأنت البيتُ أُكْرِمُ أهْلَهُ * وأجلس فى أفْيَائه بالأصائِلِ [(٢)]

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بالحُدَيْبِيَة يا محمد . ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ بيّن أن
بيعتهم لنبيّه صلى الله عليه وسـلم إنما هى بيعة الله ؛ كما قال تعالى : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَـدْ
أَطَاعَ اللَّهَ » [(٣)] . وهذه المبايعة هى بيعة الرضوان؛ على ما يأتى بيانها فى هذه السورة إن شاء الله
تعالى . ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قيل : يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، ويده فى المِنّة
عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة . وقال الكلبيّ : معناه نعمة الله عليهـم فوق ما صنعوا

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٨　　(٢) البيت لأبى ذؤيب .　　(٣) آية ٨٠ سورة النساء .

من البَيعة . وقال ابن كَيْسان : قوّة الله ونُصرته فوق قوّتهم ونصرتهم . ﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ بعد البيعة . ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أى يرجع ضرر النّكْث عليه ؛ لأنه حَرَم نفسَه الثواب وألزمها العقاب . ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ قيل فى البيعة . وقيل فى إيمانه . ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعنى فى الجنة . وقرأ حفص والزهرىّ « عليهُ » بضم الهاء . وجرّها الباقون . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « فسنؤتيه » بالنون . واختاره الفرّاء وأبو معاذ . وقرأ الباقون بالياء . وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقرب اسم الله منه .

قوله تعالى : سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قال مجاهد وابن عباس : يعنى أعراب غِفار ومُزَينة وجُهينة وأسلم وأشْجع والدِّيل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حَذَرًا من قريش ، وأحرم بعُمْرة وساق معه الهَدْىَ ؛ ليعلم الناس أنه لايريد حربا فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل؛ فنزلت . وإنما قال : « المخلفون » لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه . والمخلَّف المتروك . وقد مضى فى « براءة »(1) . ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أى ليس لنا من يقوم بهما . ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ جاءوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذا هو النفاق المحض . ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ قرأ حمزة والكسائى « ضُرًّا » بضم الضاد هنا فقط ؛ أى أمرًا يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة .

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٢١٦

الباقون بالفتح ؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا . و بالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال . والمصدر يؤدّى عن المرّة وأكثر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضر . وقيل : هما لغتان بمعنًى ؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أى نصرًا وغَنيمة . وهذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع .

قوله تعالى : بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا . ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أَكَلَة[1] رأس لا يرجعون . ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ ﴾ أى النفاق . ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وهـذا التزيين من الشيطان ؛ أو يخـلق الله ذلك فى قلوبهم . ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أن الله لاينصر رسوله . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هَلْكَى ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشىء من الخير . قال الجَوْهَرِىّ : البُور : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِىّ :

يا رسـول المليك إن لسانى * راتِـق ما فَتَقْتُ إذ أنا بـور

وامرأة بُور أيضا ؛ حكاه أبو عبيد . وقوم بُورٌ هَلْكَى . قال تعالى : «وكنتم قوما بورا» وهو جمع بائر ؛ مثل حائل وحُول . وقد بار فـلان أى هلك . وأباره الله أى أهلكه . وقيل : « بورا » أشرارًا ؛ قاله ٱبن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطُّول من نُوكِ الرجال وقد * يهـدى الإله سبيـل المَعْشَر البـور[2]

أى الهالك .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) ورد هذا البيت فى الأصول محرّفا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

أى هو غنىّ عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى.

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يعنى مغانم خيبر ؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحُدَيْبِيَة فتح خيبر ، وأنها لهم خاصّةً من غاب منهم ومن حضر . ولم يَغِب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتولّى للقسمة بخيبر جبّار بن صخر الأنصارى من بنى سلمة ، وزيد بن ثابت من بنى النجار ؛ كانا حاسبين قاسمين . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أى دعونا . تقول : ذَرْه ، أى دعه . وهو يَذَرُه ؛ أى يدَعُه . وأصله وذِره يَوذَره مثال وَسِعه يَسَعُه . وقد أُميت صدره[1] ، لا يقال : وذَره ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهرى . وعبارة اللسان : «والعرب قد أماتت المصدر من « يذر » والفعلَ الماضى ؛ فلا يقال . ... » الخ .

ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَـدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ أى يغيّروا .
قال ابن زيد : هو قوله تعالى « فَٱسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُـلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا[1] » الآية . وأنكر هذا القول الطبرى وغيره ؛ بسبب أن غزوة تَبُوك كانت بعـد فتح خَيْبَر وبعـد فتح مكة . وقيل : المعنى يريدون أن يغـيّروا وعد الله الذى وعد لأهـل الحُدَيْبِيَـة ؛ وذلك أن الله تعـالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضًا عن فتح مكة إذ رجعـوا من الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبرى وعليه عامة أهـل التأويل . وقرأ حمزة والكسائى « كَلِمَ » بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سَلِمة وسَلِم . الباقون « كلام » على المصـدر . واختاره أبو عبيـد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله « إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي[2] » . والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل . قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقـع على القليل والكثير . والكَلِم لا يكون أقـلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة ؛ مثل نَبِقة ونَبِق . ولهذا قال سيبويه : « هذا بابُ عِلْمِ ما الكَلِمُ من العربيـة » ولم يقل ما الكلام ؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاسم والفعل والحرف ؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعا ، وترك ما يمكن أن يقـع على الواحد والجماعة . وتَمِيمٌ تقول : هى كِلْمـة ، بكسر الكاف ، وقد مضى فى « براءة » القول فيها[3] . ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة . ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نُصيب معكم من الغنائم . وقيل قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم " . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى «فسيقولون بل تحسدوننا» فقال الله تعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى لا يعلمون إلا أمر الدنيا . وقيـل : لا يفقهون من أمر الدِّين إلا قليـلا ؛ وهو ترك القتـال .

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة . (٢) آية ١٤٤ سورة الأعراف .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٩

قوله تعالى : قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ ﴾ أى قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى لَيْلَى وعطاء الخراسانى : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن ابن أبى ليلى : الروم . وعن الحسن أيضا : فارس والروم . وقال ابن جُبير : هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغَطَفان يوم حُنين . وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة . وقال رافع بن خَديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى « سَتُدْعَوْنَ إلى قومٍ أُولِي بأسٍ شديدٍ » فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردّه .

الثانية — فى هذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليه السلام ؛ لأنه قال « لن تخرجوا معِىَ أبدًا ولن تقاتِلوا معِىَ عدوّا »(١) فدلّ على أن المراد بالداعى غير النبى صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبى صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . الزَّمَخْشَرِىّ : فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معى أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب فى الدِّين .

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهـم لا يتبعون رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم فى المغنم .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ هـذا حُكْمُ من لا تؤخذ منهـم الجـزية ، وهو معطوف على « تقاتلونهـم » أى يكون أحد الأمرين ، إما المقاتـلة وإما الإسلام؛ لا ثالث لهما . وفى حرف أُبَىّ « أو يُسْـلِموا » بمعنى حتى يُسلِموا؛ كما تقول : كُلْ أو تشبع؛ أى حتى تشبع . قال :

فقلت له لا تَبْكِ عَيْنُك إنمـا * نحاوِل مُلْكاً أو نموت فنُعْذَرا[(1)]

وقال الزجاج : قال « أو يسلمون » لأن المعنى أو هـم يسلِمون من غير قتال . وهـذا فى قتال المشركين لا فى أهل الكتاب .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الغنيمة والنصر فى الدنيـا ، والجنـة فى الآخرة . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ عامَ الحُدَيْبِيَـة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعـالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : لمـا نزلت « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » قال أهل الزَّمانة : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت « ليس على الأَعْمَى حَرَجٌ ولا على الأَعْرَجِ حَرَجٌ ولا على المَرِيضِ حَرَجٌ » أى لا إثم عليهم فى التخلف عن الجهاد لعماهـم وزمانتهم وضعفهم . وقد مضى فى « براءة » وغيرها الكلام فيـه مُبيَّناً[(2)] . والعَرَج : آفة تعرض لرِجْل واحدة، وإذا كان ذلك مؤثّراً فللرِّجْلين أولى أن يؤثّر . وقال مقاتل : هم أهل الزمانة

(1) البيت لامرئ القيس .

(2) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ وجـ ١٢ ص ٣١٢

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم . أى من شاء أن يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل .
﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمره . ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « ندخله » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدم اسم الله أولا . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ هذه بَيْعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أقام مُنْصَرَفه من غَزْوة بنى المُصْطَلِق فى شوّال ، وخرج فى ذى القعدة مُعْتَمِراً ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب ، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة . وقيل : ألف وخمسمائة . وقيل غير هذا ، على ما يأتى . وساق معه الهَدْى ، فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الناسُ أنه لم يخرج لحرب ، فلما بلغ خروجه قريشا خرج جمعهم صادّين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ودخول مكة ، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك ، وقدّموا خالد بن الوليد فى خيل إلى « كُرَاع الغَمِيم » فورد الخبر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « بعُسْفان »[1] وكان المخبر له بشر بن سفيان الكَعْبِى ، فسلك طريقا يخرج به فى ظهورهم ، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة ، وكان دليله فيهم رجل من أسلم ، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التى مع خالد ، جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك ،

(١) عسفان (بضم أوله وسكون ثانيه) : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة . (معجم البلدان) .

فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية بركت ناقته صلى الله عليه وسلم فقال الناس : خَلَأَتْ ! خَلَأَتْ[1] ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما خَلَأَتْ وما هو لها بِخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطّة يسألونى فيها صلة رَحِم إلا أعطيتهم إياها " . ثم نزل صلى الله عليه وسلم هناك ؛ فقيل : يا رسول الله ، ليس بهذا الوادى ماء ! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهما من كِنانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قَليب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرَّواء[2] حتى كفى جميع الجيش . وقيل : إن الذى نزل بالسّهم فى القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمى وهو سائق بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ . وقيل : نزل بالسهم فى القَليب البرَاء بن عازب ، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين كفار قريش ، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه سُهيل بن عمرو العامرى ، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك ، فإذا كان من قابل أتى مُعْتَمِرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح ، حاشا السيوف فى قُرُبها فيقيم بها ثلاثا ويخرج ، وعلى أن يكون بينه و بينهم صلح عشرة أعوام ، يتداخل فيها الناس و يأمن بعضهم بعضا ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ؛ فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجا ؛ فقال لأصحابه . " اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سببا إلى ظهور دينه " فأنِس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم ، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح : من محمد رسول الله ، وقالوا له : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد ! فلا بد أن تكتب : بآسمك اللّهُمّ . فقال لعلىّ وكان يكتب صحيفة الصلح : " امح يا علىّ ، واكتب بآسمك اللّهُمّ " فأبَى علىّ أن يمحو بيده « محمد رسول الله » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعرضه علىّ " فأشار إليه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن

---

(١) خلأت الناقة : حرنت و بركت من غير علة . (٢) الرواء : الكثير .

يكتب « من محمد بن عبد الله » . وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يَرْسُف فى قيوده، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه ؛ فعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل "أنّ الله سيجعل له فرجًا ومخرجاً" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولا، فجاء خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلوه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ؛ فرُوِى أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على ألّا يفِرّوا . وهى بيعة الرضوان تحت الشجرة، التى أخبر الله تعالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النار . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيمينه على شماله لعثمان؛ فهو كمن شهدها . وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبي قال : أوّل من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سفيان الأسدى . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة؛ فبايعناه وعمرُ آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرة[(1)]، وقال : بايعناه على ألّا نفِرّ ولم نبايعه على الموت . وعنه أنه سمع جابرا يسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سَمُرَة ؛ فبايعناه ، غيرَ جَدّ بن قيس الأنصارى اختبأ تحت بطن بعيره . وعن سالم بن أبى الجَعْد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كنا مائةَ ألفٍ لكفانا ، كنا ألفا وخمسمائة . وفى رواية : كنا خمس عشرة مائة . وعن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : كان أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة ، وكانت أَسْلَمُ ثُمُنَ المهاجرين . وعن يزيد بن أبى عبيد قال قلت لسلمة : على أى شىء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال : على الموت . وعن البراء بن عازب قال : كتب علىّ رضى الله عنه الصلح بين النبىّ صلى الله عليه وسلم و بين المشركين يوم الحديبية ؛ فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فقالوا :

---

(١) السمرة : شجر الطلح .

لا تكتب رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : " امحه " . فقال : ما أنا بالذى أمحاه (١) ، فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده . وكان فيما اشترطوا : أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا ، ولا يدخلها بسلاح الا جُلُبّان السلاح . [قلت لأبى إسحاق : وما جُلُبّان السلاح ؟ قال :] (٢) القِراب وما فيه . وعن أنس : أن قريشا صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعليّ : " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل بن عمرو : أما باسم الله (٣) ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللّهمّ . فقال : " اكتب من محمد رسول الله " قالوا : لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " اكتب من محمد بن عبد الله " فاشترطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نردّه عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله ، أنكتب هذا ! قال " نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا " .
وعن أبى وائل قال : قام سهل بن حُنيف يوم صِفّين فقال يأيها الناس ، اتّهموا أنفسكم ، لقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ؛ وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين . فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال " بلى " قال . أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال " بلى " قال ففيم نعطِى الدّنيّة فى ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال " يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولن يُضيّعَنِى الله أبدا " قال : فانطلق عمر ، فلم يصبر مُتَغَيِّظًا فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال بلى ؛ قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال بلى . قال : فعلام نعطِى الدّنيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم ؟ فقال : يا ابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . قال : فنزل القرآن على رسول الله صلى

---

(١) أمحاه : لغة فى أمحوه .	(٢) زيادة عن مسلم .	(٣) قوله : « أما باسم الله ... » أى فنحن ندريه . وأما البسملة التى تذكرها بتمامها فما ندريها .

الله عليه وسلم بالفتح ؛ فأرسـل إلى عمر فأقرأه إياه ؛ فقال : يا رسول الله ، أوَ فتحٌ هو ؟ قال "نعم". فطابت نفسه ورجع .

قوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء ؛ قاله الفراء . وقال ابن جُريج وقتادة : من الرضا بأمر البَيْعة على ألا يفرّوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت . ﴿ فأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا . وقيل : « فعلم ما فى قلوبهم » من الكآبة بصدّ المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم ؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما ذلك رؤيا منام" . وقال الصدّيق : لم يكن فيها الدخول فى هذا العام . والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد . وقيل الصبر . ﴿ وأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ قال قتادة وآبن أبى ليلى : فتح خيبر . وقيل فتح مكة . وقرئ « وآتاهم » ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرةً يأخُذُونَهَا ﴾ يعنى أموال خيبر ، وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة . فـ « مَغَانِمَ » على هذا بدل من « فَتْحًا قريباً » والواو مُقْحَمة . وقيل : «ومغانم» فارس والروم .

قوله تعالى : وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرةً تأخُذُونَهَا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد . إنها المغانم التى تكون إلى يوم القيامة . وقال ابن زيد : هى مغانم خيـبر . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ ﴾ أى خيـبر ؛ قاله مجاهد . وقال ابن عباس : عجّـل لكم صلح الحديبية . ﴿ وكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ يعنى أهل مكة ؛ كفّهم عنكم بالصلح . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسـلم إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كف أيدى المشركين بالحديبيـة مذكور فى قوله « وهـو الذى كف أيْدِيَهُمْ عنكم »[1] . وقال ابن

(١) آية ٢٤ من هذه السورة .

عباس : فى « كَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عنكم » يعنى عُيينة بن حِصْن الفَزَارِى وعوف بن مالك النَّضْرِى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبى صلى الله عليه وسلم محاصر لهم ؛ فألقى الله عز وجل فى قلوبهم الرعب وكَفَّهم عن المسلمين . ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للؤمنين ، فيعلموا أن الله يحرسهم فى مشهدهم ومَغيبهم . وقيل : أى ولتكون كف أَيْدِيهِمْ عنكم آية للؤمنين . وقيل : أى ولتكون هذه التى عجلها لكم آية للؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها . والواو فى « ولتكون » مقحمة عند الكوفيين . وقال البصريون : عاطفة على مضمر ؛ أى وكف أيدى الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للؤمنين . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يزيدكم هُدًى ، أو يثبّتكم على الهداية .

قوله تعالى : وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ « أخرى » معطوفة على « هذه » ؛ أى فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى . ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم ، و جميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وآبن أبى ليلى . وعن آبن عباس أيضا والضحاك وآبن زيد وآبن إسحاق : هى خيبر ، وعدها الله نبيّه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وعن الحسن أيضا وقتادة : هو فتح مكة . وقال عكرمة : حُنين ؛ لأنه قال « لم تَقْدِرُوا عليها » . وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب فى الحال كما كان فى مكة ؛ قاله القشيرى . وقال مجاهد : هى ما يكون إلى يوم القيامة . ومعنى « قد أحاط الله بها » أى أعدّها لكم ؛ فهى كالشيء الذى قد أحيط به من جوانبه ، فهو محصور لا يفوت ، فأنتم و إن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيل : « أحاط الله بها » علم أنها ستكون لكم ؛ كما قال « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا »[1] . وقيل : حفظها الله عليكم ؛ ليكون فتحها لكم . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

(١) آية ١٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ قال قتادة : يعنى كفار قريش فى الحُدَيْبِيَة . وقيل : « ولو قاتلكم » غَطَفان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر ؛ لكانت الدائرة عليهم . ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وانتصب « سُنَّةَ » على المصدر . وقيل : « سنة الله » أى كسنة الله . والسنة الطريقة والسِّيرة . قال :

فلا تجزَعَن من سِيرة أنت سِرْتَها * فأوّلُ راضٍ سُنّةً من يَسيرها [1]

والسُّنة أيضا : ضرب من تمر المدينة . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهى الحديبية . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم من جبل التَّنعيم [2] متسلّحين يريدون غِرّة [3] النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فأخذناهم سِلْمًا [4]

(١) البيت لخالد بن عتبة الهذلى . (٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف .

(٣) الغرة (بالكسر) : الغفلة ، أى يريدون أن يصادفوا منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم .

(٤) رواية مسلم : « فأخذهم سلما فاستحياهم » . وقوله « سلما » قال ابن الأثير : « يروى بكسر السين وفتحها ، وهما لغتان فى الصلح ، وهو المراد فى الحديث على ما فسره الحميدى فى غريبه . وقال الخطابى : إنه السلم ، بفتح السين واللام ، يريد الاستسلام والاذعان ...... وهذا هو الأشبه بالقضية ؛ فانهم لم يؤخذوا عن صلح وإنما أخذوا قهرا وأسلموا أنفسهم عجزا ... » .

فاستحييناهم ؛ فأنزل الله تعالى « وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » . وقال عبد الله بن مغفّل المُزَنىّ : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل جئتم فى عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا" . قالوا : اللهم لا ؛ فخلّى سبيلهم . فأنزل الله تعالى : «وهو الذى كفّ أيديهم عنكم» الآية . وذكر ابن هشام عن وَكيع : وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلا أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم فى الصلح ، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يُسَمَّوْن العُتَقاء ، ومنهم معاوية وأبوه . وقال مجاهد : أقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِرًا ، إذ أخذ أصحابه ناسا من الحرم غافلين فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة . وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زُنيم ، اطّلع الثَّنِيّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه ؛ فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم خيلا فأتوا باثنى عشر فارسا من الكفار ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هل لكم علىّ ذمّة" ؟ قالوا لا ؛ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبزى والكلبى : هم أهل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكف أيدى المسلمين عنهم . وقد تقدّم أن خالد بن الوليد كان فى خيل المشركين . قال القشيرى : فهذه رواية ، والصحيح أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت . وقد قال سلمة بن الأكْوَع : كانوا فى أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادى يسير بالرجال والسلاح ، قال : فجئت لستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عمر قال فى الطريق : يا رسول الله ، نأتى قوما حَرْبًا وليس معنا سلاح ولا كُرَاع ؟ فبعث

رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيها ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبي جَهْل خرج إليك في خمسمائة فارس؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : "هذا ابن عمك أتاك في خمسمائة". فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ؛ فيومئذ سُمِّي بسيف الله ، فخرج ومعه خيل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة . وهذه الرواية أصح ، وكان بينهم قتال بالحجارة ، وقيل بالنَّبل والظُّفُر[1] . وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط في الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم ؛ فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بَصير ، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم ، حتى جاء كبار قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : آضممهم إليك حتى نأمن ؛ ففعل . وقيل : هَمّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيْبر ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فمنعهم الله عن ذلك ؛ فهو كفّ اليد . ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان : أحدهما — يريد به مكة . الثاني — الحديبية ، لأن بعضها مضاف إلى الحرم . قال الماوردي : وفي قوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » بفتح مكة . وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحا ؛ لقوله عز وجل : « كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم » .

قلت : الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ما قدمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين . وروى الترمذي قال : حدثنا عبد بن حُميد قال حدثني سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ؛ فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى : « وهو الذي كَفَّ أيديَهُمْ عنكم وأيْدِيَكُمْ عنهم » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ؛ وقد تقدّم . وأما فتح مكة فالذي تدل عليه الأخبار أنها إنما فُتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول في ذلك في « الحج »[2] وغيرها . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

---

(١) الظفر (بالضم) : طرف القوس . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٣

قوله تعالى : هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى قريشا ، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعُمْرة ، ومنعوا الهَدْى وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه . وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِينًا ؛ فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه ، وأدخل الأنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾ أى محبوسا . وقيل موقوفا[(1)] . وقال أبو عمرو ابن العلاء : مجموعا . الجوهرى : عكفه أى حبسه ووقفه ، يَعكِفه و يَعْكُفه عَكْفًا ؛ ومنه قوله تعالى : « والهَدْىَ معكوفا » ؛ يقال : ما عكفك عن كذا . ومنه الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أى منحره ؛ قاله الفراء . وقال الشافعى رضى الله عنه : الحَرَم . وكذا قال أبو حنيفة رضى الله عنه : المُحْصَر محلّ هَدْيه الحَرَم . والمَحِلّ (بكسر الحاء) : غاية الشيء . (و بالفتح) : هو الموضع الذى يحله الناس . وكان الهَدْىُ سبعين بَدَنة ، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلا . وقد اختلف العلماء فى هذا على ما تقدّم بيانه فى « البقرة » عند قوله تعالى « فإن أحصرتم »[(2)] والصحيح ماذكرناه . وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر

---

(١) فى الأصول : « واقفا » . (٢) راجع ج ٢ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

ابن عبد الله قال : نَحَرْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البَدَنة عن سبعة ، والبقَرة عن سبعة . وعنه قال : اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعُمْرة كلُّ سبعة فى بَدَنة . فقال رجل لجابر : أيُشْتَرك فى البَدنة مايشترك فى الجَزُور؟ قال : ماهى إلا من البُدْن . وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة ، اشتركنا كل سبعة فى بدنة . وفى البخارىّ عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين؛ فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة وحلق رأسه . قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خِرَاش بن أمية بن أبى العيص الخزاعى ،وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا ويحلّوا؛ ففعلوا بعد توقُّف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحروا ؛ فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم هَدْيه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا للمُحَلِّقين ثلاثا وللمقصِّرين مرة . ورأى كعب بن عُجْرَة والقَمْل يسقط على وجهه ؛ فقال : "أيؤذيك هوامّك" ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يحلق وهو بالحديبية . خرّجه البخارى والدارقطنى . وقد مضى فى « البقرة »[1] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وقرئ «حتى يبلغ الهَدْىُ محلّه» بالتخفيف والتشديد ، الواحدة هَدْيَة . وقد مضى فى « البقرة »[2] أيضا . وهو معطوف على الكاف والميم من « صدُّوكم » . و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال ،وموضع « أنْ » من قوله «أنْ يبلغ محلّه» نصب على تقدير الحمل على « صَدّوكم » أى صدّوكم وصدّوا الهَدْى عن أن يبلغ . ويجوز أن يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : وصَدُّوا الهَدْى كراهية أن يبلغ محله . أبو على : لا يصح حمله على العكف ؛ لأنّا لانعلم «عكف» جاء متعدّيا ، ومجىء « معكوفا » فى الآية يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ كأنه لما كان حَبْسًا حُمِل المعنى على ذلك ، كما حُمِل الرَّفَث على معنى الإفضاء فعُدِّىَ بإلى ؛ فإن حُمل على ذلك كان موضعه نصبا على قياس قول سيبويه ، وجرًّا على قياس

---

(١) راجع جـ٢ ص ٣٨٣ طبعة ثانية . (٢) جـ ٢ ص ٣٧٨ .

قول الخليل . أو يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : محبوسا كراهية أن يبلغ محله . ويجوز تقدير الجر فى « أن » لأن عن تقدمت ؛ فكأنه قال : وصدّوكم عن المسجد الحرام، وصدّوا الهَدْىَ « عن » أن يبلغ محله . ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : مررت برجل إنْ زيدٍ وإن عمرٍو ؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة وأبى جَنْدل بن سهيل ، وأشباههم . ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أى تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون . ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطئت القوم ؛ أى أوقعت بهم . و « أن » يجوز أن يكون رفعاً على البدل من « رجالٌ ، ونساءٌ » كأنه قال ولولا وطؤكم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات . ويجوز أن يكون نصبا على البدل من الهاء والميم فى « تعلموهم » ؛ فيكون التقدير : لم تعلموا وطأهم ؛ وهو فى الوجهين بدل الاشتمال . « ولم تعلموهم » نعت لـ « رجالٌ » و « نساءٌ » . وجواب « لولا » محذوف ؛ والتقدير : ولو أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم فى دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ؛ ولكنا صُنَّا من كان فيها يكتم إيمانه خوفاً . وقال الضحاك : لولا مَن فى أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ المَعَرّة العيب ، وهى مفعلة من العَرّ وهو الجَرَب ؛ أى يقول المشركون : قد قتلوا أهل دينهم . وقيل : المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارةَ دون الدِّية فى قوله : « فإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » قاله الكلبى ومقاتل وغيرهما . وقد مضى

فى « النساء » القول فيه[١] . وقال ابن زيد : « مَعَرَّة » إثم . وقال الجوهرى وابن إسحاق : غُرْم الدِّيَة . قُطْرُب : شدّة . وقيل غَمّ .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تفضيل للصحابة و إخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدّى ؛ حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد . وهــذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليــه السلام فى قولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[٢] » .

قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ؛ أى لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمتــه . ويجوز أن تتعلق بالإيمــان . ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون فى الرحمــة . وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه، ودخلوا فى رحمته؛ أى جنته .

الثانيــــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أى تميّزوا ؛ قاله القتبى . وقيل : لو تفرقوا ؛ قاله الكلبى . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك . ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار . وقال علىّ رضى الله عنــه : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن هــذه الآية « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » فقال : "هم المشركون من أجداد نبى الله ومن كان بعــدهم وفى عصرهم كان فى أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليما" .

الثالثــة ــ هــذه الآية دليل على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن إذاية الكافر إلا بإذاية المؤمن . قال أبو زيد قلت لابن القاسم : أرأيت لو أن قوما من المشركين فى حصن من حصونهم، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى فى أيديهم،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٢٣ . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

أيحرق هذا الحصن أم لا ؟ قال : سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين فى مراكبهم أنرمى فى مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى فى مراكبهم ؟ قال : فقال مالك لا أرى ذلك ؛ لقوله تعالى لأهل مكة : «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» . وكذلك لو تَتَرّس كافر بمسلم لم يجز رميه . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدا من المسلمين فعليه الدية والكفارة . فإن لم يعلموا فلا دِيَة ولا كفارة ؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا ، فإذا فعلوه صاروا قَتَلَة خطأ والدية على عواقلهم . فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا . وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تِبَاعة . قال ابن العربى : « وقد قال جماعة إن معناه لو تزيّلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال . وهذا ضعيف ؛ لأن من فى الصلب أو فى البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرّة . وهو سبحانه قد صرح فقال : «ولولا رِجالٌ مؤمنون ونِساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم» وذلك لا ينطلق على من فى بطن المرأة وصلب الرجال ، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، وأبى جندل بن سهيل . وكذلك قال مالك : وقد حاصرنا مدينة الروم فحبس عنهم الماء ، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم الماء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنَّبل ، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا . وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثّورى الرّمْىَ فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . ولو تَتَرّس كافر بولد مسلم رمى المشرك ، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دِيَة فيه ولا كفارة . وقال الثورى : فيه الكفارة ولا دِيَة . وقال الشافعى بقولنا . وهذا ظاهر ؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز ؛ سِيَّما بروح المسلم ؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضى الله عنه . والله أعلم » .

قلت : قد يجوز قتل التُّرس ، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله ، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعية . فمعنى كونها ضرورية ، أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس . ومعنى أنها كلية ، أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين ؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها

قطعية، أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغى أن يختلف فى اعتبارها ؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا ؛ فإما بأيدى العدو فتحصل المفسدة العظيمة التى هى استيلاء العدو على كل المسلمين . وإما بأيدى المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون . ولا يتأتى لعاقل أن يقول : لا يقتل التُّرْس فى هذه الصورة بوجه ؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم . والله أعلم .

الرابعة — قراءة العامة « لَوْ تَزَيَّلُوا » إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ « تزايلوا » وهو مثل « تزيَّلوا » فى المعنى . والتزايل : التباين . و « تزيّلوا » تفعّلوا ، من زِلْت . وقيل : هى تفيْعَلُوا . « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » قيل : اللام جواب لكلامين ؛ أحدهما — « لولا رجال » والثانى — « لو تزيلوا » . وقيل جواب « لولا » محذوف ؛ وقد تقدّم . « ولو تزيلوا » ابتداء كلام .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

العامل فى « إذ » قوله تعالى : « لَعَذَّبْنَا » أى لعذبناهم إذ جعلوا هذا . أو فعل مضمر تقديره واذكروا . ﴿ الْحَمِيَّةَ ﴾ فعِيلة وهى الأَنَفة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة (بالتشديد) ومَحْمِيّة إذا أَنِفت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتلمّس :

ألَا إننى منهم وعِرْضِى عِرْضُهم * كذِى الأنف يحمى أنفه أن يُكَشّما[1]

أى يمنع . قال الزهرىّ : حَمِيّتهم أنفتهم من الإقرار للنبىّ صلى الله عليه وسلم بالرسالة

---

(١) الكشم : قطع الأنف باستئصال .

والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذى امتنـع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسـول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدّم . وقال ابن بحـر : حميّتهم عصبيّتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها . وقيل : « حَمِيَّـةَ الجَاهِلِيَّةِ » إنهـم قالوا : قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ؛ واللات والعزى لا يدخلها أبدا . ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أى الطمأنينة والوقار ﴿ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : ثبّتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قيل لا إله إلا الله . روى مرفوعا من حديث أُبَىّ بن كَعْب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهو قول علىّ وابن عمر وابن عباس ، وعمرو بن مَيْمُون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ، وسـلمة بن كُهيل وعبيـد بن عمير وطلحة بن مُصَرِّف ، والربيع والسدى وابن زيد . وقاله عطاء الخراسانى ، وزاد « محمد رسول الله » . وعن علىّ وابن عمر أيضا هى لا إله إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبى رباح ومجاهد أيضا : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قـدير . وقال الزهرىّ : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى أن المشركين لم يُقِرّوا بهـذه الكلمة ؛ فخصّ الله بها المؤمنين . و « كلمـة التقوى » هى التى يتقّى بهـا من الشرك . وعن مجاهد أيضا أن « كلمـة التقوى » الإخلاص . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى أحق بها من كفار مكة ؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيّه . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)

قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة ؛ فلما صالح قريشا بالحُدَيْبِيَة ارتاب المنافقون حتى قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم

إنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » فأعلمهم أنهم سيدخلون فى غير ذلك العام، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق . وقيل : إن أبا بكر هو الذى قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت ، وأنه سيدخل . وروى أن الرؤيا كانت بالحديبية، وأنّ رؤيا الأنبياء حق . والرؤيا أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء . ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أى فى العام القابل ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال آبن كَيْسان: إنه حكاية ما قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى منامه ؛ خوطب فى منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى ؛ تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »(١) . وقيل : خاطب الله العباد بما يحب أن يقولوه ؛ كما قال « ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » . وقيل : استثنى فيما يَعلم ليستثنى الخلقُ فيما لا يعلمون ؛ قاله ثعلب . وقيل : كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى ؛ قاله الحسين بن الفضل . وقيل : الاستثناء من « آمنين » ؛ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة . وقيل : معنى « إن شاء الله » إن أمركم الله بالدخول . وقيل : أى إن سهل الله . وقيل : « إن شاء الله » أى كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : « إنْ » بمعنى « إذ » ؛ أى إذ شاء الله؛ كقوله تعالى « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »(٢) أى إذ كنتم . وفيه بُعْدٌ؛ لأن « إذ » فى الماضى من الفعل ، و « إذا » فى المستقبل ؛ وهذا الدخول فى المستقبل ، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذى طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتدّ عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله فى العام المقبل فأنزل الله « لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق » . وإنما قيل له فى المنام « لَتَدْخُلُنّ الْمَسْجِدَ الحَرَام إن شاء الله » فحكى فى التنزيل ما قيل له فى المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و « لتدخلن » تحقيق فكيف يكون شك . فـ « إن » بمعنى « إذ » . ﴿آمِنِينَ﴾ أى من العدو. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) آية ٢٧٨ سورة البقرة .

﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليق والتقصير جميعا للرجال ؛ ولذلك غلب المذكر علي المـؤنث . والحـلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير . وقد مضى القول فى هـذا فى « البقرة »[1] . وفى الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبىّ صلى الله عليه وسلم على المَرْوَة بمِشْقَص . وهذا كان فى العُمْرة لا فى الحج، لأن النبى صلى الله عليـه وسلم حلق فى حجته . ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال من المحلِّقين والمقصِّرين ؛ والتقـدير : غير خائفين . ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُـوا﴾ أى علم ما فى تأخير الدخول من الخـير والصلاح ما لم تعلموه أنتم . وذلك أنه عليه السلام لمـا رجع مضى منها إلى خَيْبَر فافتتحها ، و رجع بأموال خيبر وأخذ من العـدة والقوّة أضعاف ما كان فيـه فى ذلك العام، وأقبـل إلى مكة على أهبـة وقوة وعدّة بأضعاف ذلك . وقال الكلبي : أى علم أن دخولها إلى سـنة ولم تعلموه أنتم . وقيل : علم أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم . ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ أى من دون رؤيا النبىّ صلى الله عليه وسـلم فتح خيبر ؛ قاله آبن زيد والضحاك . وقيل فتح مكة . وقال مجاهد : هو صلح الحديبيـة ؛ وقاله أكثر المفسرين . قال الزهرى : ما فتح الله فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنمـا كان القتـال حين تلتقى الناس ، فلما كانت الهـدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن النـاس بعضهـم بعضا ؛ فالتقوا وتفاوضوا الحـديث والمناظرة . فلم يُكَلَّم أحد بالإسـلام يعقل شيئا إلا دخل فيـه ؛ فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثـلُ ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبيـة ألفا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَـلَ رَسُولَهُ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليـه وسلم ﴿بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى يعليه على كل الأديان . فالدِّين اسم بمعنى المصدر ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٨١ طبعة ثانية .

ويستوى لفظ الواحد والجمع فيـه . وقيل : أى ليظهر رسوله على الدين كله؛ أى على الدين الذى هو شرّعه بالحجة ثم باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه . ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ «شهيدا» نصب على التفسير ، والباء زائدة ؛ أى كفى الله شهيدا لنبيّه صلى الله عليه وسلم؛ وشهادته له تبيّن صحة نبوّته بالمعجزات . وقيـل : « شهيدا » على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أبوا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسـول الله .

قوله تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ « محمد » مبتدأ و « رسول » خبره . وقيل : « محمد » ابتـداء و « رسول الله » نعتـه . ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ عطف على المبتدأ ، والخبر فيما بعده؛ فلا يوقف على هذا التقدير على « رسـول الله » . وعلى الأول يوقف على « رسـول الله » ؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه ؛ فيكون « محمد » ابتداء و « رسول الله » الخبر « والذين معه » ابتداء ثان .و « أشداء » خبره و « رحماء » خبر ثان . وكون الصفات فى جمـلة أصحاب النبيّ صـلى الله عليه وسـلم هو الأشبه . قال ابن عباس : أهل الحديبية أشداء على الكفار؛ أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل : المراد بـ « الذين معه » جميع المؤمنين . ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يرحم بعضهم بعضا . وقيـل :

متعاطفون متوادّون . وقرأ الحسن « أشداء على الكفار رحماء بينهم » بالنصب على الحال ؛ كأنه قال : والذين معه فى حال شدتهم على الكفار وتراحمهم بينهم . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى يطلبون الجنة ورضا الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السيما العلامة؛ وفيها لغتان : المد والقصر ؛ أى لاحت علامات التهجّد بالليل وأمارات السهر . وفى سنن ابن ماجه قال : حدّثنا إسماعيل بن محمد الطلحى قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقال ابن العربى : ودسّه قوم فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف . وقد روى ابن وهب عن مالك « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود ؛ وبه قال سعيد بن جبير . وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وكف[(1)] المسجد وكان على عريش ؛ فانصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين . وقال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، ورواه العوفى عن ابن عباس ؛ قاله الزهرى . وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة ، وفيه : "حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود" . وقال شهر بن حوشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السمْت الحسن . وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال

(١) أى قطر سقفه .

منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعـالى « سِيماهم فى وجوههـم » أهو أثر يكون بين عينى الرجل؟ قال لا ؛ ربمـا يكون بين عينى الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلبا من الحجارة ! ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع . وقال ابن جُريج : هو الوقار والبهاء . وقال شَمِـر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل . قال الحسن : إذا رأيتهـم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى . وقال الضحاك : أما انه ليس بالنَّدْب فى وجوههم ولكنه الصفرة . وقال سفيان الثَّوْرىّ : يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك فى وجوههم ؛ بيانُه قوله صلى الله عليه وسلم : "من كثرت صـلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقد مضى القول فيه آنفا . وقال عطاء الخراسانى : دخل فى هـذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ قال الفرّاء : فيه وجهان، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضا ، كمثلهم فى القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنجيل» و إن شت قلت : تمام الكلام ذلك مثلهم فى التوراة، ثم ابتدأ فقال ومثلهم فى الإنجيل . وكذا قال ابن عباس وغيره : همـا مثـلان، أحدهمـا فى التوراة والآخر فى الإنجيل؛ فيوقف على هذا على « التوراة » . وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعنى أن هذه صفتهم فى التوراة والإنجيل ؛ فـلا يوقف على « التوراة » على هذا ، و يوقف على « الإنجيل » ، ويبتدئ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ على معنى وهم كزرع . و « شطأه » يعنى فِراخه وأولاده؛ قاله ابن زيد وغيره . وقال مقاتل : هو نبت واحد؛ فإذا خرج ما بعـده فقـد شَطَأه . قال الجوهرى : شَطْءُ الزرع والنبات فراخه ، والجمـع أشطاء . وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه . قال الأخفش فى قوله « أخرج شطأه » أى طَرَفه . وحكاه الثعلبى عن الكسائى . وقال الفراء : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئ إذا خرج . قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنانَ الثمر

الزجاج : أخرج شطأه أى نباته . وقيل : إن الشطء شـوك السُّنْبُل؛ والعرب أيضا تسميه : السَّفَا ؛ وهو شَوْك البُهْمَى[1] ؛ قاله قُطْرُب . وقيل : إنه السنبل؛ فيخرج من الحبة

(١) البهمى : نبت تجد به الغنم وجدا شديدا ما دام أخضر .

عشر سنبلات وتسع وثمانٍ؛ قاله الفراء ، حكاه الماوردى . وقرأ ابن كثير وابن ذكوان « شَطَأه » بفتح الطاء ؛ وأسكن الباقون . وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وثّاب «شَطَاه» مثل عصاه . وقرأ الجَحْدَرِىّ وابن أبى إسحاق « شَطَه » بغير همز؛ وكلها لغات فيها .

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ يعنى أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون ؛ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِىَ أمره ؛ كالزرع يَبْدُو بعد البَذْر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخُه . فكان هذا من أصح مَثَل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينْهَوْن عن المنكر . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى قوّاه وأعانه وشدّه ؛ أى قوّى الشطءُ الزرع . وقيل بالعكس؛ أى قوّى الزرعُ الشطءَ . وقراءة العامة « آزره » بالمدّ . وقرأ ابن ذَكوان وأبو حَيْوَة وحُميد بن قيس « فَأَزَرَهُ » مقصورة ؛ مثل فَعَلَه . والمعروف المدّ . قال امرؤ القيس :

بمَحْنِيَةٍ(١) قد آزر الضَّالَ نَبْتُها　＊　مَجَرِّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ على عوده الذى يقوم عليه فيكون ساقا له . والسُّوق : جمع الساق . ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أى يعجب هذا الزرع زرّاعَه . وهو مَثَلٌ كما بيّنا ؛ فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم، والشَّطْءُ أصحابه ؛ كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقَوُوا ؛ قاله الضحاك وغيره . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ؛ أى فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى وعد الله هؤلاء الذين مع محمد؛ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة . ﴿ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى ثوابا لا ينقطع وهو الجنة . وليست « مِن » فى قوله « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة

---

(١) المحنية (بالتخفيف) : واحدة المحانى، وهى معاطف الأودية . والضال (بتخفيف اللام) : شجرة السِّدر .

مجنّسة ؛ مثلُ قوله تعالى : « فآجتنبوا الرِّجْس من الأوثان »(١) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ؛ أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شَتى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ؛ فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » ؛ أى من هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة . ويقال : أنفق نفقتك من الدراهم؛ أى اجعل نفقتك هذا الجنس . وقد يخصص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلا لهم ، و إن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة . وفى الآية جواب آخر : وهو أن « من » مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلَّهم مغفرة وأجرا عظيما . فجرى مجرى [قول] العربى : قطعت من الثوب قميصا؛ يريد قطعت الثوب كلّه قميصا . و « مِن » لم يبعض شيئا . وشاهد هذا من القرآن «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُو شِفَاءٌ»(٢) معناه وننزل القرآن شفاء ؛ لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصًّا به بعضه دون بعض . على أن من اللغويين من يقول « مِن » مجنّسة؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن . قال زُهير :

* أمِن أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ(٣) *

أراد من ناحية أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ ، أم من منازلها دِمْنَة . وقال الآخر :

أخُـو رغائبَ يعطيها و يسألها * يأبَى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ(٤)

ف « من » لم تُبَعِّض شيئا ، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوْفَلٌ زُفَرٌ . والنَّوْفَل : الكثير العطاء . والزُّفَر : حامل الأثقال والمؤن عن الناس .

الخامسة — روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية « محمد

---

(١) آية ٣٠ سورة الحج . (٢) آية ٨٢ سورة الإسراء . (٣) الدمنة : آثار الناس وما سودوا بالرماد . لم تكلم : لم تبين ؛ والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره : تكلم ؛ أى ميز ، فصار بمنزلة المتكلم .
(٤) البيت لأعشى باهلة .

رسولُ اللهِ والذين معه » حتى بلغ « يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكفارَ » . فقال مالك : مَن أصبح من الناس فى قلبه غَيْظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ؛ ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته فقد رَدّ على الله رَبِّ العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ؛ قال الله تعالى : « مُحمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشِدّاءُ على الكُفّارِ » الآية . وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عنِ المُؤْمنينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تحتَ الشَّجَرَةِ » إلى غير ذلك من الآى التى تضمنت الثناء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح ؛ قال الله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »[1] . وقال : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم وَأَمْوَالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ و رِضْوَاناً — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »[2] ، ثم قال عزّ من قائل : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم — إلى قوله — فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[3] . وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الناسِ قَرْنِي ثم الذين يلونهم " وقال : " لا تَسُبُّوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه " خرجهما البخارى . وفى حديث آخر : " فلو أن أحدكم أنفق ما فى الأرض لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ؛ فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعُشر عَشِير ، وللخُمس خميس ، وللتّسع تَسِيع ، وللثمن ثَمِين ، وللسّبع سَبِيع ، وللسّدس سَدِيس ، وللربع رَبِيع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . وفى البَزّار عن جابر مرفوعا صحيحا : " إن الله اختار أصحابى على العالمين سِوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى " . وقال " فى أصحابى كلِّهم خير " . وروى عُوَيم بن ساعدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وَجَلّ اختارنى واختار لى أصحابى فجعل لى منهم وزراء وأختانًا وأصهارًا فمن سَبّهم فعليه لعنة

---

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب .   (٢) آية ٨ سورة الحشر .   (٣) آية ٩ سورة الحشر .

الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منـه يوم القيامة صَرْفًا[1] ولا عَدْلًا ". والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ؛ فحَذَارِ من الوقوع فى أحد منهم ، كما فعل مَن طعن فى الدين فقال : إن المُعوِّذتين ليستا من القـرآن ، وما صحّ حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى تثبيتهما ودخولها فى جمـلة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقـه غيره عليها ، فروايتـه مطّرحة . وهذا ردّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة ، وإبطالٌ لما نقلته لنا الصحابة من المِلة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجُهَنى ممن روى لنا الشريعة فى الصحيحين البخارى ومسلم وغيرهما ، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفـرة وأجرا عظيما . فمن نسـبه أو واحدا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتى أُلحِق واحد منهم تكذيبا فقـد سُبّ ؛ لأنه لا عار ولا عَيْب بعد الكفر بالله أعظمُ من الكذب، وقد لعن رسـول الله صلى الله عليه وسلم مَن سبّ أصحابه ؛ فالمكذّب لأصغرهم — ولا صغير فيهم — داخلٌ فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألزمها كلَّ مَن سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمـر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعَلَت أصواتهم؛ فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن أبا هريرة مُتَّهم فيما يرويه ، وصَرّحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونَصَر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم وغيره؛ فنظر إلىّ الرشـيد نظر مُغْضَب ، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث حتى قيـل : صاحب البريد بالباب ؛ فدخل فقال لى : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنّط وتكفّن! فقلت : اللّهمّ إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه،

---

(١) الصرف : التوبة . وقيل النافلة . والعدل : الفدية . وقيل الفريضة .

فَسلَّمْنى منـه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النِّطَـع[1] ؛ فلما بَصُرَ بى قال لى : يا عمر بن حبيب ما تلقّانى [أحد][2] من الرد والدفع [لقولى بمثل][2] ما تلقيتنى به ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الذى قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وعلى ما جاء به][2] ؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعـة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كلّه مردود غير مقبول ؛ فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ! وأمر لى بعشرة آلاف درهم .

قلت : فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هـذا مذهب أهل السُّنّة ، والذى عليه الجماعة من أئمة هـذه الأمة . وقد ذهبت شِرْذِمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ؛ فيلزم البحث عن عدالتهم . ومنهم من فرق بين حالهم فى بُداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العـدالة إذ ذاك ؛ ثم تغيّرت بهـم الأحوال فظهرت فيهم الحـروب وسفك الدماء؛ فلا بُدّ من البحث . وهـذا مردود ؛ فإن خيـار الصحابة وفضلاءهم كعلىّ وطلحة والزبير وغيرهم رضى الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكّاهم ورضى عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنـة بقوله تعالى « مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » . وخاصّةً العشرة المقطوع لهم بالجنـة بإخبار الرسـول هم القُدْوَة مع علمهم بكثير من الفـتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم؛ إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب . وسيأتى الكلام فى تلك الأمور فى سورة « الحجرات » مبيّنة إن شاء الله تعالى .

---

(١) النطع (بالكسر) : بساط من الأديم .

(٢) زيادة عن كتاب تاريخ بغداد فى ترجمة عمر بن حبيب .

تفسير سـورة الحجـرات

مدنيـة بإجماع . وهى ثمانى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلماء : كان فى العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلقيبِ الناس . فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرميّ : « لا تَقَدَّمُوا » بفتح التاء والدال من التقدّم . الباقون « تُقَدِّمُوا » بضم التاء وكسر الدال من التقديم ؛ ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعالى ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

الثانيـة — واختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة :

الأول — ما ذكره الواحديّ من حديث ابن جُرَيج قال : حدّثنى ابن أبى مُلَيكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : أمِّر القَعْقاع بن مَعْبَد . وقال عمر : أَمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ؛

فنزل فى ذلك : « يأيها الذين آمنوا لا تُقدّمُوا بين يَدَيِ اللهِ ورسولِه — إلى قوله — وَلَوْ أنهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ » . رواه البخارى عن الحسن بن محمد بن الصباح ؛ ذكره المهدِوِىّ أيضا .

الثانى — ما روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى إلى خَيْبَر ؛ فأشار عليه عمر برجل آخر ؛ فنزل « يأيها الذين آمنوا لا تُقدّمُوا بين يَدَيِ اللهِ ورسوله » . ذكره المهدوى أيضا .

الثالث — ما ذكره الماوَرْدِىّ عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم ؛ إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفئوا[1] إلى المدينة ؛ فلقُوا رجلين من بنى سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بنى عامر ، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ؛ فجاء نفر من بنى سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا و بينك عهدا ، وقد قتل منا رجلان ؛ فوداهما النبىّ صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية فى قتلهم الرجلين . وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون لو أنزل فىّ كذا ، لو أنزل فىّ كذا ؟ فنزلت هذه الآية . ابن عباس : نُهُوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . مجاهد : لا تفتاتوا[2] على الله ورسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله ؛ ذكره البخارى أيضا . الحسن : نزلت فى قوم ذَبَحُوا قبل أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح . ابن جُرَيج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضى أبو بكر بن العربى ، وسردها قبله الماوردى . قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ؛ والله أعلم . قال القاضى : إذا قلنا إنها نزلت فى تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

(١) انكفأ القوم انكفاء : رجعوا وتبددوا .

(٢) افتات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه فى الأمر : حكم عليه . وافتات برأيه : استبد به .

عليه كالصلاة والصوم والحج، وذلك بيّن . إلّا(١) أن العلماء اختلفوا فى الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدّ خَلّة الفقير، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين . فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها . وإن جاء رأس العام وقد تغيّر النصاب تبيّن أنها صدقة تطوع . وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة؛ وكأنه طرد الأصل فى العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها فى النظام وحسن الترتيب . ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفوٌّ عنه فى الشرع بخلاف الكثير . وما قاله أشهب أصح؛ فإن مفارقة اليسير الكثير فى أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير . فأما فى مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة . فإما تقديم كلّى كما قاله أبو حنيفة والشافعىّ، وإمّا حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ أصل فى ترك التعرض لأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مرضه : " مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس " . فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : قولى له إن أبا بكر رجل أسِيف(٢) وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء؛ فَمُرْ عمر فليصلّ بالناس . فقال صلى الله عليه وسلم : " إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف(٣) . مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس " . فمعنى قوله " صواحب يوسف " الفتنة بالردّ عن الجائز إلى غير الجائز .

---

(١) فى الأصول : « وذلك أن العلماء ... » والتصويب عن ابن العربى .

(٢) سريع البكاء والحزن . وقيل : هو الرقيق .

(٣) قال القسطلانى : « أى مثلهن فى إظهار خلاف ما فى الباطن؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يتشاءم الناس به . وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة وغرضها أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها فى محبته؛ فعبر بالجمع فى قوله « انكن » والمراد عائشة فقط . وفى قوله « صواحب » والمراد زليخا كذلك .

وربما احتج بغات القياس بهـذه الآية . وهو باطل منهـم ؛ فإن ما قامت دلالتـه فليس في فعله تقـديم بين يديه . وقـد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القـول بالقياس في فروع الشرع ؛ فليس إذًا تقدّم بين يديه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يعني في التقدم المنهى عنـه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعلكم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يأيهـا الذينَ آمنُو لا تَرفَعُوا أصواتَكُمْ فوقَ صوْتِ النبيِّ ﴾ روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن أبي مُليكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمله على قومه ؛ فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ؛ فتكلما عنـد النبيّ صلى الله عليه وسـلم حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافك ؛ قال : فنزلت هذه الآية : «يأيها الذين آمنوا لا ترفَعُوا أصواتكم فوْقَ صَوْتِ النبِيّ» قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُسمع كلامه حتى يَستفهمه . قال : وما ذكر ابن الزبير جدّه يعني أبا بكر . قال : هذا حديث غريب حسن . وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلا ، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخاري ، قال : عن ابن أبي مُليكة كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ، رفعا أصواتهما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قَدِم عليـه ركْب بني تَميم ؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ؛ فقال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال : ما أردتُ خلافك . فارتفعت أصواتهما

فى ذلك؛ فأنزل الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبي» الآية. فقال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه[١]؛ يعنى أبا بكر الصديق. وذكر المهدوى عن علىّ رضى الله عنـه: نزل قـوله «لا ترفعوا أصواتكم فَوْق صَوْت النبيّ» فينا لمـا ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لمـا جاء بها زيد من مكة؛ فقضى بهـا رسول صلى الله عليه وسلم لجعفر؛ لأن خالتها عنده. وقد تقدم هذا الحديث فى «آل عمران»[٢]. وفى الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَهُ؛ فأتاه فوجده جالسا فى بيته مُنَكِّساً رأسه؛ فقال له: ما شأنك؟ فقال: شَرٌّ! كان[٣] يرفع صوتَه فَوْقَ صوتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد حبِط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجلُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى[٤]: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة؛ فقال: "اذهب إليه فقل له إنك لستَ من أهل النار ولكنك من أهل الجنة". لفظ البخارى. وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى يُكْنَى أبا محمد بابنه محمد. وقيـل: أبا عبد الرحمن. قُتِـل له يوم الحَرّة[٥] ثلاثةٌ من الولد: محمد، ويحيى، وعبـد الله. وكان خطيبا بليغا معروفا بذلك، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولمـا قَدِم وَفْدُ تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد:

---

(١) قوله «عن أبيه» يريد جده لأمه أسماء.

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨.

(٣) هذا التفات من الحاضر إلى الغائب؛ والأصل: كنت أرفع صوتى.

(٤) هو ابن أنس؛ أحد رجال سند الحديث.

(٥) الحرة: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة، تعرف بحرة واقم، وبها كانت الوقعة فى سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية حين أنهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينـة من الصحابة والتابعين، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المرى.

أتيناك كَيْمَا يعرف الناس فضلنا * إذا خالفونا عنـد ذكر المكارِم
وإنا رءوس الناس من كل مَعْشَرٍ * وأن ليس فى أرض الحجاز كدارِم
وإنّ لنـا المِرْباع فى كل غارة * تكون بنجد أو بأرض التهائم (١)

فقام حسان فقال :

بَنى دارِمٍ لا تَفْخَرُوا إن فَخْرَكُمْ * يعود وَبَالًا عنـد ذكر المكارم
هَبِلتم علينا تفخرون وأنتمُ * لنـا خَوَلٌ مِن بين ظِئر وخادِم (٢)

فى أبيـات لهما .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعـالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول » . وقال عطاء الخراسانى : حدّثتنى آبنة ثابت بن قيس قالت : لمـا نزلت « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ » الآية ، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ؛ ففَقَده النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليـه يسأله ما خبره ؛ فقال : أنا رجل شـديد الصوت ؛ أخاف أن يكون حَبِط عملى . فقال عليه السـلام : "لستَ منهم بل تعيش بخـير وتموت بخير" . قال : ثم أنزل الله « إنّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٣) » فأغلق بابه وطَفِق يبكى ؛ ففَقَده النبيّ صلى الله عليه وسـلم فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال : يا رسول الله ، إنى أحب الجمال وأحب أن أسـود قومى . فقال : "لستَ منهم بل تعيش حَميدًا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة" . قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقوْا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتـلا ؛ وعلى ثابت يومئـذ درع له نفيسة ؛ فمرّ به رجل من

(١) فى سيرة آبن هشام : « ... أو بأرض الأعاجم » والمرباع : ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة .
(٢) هبلتم : فقدتم . والخول : حشم الرجل وأتباعه .
(٣) آية ١٨ سورة لقمان .

المسلمين فأخذها؛ فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حُلْم فتضيعه، إنى لما قُتلت أمس مَرّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزلُه فى أقصى الناس، وعند خبائه فرس يَسْتَنّ(١) فى طِوَله، وقد كَفَأ على الدرع بُرْمَةً، وفوق البرمة رَحْل؛ فَأْتِ خالدا فمُرْه أن يبعث إلى درعى فيأخذها، و إذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى أبا بكر— فقل له : إن علىّ من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيقى عتيق وفلان؛ فأتى الرجل خالدا فأخبره؛ فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيّته . قال : ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت، رحمه الله؛ ذكره أبو عمر فى الاستيعاب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لا تخاطبوه : يا محمد ، ويا أحمد . ولكن : يا نبىّ الله، ويا رسول الله؛ توقيراً له . وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ ليقتدى بهم ضَعَفة المسلمين فنُهِىَ المسلمون عن ذلك . وقيل : « لا تجهروا له » أى لا تجهروا عليه، كما يقال : سقط لِفيه؛ أى على فيه . ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الكاف كاف التشبيه فى محل النصب ؛ أى لا تجهروا له جهرًا مثل جهر بعضكم لبعض . وفى هذا دليل [على] أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لايسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، و إنما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة؛ أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب و إن جلّت عن رتبتها . ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى من أجل أن تحبط ، أى تبطل؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : أى لئلا تحبط أعمالكم .

الثالثــة — معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته ؛ أى إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ

(١) استن الفرس : قمص وعدا إقبالا و إدبارا . والطول والطيل (بالكسر) : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره والطرف الآخر فى يد الفرس ، ليدور فيه و يرعى ولا يذهب لوجهه .

الذى يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم؛ حتى تكون مزيّته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وآمتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق. لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبهَرُوا منطقه بصخبكم. وفى قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم». وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام. وكره بعض العلماء رفع الصوت فى مجالس العلماء تشريفا لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء.

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حيًّا، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثلُ كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه؛ كما كان يلزمه ذلك فى مجلسه عند تلفظه به. وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا [1] ». وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحْى، وله من الحكمة مثل ما للقرآن؛ إلا معانى مستثناة، بيانها فى كتب الفقه.

الخامسة — وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة؛ لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت هو فى نفسه والمسموع من جِرْسه [2] غيرُ مناسب لما يهاب به العظماء و يوقّر الكبراء، فيتكلف الغض منه وردّه إلى حدٍّ يميل به الى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهى أيضا رفع الصوت الذى يتأذّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاندٍ أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك؛ ففى الحديث أنه قال عليه السلام للعباس آبن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حُنين : "اصرخ بالناس" وكان العباس أجهر الناس صوتا؛ يروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس : يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدة صوته، وفيه يقول نابغة بنى جَعْدة :

---

(١) آية ٢٠٤ سورة الأعراف.

(٢) الجرس (بفتح الجيم وكسرها) : الصوت.

زَجْرُ أبي عُروةَ[١] السباع إذا * أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع فى جوفه .

السادسة — قال الزجاج : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ التقدير لأن تحبط ؛ أى فتحبط أعمالكم ، فاللام المقدّرة لام الصيرورة ، وليس قوله : « أَنْ تَحْبَطَ أعمالُكم وأنتم لاتشعرون » بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ؛ فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أى يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو هريرة : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » قال أبو بكر رضى الله عنه : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار[٢] . وذكر سنيد قال : حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة قال : لما نزلت « لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسُولِهِ » قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخى السِّرار . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » ما حدث عمر عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ؛ فنزلت « إنّ الَّذين يَغُضُّونَ أصواتهم عِندَ رَسُولِ اللهِ أولئك الذين ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتقوى » . قال الفراء : أى أخلصها للتَّقْوَى . وقال الأخفش : أى اختصها للتقوى . وقال ابن عباس : « ٱمتحن اللهُ قلوبَهُمْ للتَّقْوَى » طهّرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله

---

(١) أبو عروة : كنية العباس .

(٢) السرار (بالكسر) : المسارّة ؛ أى كصاحب السرار ، أو كمثل المساورة لخفض صوته ؛ والكاف صفة لمصدر محذوف .

والتقوى . وقال عمر رضى الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأديمَ مَحْنًا حتى أوسعته . فمعنى آمتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى . وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؛ كقولك : امتحنت الفضة أى اختبرتها حتى خلصت . ففى الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص . وقال أبو عمرو : كل شىء جَهَدته فقد محنته . وأنشد :

أتت رذايا باديًا كَلالها * قد محنت واضطربت آطالها (١)

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قال مجاهد وغيره : نزلت فى أعراب بنى تميم ؛ قدم الوفد منهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مَدْحنا زَيْنٌ وذَمّنا شَيْن . وكانوا سبعين رجلا قدّموا الفداءَ ذَرارِىَ لهم ؛ وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم نام للقائلة . وروى أن الذى نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مَدْحِى زَيْنٌ وإنّ ذَمِّى شَيْن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاك الله" . ذكره الترمذى عن البراء بن عازب أيضا . وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس بأتباعه ، وإن يكن مَلِكًا نَعِشْ فى جنابه (٢) . فأتَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته : يا محمد ، يا محمد ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بنى تميم . قال مقاتل : كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم ، والزِّبْرِقان بن بَدْر ، والأَقْرَع بن حابس ، وسُوَيد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقَعْقاع بن مَعْبَد ، ووَكِيع بن وكيع ، وعُيَيْنة بن حِصْن

---

(١) الرذايا : جمع رذية ، وهى الناقة المهزولة من السير . والكلال : الإعياء . والآطال : جمع إطل ؛ وهو الخاصرة .	(٢) فى الطبرى : « فى جناحه » .

وهـو الأحمق المطاع ، وكان من الجرّارين يجر عشرة آلاف قناة ، أى يتبعه . وكان اسمـه حذيفة وسمى عُيَيْنة لَشَتَرٍ[1] كان فى عَيْنَيه . ذكر عبد الرزاق فى عُيينة هـذا أنه الذى نزل فيـه « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا »[2] . وقد مضى فى آخر « الأعراف » من قوله لعمر رضى الله عنه ما فيه كفاية[3] ؛ ذكره البخارى . وروى أنهم وَفَدوا وقت الظَّهِيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ؛ فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد، آخرج إلينا ؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "هم جُفاة بنى تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهـم أن يهلكهم" . والحُجُرات جمع حُجْرة ؛ كالغُرُفات جمع غُرْفة ، والظُّلُمات جمع ظُلْمـة . وقيل : الحجرات جمع الحُجَر، والحُجَر جمع حُجْرة؛ فهو جمع الجمع . وفيه لغتان[4] : ضمّ الجيم وفتحها . قال :

ولما رأونا باديًا رُكَباتنا * على موطن لا نخلط الجِدَّ بالهزْلِ

والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . وحَظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهى فُعْلة بمعنى مفعولة . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع « الحُجَرات » بفتح الجيم استثقالا للضمتين . وقرئ « الحُجْرات » بسكون الجيم تخفيفا . وأصل الكلمة المنع . وكل ما منعت أن يوصل إليـه فقد حَجَرت عليه . ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضا من الجملة فلهذا قال : « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

أى لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم . وكان صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه فى تلك الحالة

---

(١) الشتر (بفتحتين) : انقلاب فى جفن العين . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ (٤) وفيه لغة ثالثة : سكون الجيم .

من سوء الأدب . وقيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم، وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ قيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط . وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة مُصَدِّقا إلى بنى المُصْطَلِق؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم — فى رواية : لإحْنَة كانت بينه و بينهم —؛ فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام . فبعث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا؛ فبعث عُيُونَه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه؛ فعاد إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فنزلت هذه الآية؛ فكان يقول نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " التأنّى من الله والعجلة من الشيطان " . فى رواية : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بنى المُصْطَلِق بعد إسلامهم؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم . فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغَزْوِهم؛ فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدّى إليه ما قبلنا من الصدقة، فٱستمر راجعا، و بلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسُمّىَ الوليدُ فاسقًا أى كاذبا . قال

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب . وقال أبو الحسن[١] الوراق : هو المعلن بالذنب . وقال ابن طاهر : الذى لا يستحى من الله . وقرأ حمزة والكسائى «فتثبتوا» من التثبت . الباقون « فتبينوا » من التبيين ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ أى لئلا تصيبوا ؛ فـ « أن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . ﴿ قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ أى بخطأ . ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ على العجلة وترك التأنّى .

الثانيـــة ـــ فى هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عَدْلاً ؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها . وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود ، و إثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدى ؛ فإنه يقبل قوله . و إذا قال : قد أنفذ فلان هذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك . وكذلك يقبل فى مثله خبر الكافر . وكذلك إذا أقرّ لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا . وأما فى الإنشاء على غيره فقال الشافعى وغيره : لا يكون وَلِياً فى النكاح . وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وَلِياً ؛ لأنه يَلِي ما لها فيلى بُضْعَها . كالعدل ، وهو و إن كان فاسقا فى دينه إلا أن غَيْرته موفّرة وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال و يصون الحرمة ؛ و إذا وَلِيَ المال فالنكاح أولى .

الثالثـــة ـــ قال ابن العربى : ومن العَجَب أن يجوّز الشافعى ونظراؤه إمامةَ الفاسق . ومن لا يؤتمن على حبة مالٍ [كيف][٢] يصحّ أن يؤتمن على قنطار دِيْن . وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا استُطيعت إزالتهم صُلِّيَ معهم ووراءهم ؛ كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ؛ فإذا أحسنوا فأحسن ، و إذا أساءوا فاجتنب إساءتهم . ثم كان من الناس من إذا صلّى معهم تَقِيَّةً أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته . وبوجوب الإعادة أقول ؛

---

(١) فى بعض النسخ : « أبو الحسين » .

(٢) زيادة عن ابن العربي .

فلا ينبغى لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرًّا فى نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعة — وأما أحكامه إن كان واليًا فينفذ منها ما وافق الحق ويردّ ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذى أمضاه بحال؛ ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر][1] أو قول يحكى؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر .

الخامسة — لا خلاف فى أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره فى قول يبلغه أو شىء يوصله ، أو إذن يعلمه؛ إذا لم يخرج عن حق المرسِل والمبلِّغ ؛ فإن تعلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله . وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق فى هذه المعانى إلا العدول لم يحصل منها[2] شىء لعدمهم فى ذلك . والله أعلم .

السادسة — وفى الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم؛ فإن حَكم الحاكمُ قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة .

السابعة — فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملا بجهالة ؛ كالقضاء بالشاهدين العدلين ، وقبول قول العالم المجتهد . وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله . ذكر هذه المسألة القُشَيْرِى ، والذى قبلها المَهْدَوِى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) فى ابن العربى : « منهم » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ فلا تكذبوا ؛ فإن الله يُعْلِمه أنباءكم فتفتضحون . ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة و إثم ؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأ ، ولَعَنِتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه و بينهم . ومعنى طاعة الرسول لهم : الائتمارُ بما يأمر به فيما يبلِّغونه عن الناس والسماع منهم . والعَنَت الإثم ؛ يقال : عَنِت الرجل . والعنت أيضا الفجور والزنى ؛ كما فى سورة « النساء »[1] . والعنت أيضا الوقوع فى أمر شاق ؛ وقد مضى فى آخر « براءة » القول فى « عَنِتُّم » بأكثر من هذا[2] . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ هذا خطاب للؤمنين المخلصين الذين لايكذّبون النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل ؛ أى جعل الإيمان أحبّ الأديان إليكم . ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ بتوفيقه . ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى حسنه إليكم حتى اخترتموه . وفى هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم ؛ حسب ما تقدّم فى غير موضع . فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم ؛ لاشريك له . ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة . وقاله ابن زيد . وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ؛ مشتق من فَسَقَتِ الرُّطَبةُ خرجت من قشرها . والفارة من جُحْرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفى[3] . والعصيان جمع المعاصى . ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يعنى هم الذين وفقهم الله فحبب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أى قبحه عندهم ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ كقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ »[4] . قال النابغة :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأمَدِ

والرَّشَد الاستقامة على طريق الحق مع تَصَلُّب فيه ؛ من الرَّشادة وهى الصخرة .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٣٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٢

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٥ (٤) آية ٣٩ سورة الروم .

قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة . وأنشد :

وغير مُقَلَّد ومُوَشَّمات		صَلين الضوءَ من صُمّ الرشاد (١)

﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى فعل الله ذلك بكم فضلا ، أى الفضل والنعمة ، فهو مفعول له . ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « عليم » بما يصلحكم « حكيم » فى تدبيركم .

قوله تعالى : وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ روى المُعْتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال قلت : يا نبيّ الله ، لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيّ ؟ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ؛ فلما أتاه النبى صلى الله عليه وسلم قال : إليك عنى ! فوالله لقد أذانى نتن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحًا منك . فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال ؛ فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية . وقال مجاهد : نزلت فى الأوس والخزرج . قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصى والنعال فنزلت الآية . ومثله عن سعيد ابن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال

---

(١) فى شرح شواهد الكشاف للرحوم الأستاذ أبى عليان : « الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل وغير الأثافى المغير لونها بالنار . والوشم والتوشيم تغيير اللون ، أى التى احترقت بضوئها أى حرها . و « من صم الرشاد » بيان لها . والصم : جمع صماء ، أى صلبة . وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام ، وأنها غيرها أثر السير ، قوية بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب » .

بالسّعف والنعال ونحوه ، فأنزل الله هذه الآية فيهم . وقال قتادة : نزلت فى رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة[1] فى حق بينهما ، فقال أحدهما : لآخذن حق عَنوة ؛ لكثرة عشيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال والسيوف ؛ فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : نزلت فى حرب سُمير وحاطب[2] ، وكان سُمير قتل حاطبا ؛ فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت . وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصلحوا بينهما . وقال السُّدّى : كانت امرأة من الأنصار يقال لها «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار ، فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها فى عِلّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها ؛ فتدافعوا وتجالدوا[3] بالنعال ؛ فنزلت الآية . والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين ؛ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . وفى قراءة عبد الله « حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط » . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « اقتتلتا » على لفظ الطائفتين . وقد مضى فى آخر « براءة » القول فيه[4] . وقال ابن عباس فى قوله عز وجل « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[5] قال : الواحد فما فوقه ، والطائفة من الشىء القطعة منه . ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما . ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه . والبغى : التطاول والفساد . ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى ترجع إلى كتابه . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ رجعت ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أى احملوهما على الإنصاف . ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا. وقيل : أقسطوا أى اعدلوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى العادلين المحقين .

---

(١) تدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة ونحوها واختلفوا . (٢) راجع خبر حربهما فى كتاب الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٩٤ طبع أوربا . (٣) تجالدوا : تضاربوا .
(٤) راجع ج ٨ ص ٢٩٤ (٥) آية ٢ سورة النور .

الثانيـــة — قال العلماء : لاتخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما؛ إما أن يقتتلا على سبيل البَغْى منهما جميعا أولا . فإن كان الأول فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافّة والموادعة . فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغى صِير إلى مقاتلتهما . وأما إن كان الثانى وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى ؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكفّ وتتوب ؛ فإن فعلت أصلح بينها و بين المبغىّ عليها بالقسط والعدل . فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة ؛ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . والله أعلم .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليـل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين . وعلى فساد قول من منـع من قتال المؤمنين؛ واحتج بقوله عليـه السلام : " قتال المؤمن كفر " . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر؛ تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصدّيق رضى الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ ، ولا يُجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم ، بخلاف الواجب فى الكفار . وقال الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختـلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لمـا أقيم حدّ ولا أُبطل باطل ، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سـبيلا إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْى نسائهم وسفك دمائهم ؛ بأن يتحزّبوا عليهـم ، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم ؛ وذلك مخالف لقوله عليه السـلام : "خذوا على أيدى سفهائكم" .

الرابعـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، والعمدة فى حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصـحابة ، و إليها لجأ الأعيان من أهـل الملة ، و إياها عنى النبى صلى الله عليه وسـلم بقوله : " تَقْتل عمّارًا[1] الفئةُ الباغية " . وقوله عليه السـلام فى شأن

(١) هو عمار بن ياسر . (راجع خبره فى كتب الصحابة) .

الخوارج : "يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة" . والرواية الأولى أصح ؛ لقوله عليـه السـلام : " تقتلهم أَوْلَى الطائفتين إلى الحق " . وكان الذى قتلهم علىّ بن أبى طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدِّين أن عليًّا رضى الله عنه كان إماما ، وأن كل من خرج عليـه باغٍ وأن قتاله واجب حتى يفىء إلى الحق وينقاد إلى الصلح . لأن عثمان رضى الله عنه قُتل والصحابة بُرَآء من دمه ؛ لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أوّل مَن خَلَف رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى أمته بالقتل ؛ فصبر على البـلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة . ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى ؛ فعرضت على باقى الصحابة الذين ذكرهم [عمر][1] فى الشورى ، وتدافعوها ؛ وكان علىّ كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها ؛ فقبلها حَوْطة[2] على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل ، أو يتخرق أمرها إلى مالا يتحصل . فربما تغيّر الدِّين وانقض عمود الإسـلام . فلما بويع له طلب أهـل الشام فى شرط البَيْعة التمكن من قَتَـلة عثمان وأخذ القَوَد منهم ؛ فقال لهم علىّ رضى الله عنـه : ادخلوا فى البَيْعة واطلبوا الحق تصلوا إليـه . فقالوا : لاتستحق بيعة وقَتَلَةُ عثمان معك تراهم صباحاً ومَساء . فكان علىّ فى ذلك أسـدّ رأيا وأصوبَ قِيلاً ؛ لأن عليـًّا لو تعاطى القَوَد منهم لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حربًا ثالثة ؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر[3] وتنعقد البيعة ، ويقـع الطلب من الأولياء فى مجلس الحكم ؛ فيجرى القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنـة أو تشتيت الـكلمة . وكذلك جرى لطلحة والزبير ؛ فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه فى ديانة ؛ وإنما رأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أَوْلَى .

قلت : فهذا قول فى سبب الحرب الواقع بينهم . وقال جِلّة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهـم كانت على غير عزيمة منهم على الحـرب بل فجأة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به ؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم

---

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) الحوطة والحيطة : الاحتياط . (٣) فى ابن العربى : «الأمن» .

وتم الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قَتَلة عثمان رضى الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة فى العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غدر طلحة والزبير؛ والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ . فتم لهم ذلك على ما دبّروه ، ونَشِبَت الحرب؛ فكان كل فريق دافعاً لمَكْرَته عند نفسه ، ومانعا من الإشاطة[1] بدمه . وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل . وهذا هو الصحيح المشهور . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالقتال . وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضى الله عنهم عن هذه المقامات؛ كسعد بن أبى وَقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم . وصوّب ذلك علىّ بن أبى طالب لهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه . ويروى أن معاوية رضى الله عنه لما أفضى إليه الأمر ، عاتب سعدًا على ما فعل ، وقال له : لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ، ولا ممن قاتل الفئة الباغية . فقال له سعد : ندمتُ على تركى قتالَ الفئةِ الباغية . فتبيّن أنه ليس على الكل دَرَك[2] فيما فعل ، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ ومن العدل فى صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال؛ فإنه تلَف على تأويل . وفى طلبهم تنفيرٌ لهم عن الصلح واستشراء[3] فى البغى . وهذا أصل فى المصلحة . وقد قال لسان الأمة : إن حكمة الله تعالى فى حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل؛ إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

---

(١) الإشاطة : الاهلاك . يقال : أشاط فلان دم فلان إذا عرضه للهلاك .

(٢) الدرك (بفتح الراء وسكونها) : التبعة . (٣) استشرى الرجل فى الأمر : لج . والأمور : تفاقمت وعظمت .

السابعــة — إذا خرجت على الإمام العـدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها ، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية ، و يدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول فى الجماعة ، فإن أَبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا . ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف[1] على جريحهـم ، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالهم . و إذا قتل العادلُ الباغى أو الباغى العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا . ولا يرث قاتلٌ عمدا على حال . وقيل : إن العادل يرث الباغى ؛ قياساً على القصاص .

الثامنــة — وما استهلكه البُغـاة والخـوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخَذوا به . وقال أبو حنيفة : يضمنون . وللشافعى قولان . وجه قول أبى حنيفة أنه إتلاف بعُـدْوان فيلزم الضمان . والمعوّل فى ذلك عندنا أن الصحابة رضى الله عنهم فى حروبهم لم يتبعوا مُدْبِرا ولا ذَفَّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ؛ وهم القُدْوة . وقال ابن عمـر قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة" ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : "لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها" . فأما ما كان قائمـا ردّ بعينه . هذا كله فيمن خرج بتأويل يسـوغ له . وذكر الزَّمَخْشَرِى فى تفسـيره : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعة لها ضَمِنت بعـد الفيئة ما جَنَت ، و إن كانت كثيرةً ذات منعة وشَوكة لم تضمن ؛ إلا عنـد محمد بن الحسن رحمـه الله فإنه كان يُفتى بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأما قبـل التجمّع والتجنّد أو حين تتفرق عنـد وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عنـد الجميع . فَحَمْلُ الإصلاح بالعدل فى قـوله « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهما بِالعدلِ » على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل . وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد . والذى ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط . قال الزمخشرى : فإن قلت : لم قُرِن بالإصلاح الثانى العدلُ دون الأوّل ؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال فى أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت

---

(١) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه وتحرير قتله .

فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفى الشبهة ؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة ؛ وأما الضمان فلا يتجه . وليس كذلك إذا بغت إحداهما ؛ فإن الضمان متجّه على الوجهين المذكورين .

التاسعة — ولو تغلّبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو السنة أو الإجماع ؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة ؛ قاله مُطَرِّف وابن الماجشون . وقال ابن القاسم : لاتجوز بحال . وروى عن أَصْبَغ أنه جائز . وروى عنه أيضا أنه لا يجوز كقول ابن القاسم . و به قال أبو حنيفة ؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز تَوْليته . فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة . والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضى الله عنهم، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح ، لم يعرضوا لأحد منهم فى حكم . قال ابن العربىّ : الذى عندى أن ذلك لا يصلح ؛ لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغى ، ولم يكن هناك من يعترضه . والله أعلم .

العاشرة — لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبّدنا بالكف عما شَجَر بينهم ، وألّا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ؛ لحرمة الصحبة ولنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن سبّهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ؛ فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا . وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ فى التأويل وتقصيرا فى الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل فى طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه . ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علىّ بأن قاتل الزبير فى النار . وقوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "بَشّر قاتل ابن صفية بالنار" . وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير

غير عاصيين ولا آثمين بالقتال ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيّ صلى الله عليه وسلم في طلحة : " شهيد " . ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار . وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل . بل صواب أراهم الله الاجتهاد . وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم ، وعظيمَ غنائهم في الدِّين ، رضى الله عنهم . وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١) . وسئل بعضهم عنها أيضا فقال : تلك دماء قد طَهّر الله منها يدى ؛ فلا أخْضِب بها لساني . يعني في التحرز من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه . قال ابن فُورَك : ومن أصحابنا من قال إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف ؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوة ؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة . وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم . وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتّبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ؛ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ؛ إذ كانوا غير متّهمين في الدِّين ، ونسأل الله التوفيق .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي في الدِّين والحُرْمة لا في النسب ؛ ولهذا قيل : أخوّة الدين أثبت من أخوّة النسب ؛ فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين ،

(١) ١٣٤ سورة البقرة .

وأخوّة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا[(١)] " . وفى رواية : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابَروا ولا يَبِعْ بعضُكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسلمُ أخو المسلم لا يَظلمه ولا يَخذُله ولا يَحقِره . التقوى ها هنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحَسْبِ آمرئ من الشر أن يَحقِر أخاه المسلم . كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه " لفظ مسلم . وفى غير الصحيحين عن أبى هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يَظلمه ولا يَعيبه ولا يَخذله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قِدْره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " . ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : " احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل " .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أى بين كل مسلمين تخاصما . وقيل : بين الأوس والخزرج ؛ على ما تقدّم . وقال أبو علىّ : أراد بالأخوين الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية يرد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ[(٢)] » . وقال أبو عبيدة : أى أصلحوا بين كل أخوين ؛ فهو آت على الجميع . وقرأ ابن سِيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجَحْدَرِىّ ويعقوب « بين إخوتكم » بالتاء على الجمع . وقرأ الحسن « إخوانكم » . الباقون « أخويكم » بالياء على التثنية .

الثالثة — فى هذه الآية والتى قبلها دليل على أن البغى لا يزيل اسم الإيمان . لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين . قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمل وصِفِّين : أمشركون هم ؟

---

(١) التحسس (بالحاء) : الاستماع لحديث القوم . والتناجش : أن تزيد فى ثمن سلعة ولا رغبة لك فى شرائها . وقيل : هو تحريض الغير على الشراء .

(٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

قال : لا ، من الشِّرك فرّوا . فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١١)

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ قيل عند الله . وقيل « خيرا منهم » أى معتقدا وأسلم باطنا . والسُّخرِية الاستهزاء . سَخِرت منه أسخر سَخَرًا (بالتحريك) ومَسْخَرًا وسُخْرًا (بالضم) . وحكى أبو زيد سَخِرت به ؛ وهو أردأ اللغتين . وقال الأخفش : سَخِرْت منه وسَخِرت به ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وهَزِئت به ؛ كلٌّ يقال . والاسم السُّخْرِية والسُّخْرِى ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا »[1] وقد تقدّم . وفلان سُخْرَة ؛ يتسخر فى العمل . يقال : خادمٌ سخرة . ورجل سخرة أيضا يسخر منه . وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانيــة — واختلف فى سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس كان فى أذنه وَقْر ؛ فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛

---

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . راجع ص ٨٣ من هذا الجزء . و ج ١٢ ص ١٥٤ و ج ١٥ ص ٢٢٥

فرَبَض كل رجل منهم بمجلسه ، وعَضُّوا[1] فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما ؛ فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تَفَسَّحوا تفسحوا ، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح . فقال له الرجل : قد وجدتَ مجلسا فاجلس ! فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا، ثم قال : من هذا ؟ قالوا فلان ، فقال ثابت : ابن فلانة ! يعيّره بها ؛ يعنى أُمًّا له فى الجاهلية ؛ فاستحيا الرجل ، فنزلت . وقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذى تقدم ذكرهم فى أوّل السورة » آستهزءوا بفقراء الصحابة ، مثل عمّار وخَبّاب وابن فُهيرة وبِلال وصُهيب وسلمان وسالم مولى أبى حذيفة وغيرِهم ؛ لما رأوا من رثاثة حالهم ، فنزلت فى الذين آمنوا منهم . وقال مجاهد : هو سخرية الغنى من الفقير . وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ، فلعل إظهار ذنوبه فى الدنيا خير له فى الآخرة . وقيل : نزلت فى عِكْرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلما ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة . فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وبالجملة فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة فى بدنه أو غير لبيق[2] فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ، والاستهزاء بمن عظمه الله . ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرَحْبِيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أصنع مثل الذى صنع . وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوَكّل بالقول ، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا . و« قوم » فى اللغة للمذكّرين خاصة . قال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقوم آل حِصْن أم نساء

وسُمُّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم فى الشدائد . وقيل : إنه جمع قائم ، ثم استعمل فى كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين . وقد يدخل فى القوم النساء مجازا ، وقد مضى فى «البقرة»[3] بيانه .

(١) عض فلان الشيء : لزمه واستمسك به .		(٢) رجل لبق ولبيق : حاذق رفيق بكل عمل .
(٣) راجع جـ ١ ص ٤٠٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر . وقد قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ »[1] فشمل الجميع . قال المفسرون : نزلت فى امرأتين من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم سَخِرتا من أمّ سلمة ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيها بسَبِيبة — وهو ثوب أبيض ، ومثلها السِّبّ — وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ؛ فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنهما : انظرى ! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب . فهذه كانت سخريتهما . وقال أنس وابن زيد : نزلت فى نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عيّرن أمّ سَلَمة بالقِصَر . وقيل : نزلت فى عائشة ، أشارت بيدها إلى أم سلمة ، يانبيّ الله إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حُيَيّ بن أَخْطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن النساء يُعَيِّرنَنِى ، ويقلن لى يا يهودية بنت يهوديين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هلّا قلت إن أبى هارون وإن عمى موسى وإن زوجى محمد " . فأنزل الله هذه الآية .

الرابعــة — فى صحيح الترمذى عن عائشة قالت : حَكَيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا[2] ؛ فقال : " ما يسرنى أنى حَكَيت رجلا وأن لى كذا وكذا " . قالت فقلت : يارسول الله ، إن صفية امرأة — وقالت بيدها[3] — هكذا ؛ يعنى أنها قصيرة . فقال : " لقد مزجت بكلمةٍ لو مُزِج بها البحر لمزج " . وفى البُخارىّ عن عبد الله بن زَمْعة قال : نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأَنْفُس . وقال : " لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْب الفَحْل ثم لعله يعانقها " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " . وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفًا مذموما لا تصح

(١) أول سورة نوح . (٢) حكيت فلانا وحاكيته : فعلت مثل فعله . (٣) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ على المجاز والاتساع .

معه تلك الأعمال . ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصيةً يعلم الله من قلبه وَصْفًا محمودا يغفر له بسببه . فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلو فى تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة . بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة . فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، و بالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ اللَّمْزُ: العَيْب ، وقد مضى فى « براءة » عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ »[1] . وقال الطبرى : اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة . والهَمْزُ لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية مثلُ قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »[2] أى لا يقتل بعضكم بعضا ؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتل أخيه قاتلُ نفسه . وكقوله تعالى : « فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ »[3] يعنى يسلّم بعضكم على بعض . والمعنى : لا يَعِبْ بعضكم بعضا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير : لا يَطْعَن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يَلْعَن بعضكم بعضا . وقرئ : « ولا تَلْمُزوا » بالضم . وفى قوله « أنفسكم » تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمَّى" . وقال بكر بن عبد الله المزنى : إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّابًا ؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . وقال صلى الله عليه وسلم : "يبصر أحدكم القَذاة[4] فى عَيْن أخيه و يدع الجِذع فى عينه" . وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلا وَرِعًا * أشغَلَه عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيم المريض يشغله * عن وجع الناس كلهم وجعه

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٦ (٢) آية ٢٩ سورة النساء . (٣) آية ٦١ سورة النور .
(٤) القذاة : هو ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقال آخر :

لا تكشفن مساوى[1] الناس ما ستروا * فيهتك الله سترا عن مساويكا
وآذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النَّبَز (بالتحريك) اللقب، والجمع الأنباز. والنبز (بالتسكين) المصدر؛ تقول : نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا؛ أى لقّبه. وفلان يُنَبِّز بالصبيان أى يلقبهم؛ شُدد للكثرة. و يقال النَّبَز والنَّزَب لَقَبُ السوء. وتنابزوا بالألقاب : أى لَقّب بعضُهم بعضا. وفى الترمذى عن أبى جُبَيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره؛ فنزلت هذه الآية «ولا تنابزوا بالألقاب». قال : هذا حديث حسن. وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصارى. وأبو زيد سعيدُ[2] بن الربيع صاحب الهَرَوِى ثقة. وفى مُصَنّف أبى داود عنه قال : فينا نزلت هذه الآية، فى بنى سلمة «ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ» قال : قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا فلان فيقولون مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم؛ فنزلت هذه الآية «ولا تنابزوا بالألقاب». فهذا قول. وقولٌ ثانٍ — قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعيَّر بعد إسلامه بكفره يا يهودى يا نصرانى؛ فنزلت. وروى عن قَتادة وأبى العالية وعِكْرِمة. وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق. وقاله مجاهد والحسن أيضا. ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته؛ قاله ابن زيد. وقيل : المعنى أن مَن لَقّب أخاه أو سخِر منه فهو فاسق. وفى الصحيح "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال و إلا رجعت عليه". فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنَّبز فذلك فسوق، وذلك لا يجوز. وقد روى أن أبا ذَرٍّ رضى الله عنه كان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فنازعه

---

(١) فى أدب الدنيا والدين : «لا تلمس من مساوى». (٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث.

رجل فقال له أبو ذرّ : يابن اليهودية ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ماترى ها هنا أحمر وأسود ماأنت بأفضل منه" يعني بالتقوى ، ونزلت «ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ» . وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ؛ فنهى الله أن يُعيَّر بما سلف . يدلّ عليه ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من عيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حقًّا على الله أن يَبْتَلِيه به ويَفْضَحَه فيه فى الدنيا والآخرة" .

الثالثة — وقع من ذلك مستثنًى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوّزته الأمة واتفق على قوله أهل المِلّة . قال ابن العربيّ : وقد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك فى كتبهم ما لا أرضاه فى صالح جَزَرة (١) ؛ لأنه صحّف «خرزة» فلُقّب بها . وكذلك قولهم فى محمد بن سليمان الحضرمى : مُطَيَّن ؛ لأنه وقع فى طين . ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغا فى الدِّين . وقد كان موسى بن عُلَىّ بن رَباح المصرىّ يقول : لا أجعل أحدا صغّر اسم أبى [فى حلّ] ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين . والذى يضبط هذا كُلَّه ؛ أن كلّ ما يكرهه الإنسان إذا نودى به فلا يجوز لأجل الإذاية . والله أعلم .

قلت — وعلى هذا المعنى ترجم البخاريّ رحمه الله فى (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح . فى « باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَيْن الرجل » قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما يقول ذو اليَدَيْن" قال أبو عبد الله بن خُوَيْز مَنْداد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لقّب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدّيق ، وعثمان بذى النُّورين ، وخزيمة بذى الشهادتين ، وأبا هريرة بذى الشِّمالين وبذى اليدين ، فى أشباه ذلك .

---

(١) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو على البغدادى الحافظ . روى الخطيب البغدادى بسنده ... سمعت صالحا — يعنى جزرة — يقول : قدم علينا بعض الشيوخ من الشام ؛ فقرأت أنا عليه : حدثكم جرير بن عثمان قال : كان لأبى أمامة خرزة يرقى بها المريض ؛ فصحفت « الخرزة » فقلت : كان لأبى أمامة « جزرة » وإنما هى « خرزة » . راجع تاريخ بغداد فى المجلد التاسع ص ٣٢٢ فى ترجمة صالح هذا .

الزَّمَخْشَرِى : « روى عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم " من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيه بأحبّ أسمائه إليه " . ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن ؛ قال عمـر رضى الله عنه : أشيعوا الكُنَى فإنها منبِّهة ، ولقـد لُقِّب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسـد الله ، وخالد بسيف الله . وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لَقَب . ولم تزل هـذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلها — من العـرب والعجم — تجـرى فى مخاطباتهـم ومكاتباتهم من غير نكير » . قال المـاوردى : فأما مستحب الألقـاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت — فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصـفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حُمَيد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحُميد الأعرج ، ومروان الأصغر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال : رأيت الأصلع — يعنى عمر — يقبّل الحجر . فى رواية الأُصَيلِع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أى عن هـذه الألقاب الذى يتأذّى بهـا السامعون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهى .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الذين آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ﴾ قيـل : إنها نزلت فى رجلين من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبىّ صلى

الله عليه وسلم كان إذا سافر ضم الرجلَ المحتاج إلى الرجلين المو سِرَيْن فيخدمهما . فضم سلمان إلى رجلين ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئا ، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما ، فقالا له : انطلق فاطلب لنا من النبي صلى الله عليـه وسلم طعاما و إداما ؛ فذهب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك " وكان أسامة خازن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه ، فقال أسامة : ما عندى شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ؛ فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل . ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجـد عندهم شيئا ؛ فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة[(1)] لغار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء ؛ فرآهما النبيّ صلى الله عليـه وسلم فقال : " مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما " فقالا : يا نبى الله ، والله ما أكلنا فى يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : " ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة " فنزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ذكره الثعلبيّ . أى لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير .

الثانيـــة — ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسّسُوا ولا تجسسوا ولا تَناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " لفظ البخارى . قال علماؤنا : فالظن هنا وفى الآية هو التُّهَمة . ومحل التحذير والنهى إنمـا هو تُهَمَة لا سبب لهـا يوجبها ؛ كمن يُتّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليـه ما يقتضى ذلك . ودليل كون الظن هنا بمعنى التُّهَمة قوله تعـالى : « ولا تجسسوا » وذلك أنه قـد يقع له خاطر التهمة ابتداء و يريد أن يتجسس خبر ذلك و يبحث عنـه ، و يتبصّر و يستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك . و إن شئت قلت : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجبَ الاجتناب .

---

(١) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء .

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأُونست منه الأمانة فى الظاهر، فظَنُّ الفساد به والخيانة محرم؛ بخلاف من آشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن الله حَرّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء" . وعن الحسن : كنا فى زمنٍ الظنُّ بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم فى زمن اعمل وآسكُتْ وظُنّ فى الناس ما شئت .

الثالثـة — للظن حالتان : حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيَم المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانيـة — أن يقـع فى النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهـذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهى عنـه على ما قررناه آنفا . وقـد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجـواز العمل به ؛ تحكّما فى الدين ودعوى فى المعقول . وليس فى ذلك أصل يعوّل عليـه ؛ فإن البارئ تعالى لم يذمّ جميعه ، وإنمـا أورد الذمّ فى بعضه . وربمـا تعلّقوا بحـديث أبى هريرة "إياكم والظن" فإن هذا لا حجة فيه؛ لأن الظن فى الشريعة قسمان : محمود ومذموم ؛ فالمحمود منه ما سـلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه . والمذموم ضدّه ؛ بدلالة قوله تعـالى : « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ، وقولـه : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا »[1] ، وقولِه : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا »[2] وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكى على الله أحدا" . وقال : "إذا ظننت فلا تحقّق وإذا حسدت فـلا تبغ وإذا تطيّرت فآمض" خرّجه أبو داود . وأكثر العلمـاء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبح؛ قاله المَهْدَوِىّ .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن بآختلاف وغيرهما « ولا تحسسوا » بالحاء . واختلِف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؛ فقال الأخفش : ليس

(١) آية ١٢ سورة النور . (٢) آية ١٢ سورة الفتح .

تبعـد إحداهما من الأخرى ؛ لأن التجسّس البحثُ عما يُكتم عنك . والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها . وقيـل : إن التجسس (بالجيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور . وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقولٌ ثانٍ في الفرق : أنه بالحاء تطلّبه لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ؛ قاله ثعلب . والأول أعرف . جَسَست الأخبار وتجسّستها أى تفحّصت عنها ؛ ومنه الجاسوس . ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تَتَّبعوا عورات المسلمين؛ أى لا يبحث أحدكم عن عَيب أخيه حتى يطّلع عليه بعـد أن ستره الله . وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن آتبعت عورات النـاس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء : كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها . وعن المِقدام بن مَعْدِى كَرِب عن أبى أُمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إن الأمير إذا آبتغى الريبـة فى الناس أفسدهم " . وعن زيد بن وهب قال : أُتِىَ ابن مُسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنـا شيء نأخذ به . وعن أبى بَرْزة الأسلمى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمـان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم . فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يَفْضَحه فى بيته " . وقال عبد الرحمن ابن عَوْف : حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج فى بيت بابُه مُجافٍ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هـذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرّب فما ترى !؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » وقـد تجسسنا ؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قِـلابة : حُدِّث عمر ابن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفِي يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ فخرج عمر وتركه . وقال زيد بن أسـلم : خرج عمر وعبـد الرحمن يَعُسّان ،

إذ تبيّنت لها نار فاستأذنا ففتح الباب ؛ فإذا رجل وامرأة تغنّى وعلى يد الرجل قدح ؛ فقال عمر : وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ! قال عمر : فمن هذه منك ؟ قال امرأتى ؛ قال فما فى هذا القدح؟ قال ماء زُلال؛ فقال للمرأة : وما الذى تُغنّين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل وٱسْودّ جانبُه ... وأرقنى أن لا خليلَ ألاعبُهْ

فـوالله لولا اللهُ أنى أراقبـه ... لزُعْزِع من هذا السرير جوانبه

ولكنّ عقـلى والحيـاء يَكُفُّنِى ... وأُكْرِم بعْـلِى أن تُنال مَراكِبُهْ

ثم قال الرجل : ما بهذا أُمِرْنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعـالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » . قال صدقت .

قلت : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل؛لأن عمر لا يقر على الزنى ، وإنمـا غنّت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها ، وأنها قالتها فى مَغيبه عنها (١) . والله أعلم . وقال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها فماتت فدفنها . فكان هو الذى نزل فى قبرها ، فسقط من كمّه كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختى إليه ؛ فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا ، فجـاء إلى أمه فقال : أخبرينى ما كان عمل أختى ؟ فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها ! فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابَهم ، فتَجَسّس عليهم وتُخرج أسرارهم ؛ فقال : بهذا هلكت !

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ نهى عز وجل عن الغِيبة ، وهى أن تذكر الرجل بما فيه ،فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أتدرون ما الغِيبة “ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ” ذكرك أخاك بما يكره “ قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟

(١) راجع هذه القصة فى جـ ٣ ص ١٠٨ من هذا الكتاب .

قال : "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته و إن لم يكن فيه فقد بهته". يقال : اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه ؛ والاسم الغِيبة ، وهى ذكر العَيْب بظهر الغَيْب[(١)] . قال الحسن : الغِيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان . فأما الغِيبة فهو أن تقول فى أخيك ما هو فيه ، وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه . وعن شعبة قال قال لى معاوية — يعنى ابن قُرّة — : لو مَرّ بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غِيبة . قال شعبة : فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق . وروى أبو هريرة أن الأسلمى ماعزًا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسمع نبيّ الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجم رَجْمَ الكلب ؛ فسكت عنهما . ثم سار ساعة حتى مرّ بجيفة حمار شائل برجله فقال : "أين فلان وفلان" ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله ؛ قال "انزلا فكُلا من جيفة هذا الحمار" فقالا : يا نبيّ الله ومن يأكل من هذا ! قال : "فما نلتما من عرض أخيكما أشدّ من الأكل منه والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها" .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ مثّل الله الغِيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبة من اغتابه . وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغِيبة حرام فى الدين وقبيح فى النفوس . وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غِيبته حيًّا . واستعمل أكل اللحم مكان الغِيبة لأن عادة العرب بذلك جارية . قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم * وإن هدموا مجدى بنيتُ لهم مجدا[(٢)]

(١) الظهر : ما غاب عنك .

(٢) البيت للمقنع الكندى ، واسمه محمد بن عميرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما صام من ظل يأكل لحوم الناس » . فشبّه الوقيعة فى الناس بأكل لحومهم . فمن تنقّص مسلما أو ثلَم عرضه فهو كالآكل لحمه حيًّا ، ومن آغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً . وفى كتاب أبى داود عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عُرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمُشُون وجوههم وصدورهم فقلت مَن هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » . وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سُمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة » . وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين » . وقوله للرجلين : « مالى أرى خُضرة اللحم فى أفواهكما » . وقال أبو قِلابة الرقاشى : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما فى الغِيبة . وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده ؛ ينهاه فإن انتهى وإلا قام . وذكر الثعلبى من حديث أبى هريرة قال : قام رجل من عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فرأوا فى قيامه عجزا فقالوا : يارسول الله ما أعجز فلانا ! فقال : « أكلتم لحم أخيكم وآغتبتموه » . وعن سفيان الثورى قال : أدنى الغِيبة أن تقول إن فلانا جَعْدٌ قَطَطٌ [١] ؛ إلا أنه يكره ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء ، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء . وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال : إياك والغِيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ؛ قال : إياه فارحموا . وقال رجل للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ! فقال : لم يبلغ قدرك عندى أن أحكمك فى حسناتى .

---

(١) الجعد فى صفات الرجال يكون مدحا وذما ؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسر (القوّة) والخلق . أو يكون جعد الشعر ، وهو ضد السبط .

وأما الذم فهو القصير المتردّد الخلق . وقد يطلق على البخيل أيضا ؛ يقال : رجل جعد اليدين . والقطط : القصير الجعد من الشعر .

السابعة — ذهب قوم إلى أن الغِيبة لا تكون إلا فى الدين ولا تكون فى الخِلقة والحسب . وقالوا : ذلك فعل الله به . وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا : لا تكون الغِيبة إلا فى الخَلْق والخُلُق والحسب . والغيبة فى الخَلْق أشد ؛ لأن من عَيَّب صنعة فإنما عيَّب صانعها . وهذا كله مردود . أما الأول فيردّه حديث عائشة حين قالت فى صفية : إنها امرأة قصيرة ؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لقد قلت كلمة لو مُزج بها البحر لمزجته " . خرجه أبو داود . وقال فيه الترمذى : حديث حسن صحيح ، وما كان فى معناه حسب ما تقدّم . و إجماع العلماء قديما على أن ذلك غِيبة إذا أريد به العيب . وأما الثانى فمردود أيضا عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أوّل الدهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم فى شيء أعظم من الغيبة فى الدين ؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر فى دينه أشد مما يكره فى بدنه . وكفى ردا لمن قال هذا القول قولُه عليه السلام : " إذا قلت فى أخيك ما يكره فقد اغتبته ... " الحديث . فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد ردّ ما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم نصًّا . وكفى بعموم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وذلك عام للدين والدنيا . وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت عنده لأخيه مَظْلِمة فى عِرضه أو ماله فليتحلله منه " . فعمّ كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شيئا دون شيء فقد عارض ما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة — لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل . وهل يستحلّ المغتاب ؟ اختلف فيه ؛ فقالت فرقة : ليس عليه استحلاله ، و إنما هى خطيئة بينه و بين ربه . واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس ذلك بمَظْلِمَة يستحلها منه ، و إنما المظلمة ما يكون منه البدل والعِوَض فى المال والبدن . وقالت فرقة : هى مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه . واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته . وقالت فرقة : هى مظلمة وعليه الاستحلال منها . واحتجت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت

لأخيه عنده مَظْلَمَة فى عِرْض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته". خرّجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه". وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة «آل عمران» عند قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ »(1) . وقد روى من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة : ما أطول ذيلها ! فقالت لها عائشة : لقد اغتبتيها فاستحلّيها . فدلت الآثار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها . وأما قول من قال : إنما الغيبة فى المال والبدن ؛ فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه ؛ وذلك ليس فى البدن ولا فى المال . ففى ذلك دليل على أن الظلم فى العِرض والبدن والمال ، وقد قال الله تعالى فى القاذف : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ »(2) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بهت مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله فى طِينة الخبال(3)" . وذلك كله فى غير المال والبدن . وأما من قال : إنها مظلمة ، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ؛ فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال كفارتها أن يستغفر لصاحبها ؛ لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم ؛ فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له . وأما قول الحسن فليس بحجة ، وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت له عند أخيه مظلمة فى عِرض أو مال فليتحللها منه" . وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله ، ورأى أنه لا يحل له ما حرّم الله عليه ؛ منهم سعيد بن المسيب قال : لا أحلل من ظلمنى . وقيل لابن سيرين : يا أبا بكر ، هذا رجل

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ . (2) آية ١٣ سورة النور .

(3) الخبال : الفساد ؛ ويكون فى الأفعال والأبدان والعقول . و « طينة الخبال » : عصارة أهل النار .

سألك أن تحلله من مظلمة هى لك عنده ؛ فقال : إنى لم أحرمها عليه فأحلّها ، إن الله حرّم الغيبة عليـه ، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبدا . وخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم يدل على التحليل ،وهو الحجة والمبيِّن.والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو ،وقد قال تعالى: « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ »(١) .

التاسـعة — ليس من هـذا الباب غِيبة الفاسق المعلن به المجاهر؛ فإن فى الخبر "من ألقى جِلْباب الحياء فلا غِيبة له" . وقال صلى الله عليـه وسلم : "اذكروا الفاجر بمـا فيه كى يحذره النـاس" . فالغيبة إذًا فى المرء الذى يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر . وقال الحسن لمـا مات الحجاج : اللهم أنت أمَتّه فاقطع عنا سنته — وفى رواية شَيْنه — فإنه أتانا أُخَيْفِش أُعَيْمِش ، يمدّ بيد قصيرة البنان ، والله ما عَرِق فيها غبار فى سبيل الله ، يُرَجِّل جُمّتـه ويَخْطِر فى مِشْيته ، ويَصْعَد المنبر فيَهْذِر حتى تفوته الصلاة . لا من الله يتّقِى ، ولا من الناس يستحى ؛ فوقه الله وتحتـه مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاةَ أيها الرجل . ثم يقول الحسن : هيهات ! حال دون ذلك السيف والسَّوْط . وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البـدع غِيبة . وكذلك قولك للقاضى تستعين به على أخذ حقـك ممن ظلمك فتقول : فلان ظلمنى أو غصبنى أو خاننى أو ضربنى أو قذفـنى أو أساء إلىّ ؛ ليس بغيبة . وعلمـاء الأمة على ذلك مجمعة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك : "لصاحب الحق مقال" . وقال : "مَطْلُ الغنِيّ ظلم" وقال : "لَىّ الواجد(٢) يُحِلّ عِرْضَه وعقوبته" . ومن ذلك الاستفتاء ؛ كقول هنـد للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : إن أبا سـفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى ، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "نعم فخذى" . فذكرته بالشُّحّ والظلم لها ولولدها ، ولم يرها مغتابة ؛ لأنه لم يغيّر عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لهـا . وكذلك إذا كان فى ذكره بالسوء فائدة ؛ كقوله صلى الله عليـه وسلم :

(١) آية ٤٠ سورة الشورى .   (٢) الواجد : القادر على قضاء دينه .

" أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم[1] فلا يضع عصاه عن عاتقه " . فهـذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس[2] بهما . قال جميعه المحاسبي رحمه الله .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ مَيْتًا ﴾ وقرئ « ميّتا » وهو نصب على الحال من اللحم . ويجـوز أن ينصب على الأخ ، ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . وفيـه وجهان : أحدهما — فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة؛ رُوى معناه عن مجاهـد . الثانى — فكرهتم أن يغتابكم النـاس فاكرهوا غيبة الناس . وقال الفراء : أى فقد كرهتموه فلا تفعلوه . وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر؛ أى اكرهوه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ عطف عليـه . وقيل : عطف على قوله : « اجتنبوا . ولا تجسسوا » . ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ يعنى آدم وحواء . ونزلت الآية فى أبى هنـد؛ ذكره أبو داود فى (المراسيل)؛ حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقيّة بن الوليد قال حدثنى الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بَيَاضة أن يزوجوا أبا هنـد امرأة منهم؛ فقالوا لرسول الله صلى الله عليـه وسلم : نزوج

(١) هو ابن حذيفة بن غانم القرشى . وقوله : « لا يضع عصاه » أى أنه ضراب للنساء . وقيـل : هو كناية عن كثرة أسفاره؛ لأن المسافر يحمل عصاه فى سفره . (٢) هى أخت الضحاك بن قيس، كانت من المهاجرات الأول، وكانت ذات جمال وعقل وكمال، وكانت عند أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم، فاستشارت النبي عليه السلام فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته .

بناتنا موالينا ؟ ! فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً » الآية . قال الزهرى : نزلت فى أبى هند خاصة . وقيل : إنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شمّاس . وقوله فى الرجل الذى لم يتفسح له : ابن فلانة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "من الذاكر فلانة" ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "انظر فى وجوه القوم" فنظر ؛ فقال : "ما رأيت" ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر ؛ فقال : "فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى" فنزلت فى ثابت هذه الآية . ونزلت فى الرجل الذى لم يتفسح له : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ »[1] الآية . قال ابن عباس : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن ؛ فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيّره . وقال أبو سفيان : إنى لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء ؛ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . زجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ؛ فإن المدار على التقوى . أى الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى . وفى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : "يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبّيّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برّ تقيّ كريم على الله ، وفاجر شقيّ هيّن على الله . والناس بنو آدم وخَلَق الله آدم من تراب قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » " . خرّجه من حديث عبد الله بن جعفر والد على بن المديني وهو ضعيف ، ضعّفه يحيى بن مَعين وغيره . وقد خرّج الطبرى فى كتاب (آداب النفوس) وحدّثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا إسماعيل قال حدّثنا سعيد الجُرَيرى عن أبى نضرة قال : حدّثنى أو حدّثنا من

(١) آية ١١ سورة المجادلة .

شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنًى فى وسط أيام التشريق وهو على بعـير فقال : "يأيها الناس ألا إن ربكم واحد و إن أباكم واحد ألَا لا فضل لعربىّ على عجمىّ ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلّغت؟ قالوا نعم؛ قال — ليبلّغ الشاهدُ الغائب". وفيه عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه و إنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم". ولعلىّ رضى الله عنه فى هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهـمُ آدمُ والأمّ حـواء
نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلة ... وأعظمٌ خُلقت فيهـم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُـدَى لمن استهدَى أدِلّاء
وقَدْرُ كلِّ امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعـال سيمـاء
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العـلم أعداء

الثانيــة — بيّن الله تعالى فى هـذه الآية أنه خلق الخلق من الذّكر والأنثى ، وكذلك فى أوّل سورة « النساء »[1] . ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السـلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين . وهـذا الجائز فى القدرة لم يرد به الوجود . وقد جاء أن آدم خلق الله منـه حوّاء من ضلع انتزعها من أضـلاعه؛ فلعله هـذا القسم؛ قاله ٱبن العربى .

الثالثــة — خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التى قدّرها وهو أعلم بهـا ؛ فصار كل أحد يحوز نسبه ؛ فإذا نفاه رجل عنه ٱستوجب الحدّ بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه ،

(١) راجع جـ ٥ ص ١ وما بعدها .

بقوله للعربي : يا عجمي، وللعجمي : يا عربي ؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة .
انتهى .

الرابعة — ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربى في رحم الأم ، ويستمد من الدم الذي يكون فيه . واحتجوا بقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ »(١) . وقوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »(٢) . وقوله : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى »(٣) . فدلّ على أن الخلق من ماء واحد . والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية ؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل . وقوله تعالى: « خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »(٤) والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ؛ على ما يأتي بيانه . وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسُّلالة والنطفة ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر . فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا . وبأن المرأة تمنى كما يمنى الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ؛ حسب ما تقدّم بيانه في آخر « الشورى »(٥) . وقد قال في قصة نوح « فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »(٦) وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين ، فلا ينكر أن يكون « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » . وقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ويريد ماءين . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الشعوب رءوس القبائل ؛ مثل ربيعة ومُضَر والأَوْس والخَزْرَج ؛ واحدها « شَعْب » بفتح الشين ؛ سُمُّوا به

---

(١) آية ٢٠ ، ٢١ سورة المرسلات .
(٢) آية ٨ سورة السجدة .
(٣) آية ٣٧ سورة القيامة .
(٤) آية ٦ ، ٧ سورة الطارق .
(٥) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء .
(٦) آية ١٢ سورة القمر .

لتشعّبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة . والشَّعْب من الأضداد ؛ يقال شعبته إذا جمعته ؛ ومنه المِشْعَب (بكسر الميم) ، وهو الإشفى ؛ لأنه يجمع به ويشعب . قال :

فَكَابٍ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ * بمَدْرِيَةٍ كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ (١)

وشَعَبته إذا فرّقته ؛ ومنه سميت المنية شُعوبا لأنها مفرّقة . فاما الشِّعب (بالكسر) فهو الطريق فى الجبل ؛ والجمع الشعاب . قال الجوهرى : الشَّعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ؛ والجمع الشعوب . والشُّعُوبية : فرقة لا تفضّل العرب على العجم . وأما الذى فى الحديث أن رجلا من الشعوب أسلم (٢) ؛ فإنه يعنى من العجم . والشَّعْب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذى ينسبون إليه ؛ أى يجمعهم ويضمهم . قال ابن عباس : الشعوب الجمهور (٣) ؛ مثل مضر . والقبائل الأفخاذ . وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب ؛ والقبائل دون ذلك . وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب . وقاله قتادة . ذكر الأول عنه المَهْدَوِىّ (٤) ، والثانى الماوردى . قال الشاعر :

رأيت سعودا من شعوب كثيرة * فلم أر سعدًا مثل سعدِ بن مالك

وقال آخر :

قبائل من شعوب ليس فيهم * كريم قد يعدّ ولا نجيب

وقيل : إن الشعوب عَرَب اليمن من قَحْطان ، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : إن الشعوب بطون العجم ، والقبائل بطون العرب . وقال ابن عباس فى رواية : إن الشعوب الموالى ، والقبائل العرب . قال القُشَيْرِىّ : وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والجبل (٥) والترك ؛ والقبائل من العرب . الماوردى : ويحتمل أن

(١) قوله : « فكاب على حر الجبين » أى خار على وجهه . و « المدرية » : القرن ؛ وهى المدرى والمدراة ، والجمع مدارومدارَى . و « ذلق » ذلق كل شىء : حدّه . و « مشعب » مثقب .

(٢) تمام الحديث كما فى اللسان : « فكانت تؤخذ منه الجزية ؛ فأمر عمر ألا تؤخذ منه » .

(٣) هـذا القول منسوب إلى ابن جبير . والمأثور عن ابن عباس أن « الشعوب الجماع » والجماع (بضم الجيم وتشديد الميم) : مجتمع أصل كل شىء . أراد : منشأ النسب وأصل المولد . وقيل : أراد به الفرق المختلفة من الناس .

(٤) هو طرفة بن العبد . (٥) الجبل : الأمة من الخلق والجماعة من الناس ؛ وفيه لغات كثيرة . راجع جـ ١٥ ص ٤٧ من هذا التفسير .

الشعوب هم المضافون إلى النواحى والشعاب ، والقبائل هم المشتركون فى الأنساب . قال الشاعر :

وتفرقوا شُعَبًا فكل جزيرة * فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبى عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ . وقيل : الشعب ثم القبيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ ثم الفَصِيلة ثم العَشيرة ، وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حَيٍّ * عددًا فى الحواء ثم القبيله

ثم تتلوها العِمارة ثم الـ * ـبطن والفخذ بعدها والفصيله

ثم من بعدها العشِيرة لكن * هى فى جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر :

قبيلة قبلها شَعْب وبعدهما * عِمارة ثم بَطْنٌ تِلْوُه فَخِذُ

وليس يؤوى الفتى إلا فصيلته * ولا سداد لِسَهْم ماله قُذَذُ[(1)]

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقد تقدّم فى سورة « الزخرف » عند قوله تعالى : « وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وِلِقَوْمِكَ[(2)] » . وفى هذه الاية ما يدلك على أن التقوى هى المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب . وقرئ « أنّ » بالفتح . كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وفى الترمذى عن سَمُرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الحسب المالُ والكرمُ التقوى" . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وذلك يرجع إلى قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . وقد جاء منصوصا عنه عليه السلام : "من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله" . والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه . وقد مضى هذا فى غير موضع . وفى الخبر من رواية أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة إنى جعلت نَسَبًا وجعلتم

(١) القذذ (جمع قذة) : ريش السهم . (٢) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .

نَسَبًا بجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون ". وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا ". وأعْرَض فى كُلِّ عِطْفَيْه . وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سرٍّ يقول : " إن آلَ أبِى ليسوا لى بأولياء إنما وَلِيِّيَ الله وصالح المؤمنين ". وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : من أكرم الناس؟ فقال : " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " قالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ قال : فأكرمهم عند الله أتقاهم " فقالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ فقال : " عن معادن العرب ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " وأنشدوا فى ذلك :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى * والعزُّ كلّ العِزّ للمُتَّقِي
من عرف الله فلم تغنه * معرفةُ الله فذاك الشَّقِي

السابعة — ذكر الطبرى حدّثنى عمر[1] بن محمد قال حدّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدّثنا مندل بن على عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبى الجعد قال : تزوّج رجل من الأنصار آمرأة فطُعِن عليها فى حسبها ؛ فقال الرجل : إنى لم أتزوجها لحسبها إنما تزوّجتها لدينها وخُلُقها ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " ما يضرّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة ". ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لَوْم على مسلم إنما اللَّوْم لَوْمُ الجاهلية ". وقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى " ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى . قال آبن العربى : وهذا الذى لحظ مالك فى الكفاءة فى النكاح . روى عبد الله عن مالك يتزوّج المَوْلى العربية ؛ واحتج بهذه الآية . وقال أبو حنيفة والشافعى :

(١) فى بعض النسخ : « عمرو » .

يراعى الحسب والمال . وفى الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم — تبنّى سالما وأنكحه هندا(١) بنت أخيه الوليد بن عتبة ابن ربيعة ؛ وهو مولًى لأمرأة من الأنصار . وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المِقداد بن الأسود .

قلت : وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة . فدلّ على جواز نكاح الموالى العربية ؛ وإنما تراعى الكفاءة فى الدِّين . والدليل عليه أيضا ما روى سهل بن سعد فى صحيح البخارى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ عليه رجل فقال : " ما تقولون فى هذا " ؟ فقالوا : حَرِىٌّ إن خطب أن يُنْكَح ، وإن شَفَع أن يُشَفَّع وإن قال أن يُسْمَع . قال : ثم سكت ؛ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : " ما تقولون فى هذا " قالوا : حَرِىٌّ إن خطب ألا يُنْكَح ، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع ، وإن قال ألا يُسْمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا خير من مِلء الأرض مثل هذا " . وقال صلى الله عليه وسلم : " تُنْكَح المرأة لمالها وجمالها ودينها — وفى رواية — ولحسبها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك " . وقد خطب سلمان إلى أبى بكر آبنته فأجابه ، وخطب إلى عمر آبنته فالتوَى عليه ، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها ؛ فقال بلال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من بنى البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعونى وآذونى ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال ؛ فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم : أمرى بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزوّجوها . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى أبى هند حين حجمه : " أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه " . وهو مولى بنى بياضة . وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِىّ عن عُرْوَة عن عائشة أن أبا هند مولى بنى بياضة كان حجاما فحجم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى أبى هند" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوه وأنكحوا إليه " . قال القشيرى أبو نصر :

---

(١) وتسمى فاطمة .

وقد يعتبر النسب فى الكفاءة فى النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوّة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين فى الزهد والصلاح. والتقىّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب؛ فإن كانا تقيّين فحينئذ يقدّم النسيب منهما؛ كما يقدّم الشاب على الشيخ فى الصلاة إذا استويا فى التقوى.

قوله تعالى : قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السرّ. وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يَمُنّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس : نزلت فى أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين. وقال السدّى : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مُزَيْنة وجُهَيْنة وأَسْلَم وغِفَار والدِّيل وأشجع؛ قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا؛ فنزلت. وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى. ومعنى «وَلَكِنْ قُولُو أَسْلَمْنَا» أى استسلمنا خوف القتل والسَّبْى، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا فى ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم؛ وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الظاهر، وذلك يَحْقِن الدّم. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَه﴾ يعنى إن تخلصوا الإيمان ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أى لا ينقصكم. ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ لاته يليته ويَلُوته : نقصه. وقرأ أبو عمرو «لا يألتكم» بالهمزة، من أَلَت يَألِت

أَلْتًا ؛ وهـو اختيار أبي حاتم ؛ اعتبارا بقوله تعـالى : « وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ »[(١)] قال الشاعر :

أبلـغْ بنى ثُعَلٍ عنّى مُغَلْغَلَةً * جَهْدَ الرِّسالة لا أَلْتًا ولا كَذِبا

واختار الأولى أبو عبيد . قال رُؤْبة :

وليـلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ * ولم يَلِتْنِى عن سُرَاها لَيْتُ

أى لم يمنعْنى عن سُراها مانع ؛ وكذلك ألاته عن وجهه ؛ فَعَـل وأفعَل بمعنًى . ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا ؛ أى ما نقصه ؛ مثل ألَته ؛ قاله الفرّاء . وأنشد :

ويأكلن ما أغْنَى الوَلِىُّ فلم يَلِتْ * كأنّ بحافات النِّهاء المَـزَارعا[(٢)]

قوله : فـلم « يَلِتْ » أى لم ينقص منـه شيئا . و « أَغْنَى » بمعنى أنبت ؛ يقـال : ما أَغْنَت الأرض شيئا ؛ أى ما أنبتت . و « الوَلِىّ » المطر بعد الوَسْمِىّ[(٣)] ؛ سُمِّى وَلِيًّا لأنه يلِي الوسمِىّ . ولم يقل : لا يألتاكم ؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى صدقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحـة . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى إيمانهـم ؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب . فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون فى السر

---

(١) آية ٢١ سورة الطور .		(٢) البيت لعدى بن زيد .

(٣) الوسمى : مطر الربيع الأول ؛ سمى به لأنه يسم الأرض بالنبات .

والعــلانية وكذبوا ؛ فنزلت . ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُم ﴾ الذى أنتم عليـه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ إشارة إلى قولهم : جئناك بالأثقال والعيال . و « أن » فى موضـع نصب على تقـديرلأن أسلموا . ﴿ قُـلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ أى بإسلامكم . ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَـدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ « أن » موضع نصب، تقديره بأن . وقيل : لأن . وفى مصحف عبد الله « إذ هداكم » . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنين . وقرأ عاصم « إن هداكم » بالكسر ؛ وفيه بُعْدٌ ؛ لقوله « إن كنتم صادقين » . ولا يقال : يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم . والقراءة الظاهرة « أن هداكم » . وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين ؛ لأن تقـدير الكلام : إن آمنتم فذلك منة الله عليـكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِـيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو بالياء على الخبر ؛ ردّا على قوله : « قالت الأعراب » . الباقون بالتاء على الخطاب .

تم بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من تفسير القرطبى،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر، وأوّله :
" ســورة (قٓ) "

* * *

كَمُلَ طبع الجزء السادس عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٦
(٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥/٤٣/٣٠٠٠)

